رواية
اختبار الندم
خليل صويلح
مكتبة
نوفل

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

اختبار الندم

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2017 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2017
سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

صورة الغلاف: **©Shutterstock.com**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
متابعة النشر: **رنا حايك**
طباعة: **المطبعة العربية**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-438-671-2
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-438-672-9

رواية

اختبار الندم

خليل صويلح

مكتبة 447
نوفل

كان على أحدنا أن يقيسَ مقدار الألم بمبضع الغياب

«لستُ أول امرأة تقع في غرامها
ولستَ أول رجل أنظر إليه، وأنا متخمة بآمال كثيرة
كلانا قاسى أوجاع الفقد الحادّة، كما نصل سكّين
كلانا عاش بفمٍ مغطّى بجروح متقشّرة، أكثر من الجِلد
حسناً، إليك ما سنفعله لنلتئم
سأقبّلك كما لو كنتَ الغفران
ولتضمّني إليَك كما لو كنتُ الأمل
أذرعنا ستضمّد الأوجاع
ولن أخاف أبداً من آثار ندوبك».

كليمانتين ڤون راديكس

1

الندم؟ ربما هو اعتذار متأخر عن أفعال كنّا نظنُّ أننا على صواب لحظة ارتكابها، أو عدم تحقيقها لحظة التفكير فيها، كأن أحيط خصرك بذراعي في تقاطع شارع الفردوس مع شارع المتنبي، عصر ذلك اليوم من تشرين الأول، بذريعة أن المطر يستدعي حميمية مشابهة لما يحدث في الأفلام.

أخبرتني في الطريق بأنك جائعة أولاً، ونباتيّة ثانياً، وتعشقين البطاطا بالمايونيز ثالثاً، فكان عليّ أن أفتّش عن مكانٍ يحقق رغبتك هذه. في مطعم «بيكاسو» كانت الطاولات والكراسي كلّها باللون الأحمر. ذريعة كبرى للغوص في اشتقاقات هذا اللون لجهة الشهوة، وتفكيك غموض العلاقة بيننا بمراودات حسيّة ملتبسة، تتخللها إشارات خاطفة عن الدماء التي خلّفتها الحرب بالأحمر أيضاً. ستؤجّلين زيارتك الثانية لدمشق، بسبب غزارة الأمطار في الجنوب. في الأساس، لم أعلّق آمالاً كبيرة على هذه الزيارة، ولم أفكّر جديّاً في خصوصيّة ما، ستجمع بيننا مجدّداً. ربما كان الضجر أحد أسبابي في تطريز عباءة العزلة والتدثّر بها كلّ هذا الوقت. لكنّني عند زيارتكِ

المباغتة، بعد نحو أسبوعين على غيابك، اعتبرتُ الأمر فألاً حسناً، أو وقتاً مستقطعاً، يكسر سأم أيّامي المتشابهة. كنت أخبرتك عرضاً، بأنّ هاتفك ذلك الصباح أنعشني كثيراً، وبأنّك تشبهين مُزنةً مفاجئة، بلّلت جفاف روحي. دردشة ليليّة متأخّرة على موقع الفايسبوك، أطاحت توقعاتي بالخسران. كأنّ الكتابة الافتراضيّة تمنحنا جرعة من الشجاعة في الخوض بما لا يمكن أن نقوله مباشرة، كما أن البلاغة المراوغة بعبارة ملغّزة، أو بإشارة قابلة للتأويل، أو ببيت شعر مستعار من إحدى المدوّنات الرائجة، ستحطّم حواجز الرصانة تدريجاً، بانزلاقات لغويّة، تبدو للوهلة الأولى غير مقصودة، رغم أنّك كنت تنصبين فخاخك الطائشة أيضاً، ولكن ليس بالقوة التي كنت أقتحم بها أسوارك المنيعة، وأحاول بها التسلّل إلى مناطق خطرة، كنتِ حذرة في الخوض في مياهها الراكدة، تلك التي تقع خارج باب الحشمة. أو على نحوٍ أكثر دقّة، كنت تشعلين الوقود بعود ثقابٍ غير مرئيّ، ثمّ تطفئين النار بعبارة مضادّة لا تخصّ الحطب الذي جمعناه معاً، من غابة الغواية المجاورة، كنوع من الهروب، أو عدم إعلان الاستسلام. حدث تعارفنا الأوّل، باتّصال هاتفي منكِ، قبل خمس سنوات تماماً. كنت مرتبكة إلى حدٍّ ما. أخبرتني بأنّ هناك ما يخصّني في حياتك، وأنّك ستوضحين الصورة حين نلتقي. لم أهتمّ بالأمر كثيراً، أو أنّني نسيته تماماً. خمس سنوات؟ إنّها عملياً تساوي سنوات الجحيم التي لم تنتهِ بعد. في تلك الفترة العاصفة، هناك من هزّ أغصان الشجرة، فتناثرت الثمار من حولها، ثم أتى آخرون وسحقوا بأحذيتهم الثقيلة تلك الثمار، ثم أحرقوا الشجرة.

ما جرى لاحقاً أطاح خططي تماماً.

كنتُ قد أجبت صحافية، في حوار على الهاتف، بأنَّ روايتي المقبلة ستكون عن العشق. قلتها بكامل طمأنينتي، مثل لاعب كرة

مضرب أنهى تمارين الإحماء، ولم يبقَ أمامه إلّا أن يهرول إلى الملعب، محتفظاً بخططه السريّة في كيفية تسديد الكرة إلى أرض الخصم. حرائق الحرب قذفت أفكاري بعيداً، ولم يعد وارداً أن أكتب عن «غراميّات مرحة»، وسط الجحيم اليومي، وأخبار الموتى، وفواتير الكراهية التي كان علينا أن ندفعها للبرابرة كلّ يوم.

كان ينبغي أن أجيبك عن سؤال الكراهية أولاً، لا عن سؤال الندم. الكراهية التي كانت مغلّفة بشوكولا فاسدة، وبأحقاد دفينة بطعم الحنظل، وخناجر مسمومة في الظهر، لحظة العناق. الكراهية التي خلعت بزّة الغفران عند أول منعطف للثأر لتتّخذ هيئة السيف المسلول.

كانت الحركة الأولى في لعبة الشطرنج الوهميّة بيننا، بأن دفعتُ حصاني فجأة نحو الرقعة التي تخصّك بعبارة مباغتة، من خارج أسوار الحذر: «رائحتك تقتحم عزلتي». لم تكن رصانة الدردشات الليليّة السابقة تحتمل مثل هذا التحوّل المفاجئ. كنت أختبر ارتباكك أمام عبارة حسيّة من هذا النوع، كما ضجرت من الطواف في جنّة الروحانيّات التي كنت تتخندقينَ خلفها لحماية نفسك من الانزلاق إلى منطقتي البلاغيّة المكشوفة.

كنتُ قد نصحتكِ إثر قراءة بعض نصوصك الشعريّة بتقشير اللغة من صمغ العبارات الجاهزة، تلك التي لا تضيف تفّاحةً واحدة إلى بستان الشهوة، وتجريف أحاسيسك المبهمة ممّا يثقلها من فائض التفسير، وأضفتُ عبارة مرتجلة لا أعلم كيف قفزت أمامي فجأة مثل سنجاب «لا يمكننا دخول قسم الإسعاف من دون نقّالة». إشارة التعجّب التي كتبتِها، استدعت فكرة أخرى زيادةً في التوضيح «الكتابة هي اللحظة الفاصلة بين الحياة والموت، أو النقّالة البيضاء التي تقودنا إلى غرفة الإنعاش، وتالياً استنشاق الأوكسجين بما يكفي

للنجاة». نكتب إذاً، كي نحوّل ثاني أكسيد الكربون إلى أوكسجين، والفحم إلى ثمار بريّة بمذاق حرّيف، ولترويض آلام الجسد وخطاياه.

2

محاولة الالتفاف على عبارة «رائحتك تقتحم عزلتي» في عدم الردّ بعبارة حاسمة، وذلك بوضع أيقونة جاهزة من محتويات الموقع الأزرق تجعل العينين على هيئة قلب صغير، لم تصمد طويلاً، فبعد ثلاث ليالٍ على تلك الدردشة، أضاء المستطيل الأزرق بكلمة «أفتقدك» من دون مقدّمات. وبمراوغات مشتركة، أنهت أسمهان مشعل دردشتها بعبارة مباغتة «تصبح على حبّي».

عند هذا الحدّ، أدركتُ أنّها قد بدأت تغوص في الرمال المتحرّكة للمعصية، تاركةً تعاليم مولانا جلال الدين الرومي عند العتبة، وقد نَسيتْ معجم التصوّف إلى الأبد، المعجم الذي كان درع السلحفاة الذي تخبّئ مشاعرها بين تجاويفه الصلبة. لعبة درع السلحفاة من جهتها، وأشواك القنفذ من جهتي، كانت مسلّية، وربّما مثيرة. أن تمدّ عنقها قليلاً ثمّ تندحر إلى الخلف، فيما كانت أشواك قنفذي تزداد صلابةً. القنفذ والسلحفاة؟ أحاول أن أتذكّر حكاية تخصّهما معاً. ذاكرتي لا تسعفني، فلكلٍّ منهما حكايته. ما الذي جمعنا معاً في حكايةٍ واحدة؟ كان عليها كسلحفاة أن تجري سباقاً مع الأرنب وستفوز حتماً، وكان عليّ كقنفذ أن أتعارك مع أفعى وأنتصر

عليها. ما أعجبني في سيرة القنفذ أنّه كائن ليليّ لا ينام، لكنني، في المقابل، لست شوكيّاً إلى هذا الحدّ، وإن استنفرتُ أشواكي، فذلك بقصد الدفاع عن النفس من طعنةٍ مباغتة.

كنتِ قد اخترتِ أن تكوني فراشة، في الألعاب اللغويّة التي كنّا نتبادلها في أوقات الضجر. شبّهتك بالغزالة، تعليقاً على صورتك التي أرسلتِها لي، وأنت تفتحين ذراعيك فوق صخرة جبليّة، ثمّ بين أطلال قلعة مهجورة، منذ ألف عام، بشعر مجعّد وطويل وأسود، كما لو أنّك تعانقين غيمة قريبة، لكنّك كنت مصرّة على الطيران بجناحي فراشة.

في تعليقٍ لاحق من دون سياق، كتبتْ لي «أيعجبك شَعري أم شِعري؟». تمهّلتُ قليلاً في الرّد، قبل أن أقع على إجابة مناسبة، فكتبتُ «شِعرُكِ يحتاج إلى جنون شَعرِكِ الغجريّ».

كان شَعرها مثيراً حقاً، وكم رغبت في أن أدسَّ أصابعي في ثناياه، فيما كانت هي منهمكة في التهام ما بقي من طبق شرائح البطاطا بالمايونيز أمامها. ثمّ تخيّلتُ المشهد ثانيةً، ونحن نتناول الشاي في مقهى «تراتوريا كافيه» في حيّ الشعلان، بإضافة تفصيل آخر، يتعلّق هذه المرّة بشامة تقع عند أسفل عنقها، اكتشفتها بالتفاتة منها، لحظة ارتفاع صوت الموسيقى من شاشة البلازما بأغنية قديمة للمغنّية ويتني هيوستن، قبل أن تنزلق عيناي إلى صدرها المكشوف قليلاً، عن نمشٍ خفيف على هيئة كمثرى مقلوبة، من دون توقّعات كبيرة بأن تتطوّر العلاقة بيننا إلى أكثر من ذلك، فهي كانت تجفل مثل غزالة أمام أيّ عبارة حسيّة ملغّزة. في ذلك الغروب الخريفي من تشرين الأول، سألتني ونحن نغادر المقهى: ما الندم؟

3

في طريقنا إلى موقف الحافلات، كنت أروي لها حكاية فيلم «الندم» للمخرج الجورجي تنجيز أبولادزه، كإجابة مؤقتة عن سؤالها، رغم أنها كانت ترغب في إجابة أخرى تتعلّق بخطأ أو صواب خيارها بهجران زوجها، بعد سبع سنوات من العشق، ثمّ الغيرة، ثمّ الاحتضار، ثمّ الفراق. كان نصف هذه السنوات جحيماً لا يُطاق، وفقاً لوقائع روتها لي في المقهى، عن كيفيّة اندحار الحبّ بقوّة البغضاء، وترويض المشاعر بخنجر الصمت.

عربة بائع الكستناء المشويّة عند سور حديقة المدفع، أربكت المشهد قليلاً، إذ انشغلت أسمهان بتعليقات جانبيّة حول شغفها بالكستناء، واعتذارها عن مقاطعتها لي، لحظة محاولتي استعادة مشهد دفن رئيس البلديّة في حديقة منزله، وظهور جثمانه بعد كلّ مرّة يُدفن فيها. كانت فكرة حمقاء أن أستدعي زمن ستالين بكلّ قسوته وجبروته وعنفه، إلى لحظة حميميّة كهذه، لكنّني تورّطت عمليّاً، ولم يعد مناسباً أن أتراجع، فأكملتُ حكاية الفيلم. كانت يداي ملوّثتين بسواد قشور الكستناء. الكستناء الساخنة التي كانت تلتهمها بلذّة واستغراق وذهول، وهي تنصت إلى بقيّة الحكاية:

«امرأة من ضحايا ستالين، تقطن في جوار المنزل، هي من كانت تنبش القبر وتُخرج الجثّة كلّ ليلة، كنوع من الانتقام لمقتل والديها بأوامر من هذا الجنرال الذي استباح كلّ المحرّمات، فرجل مثل هذا، مثقل بالآثام والضغينة والبطش، يجب ألّا يحظى بوقار الدفن، حسب قولها. بعد اعتقالها وتقديمها للمحاكمة ستؤكّد في شهادتها أنّه لا يجوز دفن رجل ارتكب مجازر بحق أبرياء. من جهته، سيُصاب الحفيد بصدمة، وهو يكتشف قسوة جدّه، رغم نفي الابن للتهم الموجّهة لأبيه، لكنّ المرأة تصرّ على موقفها بعدم دفن رجل مجرم، إلى أن تُكشف جرائمه على الملأ، فدفن الماضي يعني الصفح عن الأشخاص الذين دمّروا حيوات الآخرين بالبطش والقسوة والوحشية، بمن فيهم حفيد الجنرال الذي يُقدم على الانتحار كنوع من الندم على الانخراط في تاريخ مزوّر وبطولات وهميّة، فيما يضطرّ الابن – تحت وطأة انتشار الفضيحة – إلى إلقاء جثّة والده من صخرةٍ عالية تشرف على القرية».

شهقتْ أسمهان أكثر من مرّة، وهي تنصت إلى حكاية الفيلم، ومجاز الندم، ومعنى الصمت على جرائم مشابهة، حتى لو كان الأمر يتعلّق بآثام قصّة حبّ مجهضة، انتهت بالهجران.

4

في ذلك المساء، كانت ميكروباصات خطّ المهاجرين – باب توما، مزدحمة بالركّاب، تعبر الشارع بلا توقّف، ولم يتح لها الفوز بمقعدٍ فارغ، بعد نحو عشرين دقيقة من الانتظار، فقرّرتْ أن توقف تاكسي كي لا تتأخر أكثر من ذلك، في الذهاب إلى جرمانا، مكان إقامتها المؤقت لدى صديقتها جمانة سلّوم التي تعمل مصوّرة صحافيّة في وكالة أنباء حكوميّة، وكي تتفادى زحام التفتيش في نقاط الحواجز العسكريّة المنتشرة ليلاً، طوال المسافة إلى هناك. من النافذة الخلفيّة للتاكسي، لوّحت بيدها وهي تحمل كتاب الأعمال الشعريّة الكاملة لجوسيبي أونغاريتي، أعظم نحّات إيطالي في صقل رخام الكلمات، كما وصفتهُ لها، مكرِّرة شكرها لي، على هديّتي الثمينة لها. كنت أحاول زعزعة يقينها بمفهومها الراسخ للشعر، بقناعةٍ مضادة، فالشعر ينمو في مشتلٍ آخر، غير ذلك الذي اعتادته خلال قراءاتها، مؤكّداً لها، بوصفها فراشة، أن تجرّب رحيق كلّ أنواع الزهور، وامتصاص الرائحة السريّة لكلّ النباتات، وألّا تغرق بما يفرضه الأكاديميّون في منهاج قسم اللغة العربيّة في الجامعة، من نصوص محنّطة. «اسمعي، الشعر جنون المخيّلة وجموحها، مثلما هو أرشيف المحسوسات، من المتنبي

إلى آخر شاعر صعلوك لم يكتشفه أحد بعد». بعد نحو عشر دقائق على مغادرتها المكان، وكنت أفتّش في جيب جاكيتي عن مفتاح باب البناية، رنَّ هاتفي المحمول بمكالمة منها، أخبرتني، وأنا أصعد الدرج بمساعدة ضوء الولّاعة، لعبور عتمة انقطاع التيّار الكهربائي، بأنّها تستمع من مذياع التاكسي إلى أغنية أم كلثوم «فات الميعاد»، ثمّ قرّبت السماعة من مصدر الصوت كي أتأكد من حقيقة ما تقول، وتأكيداً لقوّة المصادفة «أن نحكي قبل قليل عن الندم، ثمّ نسمع أغنيةً عنه». كنت أحسّ بصداع شديد في رأسي، تناولت كبسولة بانادول، ثمّ استرخيت فوق فوضى سريري بكامل ثيابي، ووضعت سمّاعة الموبايل في أذني، بحثاً عن أغنية «فات الميعاد» في محطات الراديو. كانت أم كلثوم ما زالت تصدح بكامل حنجرتها «تفيد بإيه يا ندم، يا ندم، يا ندم».

5

في ظهيرة اليوم التالي، كنت أنتظر اتّصالاً منكِ، لنلتقي قبل أن تسافري إلى قريتك في الجنوب، سواء باسمك المستعار «آمال ناجي»، أو باسمك الحقيقي «أسمهان مشعل»، أحسست بضجرٍ لا يُطاق من أحاديث جلساء الطاولة في «مقهى الروضة». لم يعد لديّ ما يكفي من الصبر كي أحتمل تكرار الأحاديث نفسها عن الموتى، والقذائف، والمهجّرين، وأحوال الطقس، وقسوة العيش. كنت قد أخبرتك بأنّني، في السنوات الخمس التي مضت، جرّبت كلّ أنواع الصبر، ولا أعلم تماماً كيف احتملت تدابير هذه الوليمة المتنقّلة من القتل، والمذابح، والمقابر الجماعيّة، والمجاعات، وعنف الأرواح؟ وهذا ما يجعلني أشعر بالضيق، وبأنّ روحي تالفة لفداحة الخسارة. أريدُ أن أتنفّس هواءً مختلفاً، لكن لا إسطبل آخر غير هذا المقهى. وحين فقدت الأمل من مجيئك، غادرت المكان حانقاً، حتى إنّني نسيت علبة تبغي وولاعتي على الطاولة، وهو ما يحصل لي عادة، عندما أكون مضطرباً.

من دون مقدّمات كتبتْ لي ليلاً، في رسالة إلكترونيّة «امرأة تنهض وتغنّي، تتبعها الريح وتغويها، تطرحها أرضاً، هذه الأرض عارية، هذه المرأة عاشقة، هذا الحلم موت»، ثمّ «شكراً مرّة أخرى،

على هديّتك لي». قرأتُ هذه السطور، من قصيدة «غناء بدوي» لجوسيبي أونغاريتي، أكثر من مرّة، محاولاً تفكيك شيفرة اختيارها هذه السطور دون غيرها، وهل هي عتبة للإغواء، أم مجرّد اختيار عشوائي من الكتاب؟ المفردات الحسيّة جليّة هنا، وربما كانت إشارة صريحة منها، إلى رغبتها في دخول منطقة وعرة في العلاقة، تتجاوز اتّفاقنا الأوّليّ على أن نكون صديقين فحسب، من دون أعباء عاطفيّة ومكابدات غراميّة، على أن لا أبخل عليها بنصائحي في ما ترسله لي من نصوصها «سأكون قطتك الأليفة التي تجلس قرب قدميك، وتنصت إلى نصائحك الثمينة». احتججتُ على الفكرة، ووعدتها بأن أقرأ نصوصها بجديّة، ثمّ أقوم بتنقيتها من الأعشاب الضارّة. كتبتْ على الفور «حاضر يا معلّمي ومولاي». أجبتها بأنّني لا أحبّ أن أسمع منك مثل هذه العبارة ثانيةً، وكذلك كلّ ما يتعلّق بفكرة العبوديّة.

في الفترة الأولى من تعارفنا، كنت أقرأ نصوصها التي تصلني منها بوتيرة شبه يوميّة، على أنّها رسائل شخصيّة، واعترافات، وأوجاع، إذ لاحظتُ نبرةً مختلفة تغزو لغتها بمفردات حسيّة مكشوفة، وشهقات جسد محروم، وشبق خفيٍّ، لم يكن مألوفاً في نصوصها السابقة، وكأنّها أدركت أخيراً، أنّ الشعر يعمل في منطقة أخرى، مستنفراً كامل الحواسّ، أو «لذّة انتهاك اللغة»، كما كتبتُ لها متفلسفاً، بقصد تحريضها على ارتياد تضاريس تحتاج إلى حراثة أعمق «ببلطة، لا بقضيبٍ من الرمّان».

«بلطة!»، كتبتْ لي متعجّبة ومستهجنة، ثمّ بمراوغة «كيف لفراشة مثلي أن تحتمل مثل هذه القسوة؟». ارتجلتُ عبارة أخرى بقصد ردم المسافة أكثر «كتابة الحب تحتاج إلى أنياب أيضاً». مرّة أخرى استهجنت كلمة «أنياب!». في هذه اللحظة أدركتُ عمق الهوّة بيننا. هي تعيش عزلة طويلة في قرية منسيّة، لم تطأها قذيفة واحدة

طوال أعوام الحرب، تشاغل نفسها باكتشاف أنواع النباتات البريّة، الزعتر، والمريميّة، واللافندر، وإكليل الجبل، بالإضافة إلى الطيور، والزواحف، والحشرات، والرسم على جدران غرفتها نهاراً، واختبار صلابتها في كتم عواء ذئاب الرغبة في صدرها ليلاً، فيما أنا تائه في جنون مدينة تشيّع قتلاها كلّ يوم، وربّما كلّ ساعة، في أرتال من الجنازات.

«أجل بلطة»، أجبت. كنت أستعيد مشاهد متراكمة لبلطة مرفوعة فوق عنق شخص يجثو مرغماً على ركبتيه، أو لرجل مقطوع الرأس تتدلّى جثته من عمود كهرباء في ساحة مدينة عمرها ألف عام. بالطبع كنت أقصد حاجتنا إلى معجم جمالي يفسّر كيفيّة الجمع بين ثقل بلطة حادّة من مخلفات القرون الوسطى، وتقنيّة القنابل الذكيّة، في صفحةٍ واحدة، مثلما وجد هؤلاء البرابرة الفتاوى الإلهيّة للقتل بالبلطة أو السيف أو الحزام الناسف. وكي لا أستطرد في أمثلة أخرى عن العنف، سألتني «ماذا تقرأ الآن؟».

– «الكاتب وكوابيسه».

– تبّاً للكوابيس والبلطات والأحزمة الناسفة! لمن هذا الكتاب؟

– إرنستو ساباتو، عالم فيزياء أرجنتيني، اتّجه إلى الكتابة لمواجهة همجيّة العالم، وتسريع وتيرة الكارثة التي تحدق بالإنسانية، كما يقول، ويرى أنّ مهمّة الكاتب هي «تقيّؤ عالمه الداخلي».

– لا أعرف أرجنتينياً آخر عدا لاعب كرة القدم مارادونا، وربّما أسماء بعض ماركات مشروب المتّة. آه تذكّرت بورخيس. أليس أرجنتينياً أيضاً؟

ثمّ أضافت، من دون فواصل «أفتقدك».

6

تلك الليلة، داهمني كابوس أكثر بأساً من كوابيس إرنستو ساباتو. كان أبو العلاء المعرّي يقف ببابي، فيما رأسه يتدحرج على بعد خطوات منه. ما أتذكّره أنه ناولني نسخة ممزّقة من كتابه «رسالة الغفران»، طالباً منّي ترميمها، وإعادة نسخها، وحين أشرت إلى رأسه المقطوع، كما رأيته في صورة التمثال التي تداولتها الصحف والمواقع الإلكترونيّة، قال بأسى «تحطّمنا الأيام حتى كأننا / زجاج ولكن لا يُعاد له سبكُ»، ثمّ مضى متعثّراً، وهو يحمل رأسه بين يديه.

ما حدث لاحقاً، هو أنّني كلّما خرجت من المنزل، أصبحت أنظر إلى الجهة التي ارتطم بها رأس المعرّي، وإلى خيطٍ من الدم يسيل أمامي على الدرج.

كنت أغلق الباب وأنزل الدرج مهرولاً، لإبعاد طيف المعرّي عن ذهني، من دون جدوى، وقد احتجت إلى وقت طويل كي أزيح هذا المشهد عن عينيّ، ومحاولة نسيانه، باختراع قصص أقلّ ألماً.

ليلاً، كتبتْ لي «أمس حلمت بك»!

وبعد مراوغات لغويّة، واستعارات، وإحالات، فهمت منها أنه حلم شهوات، ورغبات متأجّجة، كانت تتجنّب أن تحكي عنها قبلاً،

أو ربّما هي تكتفي بإلقاء صنّارتها في مياه ضحلة، ثمّ تسحبها فارغة من الأسماك، ذلك أنّ علاقتنا الملتبسة بقيت عند عتبة الغرفة التي تنصح الحكايات الشعبيّة بعدم الدخول إليها، كي لا نتعرّض للأذى.

لم يكن مزاجي رائقاً للدخول في لعبة الغواية المستترة. كنت قلقاً بخصوص زيارة المعرّي لي في المنام، أو الكابوس، على نحوٍ أدقّ. أن تفتح الباب لرجلٍ برأسٍ مقطوع، ويطلب منك ترميم نسخة ممزّقة من كتابه، وإعادة نسخها.

ولكن هل هي إشارة لي، كي أعيد قراءة كتاب «رسالة الغفران» مجدّداً، وفحص ألغازه التي فاتتني قبلاً، وهل ينبغي أن أقابل شعراء الجنّة أولاً، أم شعراء النار، حسب توزيع الحصص في الكتاب، وماذا لو قلبت الأدوار، خلال عملية النسخ، خلافاً لقناعة المعرّي، كأن أضع امرأ القيس، وعنترة بن شدّاد، وطرفة بن العبد، والمرقّش الأكبر، والمرقّش الأصغر، والشنفرى، في الجنّة، وزهير بن أبي سلمى، والأعشى، والنابغة الذبياني، وعبيد بن الأبرص، في النار؟

حشرٌ، وجحيمٌ، وجنّةٌ مؤجّلة، هذا ما يحدث هنا كلّ يوم، في الأنفاق والجسور والحواجز. جحيم متكرّر لا يقلّ وطأة عن جحيم المعرّي. سينوغرافيا مسرحيّة باذخة لحشود تائهة بين برزخي الجنّة والنار. حشود بشريّة في لجّة العاصفة، كما لو أنّها هاربة من حريق أو زلزال أو لعنة إلهيّة. تمرّد وفوضى، وفناء وعدم. في هذه اللحظة الهذيانيّة، كان عنترة بن شدّاد يقطع الطريق متّجهاً إلى مضارب إحدى الكتائب المسلّحة لدفع فدية لخاطفي عبلة. ألف ناقة عبرت الحاجز الأوّل بصعوبة. وافق عنترة مضطرّاً، على شروط عساكر الحاجز بمصادرة كمّية من حليب النوق، بناءً على طلب شخصيّ من رئيس الوردية الذي كان يلعب النرد في غرفة الحراسة، وحين وصل عنترة

بقافلته إلى مضارب الكتيبة المسلّحة، كان منهكاً تماماً. هناك اكتشف انتحار عبلة، بعد أن تعاقب على اغتصابها أربعون مسلحاً.

استغربت خلال مراجعتي لكتاب «رسائل الغفران»، أن يلقي المعرّي بالمرقّش الأصغر في جحيم الهلاك، من دون تردّد. كان عليه أن ينجو، قلت لنفسي، لمجرّد أنّه قال هذا البيت «أينما كنتِ أو حَلَلتِ بأرضٍ / أو بلادٍ أحييتِ تلك البلادا».

7

كانت ورطة لكلينا، أن ندخل منطقة الحوّاس. خشيتكِ من الفقدان، وحذري من جنونك العاطفي الذي كان مدمِّراً، إلى درجة الفزع، قبل أن تتراجعي عن اعترافاتك الليليّة في صباح اليوم التالي بعبارة مختزلة «تباً للنبيذ»، بقصد تبرير نبرة المكاشفة الحسيّة العالية. كأنّ النهار يذيب زبدة الليل حقاً. ولكن ماذا أفعل بنصوصك المودعة لديّ؟ رائحة الشهوة تنزُّ من جلدك، ومن أصابعك التي كانت تسيل بحليب الكلمات، وشبق الانتظار.

سأعترف لكِ، من جهتي، بأنّني شعرت بالراحة إلى حدّ ما، حين أخبرتني بتراجع خططك في الهجوم «حكايات الحب العاصفة، غالباً ما تنطفئ بالسرعة نفسها التي اشتعلتْ بها، وأنا أخشى فقداناً آخر، فبالكاد رممّتُ كسور روحي». فأنا الآخر لست على ما يُرام، أقلّه في هذه الفترة، لديّ مشاغلي وهمومي وارتباكاتي العاطفية. تريدينني لكِ وحدك، وهذا ما لا أستطيع أن أعدك به، خصوصاً أنّك بعيدة. أعدك فقط حين تكونين في زيارة لدمشق، بأن نعبث بالوقت كما ترغبين، كما لو أننا حيوانان بريّان. بالنسبة إليّ، الصداقة أصعب

من الحبّ. الخطأ هنا، هو أن نستثمر الألفة لمصلحة الحبّ، وليس التدريب على تطوير درجات الصداقة. مهلاً، لا أنكر أنّني أشتهيتك أيضاً. كانت المرّة الأولى، أثناء عبورنا الممرّ الطويل للصيدليّة. كنت تسألين عن سائل طبّي من ماركة محدّدة لتحسين عمل العدسات اللاصقة. انتبهت إلى تناسق فخذيك صعوداً إلى مؤخّرتك المكشوفة قليلاً، إثر انحنائك إلى الأمام في حديثك مع الصيدلاني.

حين خرجنا من الصيدليّة إلى ضوء الشارع، قالت لي وهي تبتسم بمكر «أنتَ بصحبة أنثى شبه عمياء، لا تتركني وحيدة، أنت العكّاز الذي يقود خطواتي إلى جهة الطمأنينة». كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً، مشينا معاً، باتجاه الزقاق المؤدّي إلى مسرح القبّاني. أبدت رغبتها في أن نحضر معاً عرضاً مسرحيّاً، كانت قد وعدت أصدقاء لها بأنّها ستلتحق بهم هناك، فرفضت بشدّة، لأنّني لا أستطيع مشاهدة عرض مسرحي مرّتين، فقد سبق أن شاهدته في حفلة الافتتاح، وتثاءبتُ خلال العرض، أكثر من مرّة. أكملت الطريق صعوداً، نحو ساحة الشهبندر، من دون أن أعوّل كثيراً، على ما سيأتي به الغد.

إثر عودتها إلى قريتها في الجنوب أمطرتني نصوصاً جديدة، قالت إنّها كتبتها بما يشبه الحمّى. انتبهت خلال قراءتي هذه النصوص، إلى أنّها قد خلعت عباءة الصوفيّة التي كانت تتدثّر بها في نصوصها القديمة، ودخلت في منطقة حسيّة صريحة، فعبارة مثل «وعولك الجائعة تقضم عشبي الطريّ»، باغتتني حقاً، وإذا بالفراشة تتحوّل إلى طائرٍ بمنقارٍ حادٍّ، وخططٍ واضحة في اصطياد طرائد المجاز، وهذا ما انعكس على طريقتها في مخاطبتي لجهة الأشواق والوحشة والوله. كنت قد أخبرتها ونحن نعبر زقاقاً حجريّاً مائلاً في

حيّ سوق ساروجة، بأنّنا نحتاج إلى نفض الغبار عن اللغة أوّلاً، كي ندرك المعنى الحقيقيّ والعميق للزلزال الذي نعيشه اليوم، وتالياً فإنّ الجسد المكبّل ينتج لغةً مكبّلة، أو مومياء لغة، ننظر إليها بتبجيل وتقديس وخشوع، كما لو أنّنا في متحف. حبال متينة تتحكم بحركة أجسادنا، فيما يدير أجدادنا الموتى اللعبة ببراعة. فلكلٍّ منا جدّه المقدّس، يخرج كلّ لحظة من قبره، كي نتبع وصاياه بدقّة.

انظري إلى هذا الحشد أمام مخبز الكعك، إنهم أحفاد قتلة وفلاسفة وبنّائين وقوّادين ولصوص وسماسرة وجلّادين وشعراء وعشّاق، في مطحنة لا تتوقّف عن الدوران. ستجدين، من دون عناء، نسخاً مكرّرة من هؤلاء الأجداد، بعمائم وفتاوى وسيوف وشهوات مضمرة. سوف تستيقظ جدّتك السابعة غاضبة، لو أحطتك بذراعي الآن، على مرأى من المارّة، مثلما سيستيقظ أحد أجدادي البدو في صحرائه ساخطاً بسبب تدمير تعاليمه بضرورة الحشمة، وعدم إهدار كرامته بسلوكيّات لا تليق بسلالته. كما ترين، المسألة تتعلّق بما نرغب فيه سرّاً، وننكره علناً. ما نرغب فيه وما نندم على عدم تنفيذه لحظة التفكير فيه.

– بغيابك كنتُ أفكّرُ في غربة بيانو مسروق يقبع في مقهى شعبي مرتجل، وكيف وصل هذا البيانو الحزين مخفوراً إلى هذا المكان ليُوضع في ركنٍ مهمل. أنتِ ذلك البيانو، ولكن بأصابع معطّلة. نباتيّة بين أكلة لحوم البشر، وفراشة بين الغربان.

– بيانو؟

– أفترض أن نحكي عن آلات أخرى، العود، أو الناي، أو الربابة مثلاً، لا عن بيانو في مقهى مرتجل، كان مخزناً لبيع إطارات السيّارات، قبل أن يستولي عليه لصّ إسمنت سابق، كان يتسكّع في

الشوارع نهاراً، ويسطو على الإسمنت ليلاً، من مستودعات عمارات قيد الإنشاء. هذا اللصّ طوّر عمله خلال الحرب بغزوات تعفيش إلى بيوت أحياء مدمّرة ومهجورة في الضواحي. وفي غزوة أخيرة، وجد بين أثاث أحد البيوت بيانو فأحضره إلى المقهى بكراسيّه المتعدّدة الأشكال، نظراً لتعدّد مصادرها، لأنّه لم يجد من يرغب في شرائه، أو العزف عليه. البيانو الذي أخذ مكانه بجانب الممرّ الضيّق المؤدّي إلى المرحاض، ما زال يحتفظ ببعض النوتات على الحامل المعدني المرافق له. نوتات يغطّيها الغبار، ربّما كانت مقطوعات من أعمال باخ، أو بيتهوفن، أو شوبان.

مرّة أخرى، أقول لك: أنتِ ذلك البيانو الذي افتقدَ ركنه الأليف، وأضاع أصابع من كان يعزف عليه، تلك المقطوعات الخالدة.

بيانو وسط الحطام. صورة أخرى أستعيدها من ساحة مخيّم اليرموك، أثناء حصاره الطويل، لشابّ فلسطيني اسمه أيهم الأحمد، أحضر بيانو متهالكاً إلى الساحة التي حوّلها المحاربون إلى خرائب، وعزفَ وغنّى مقطوعات عن الجحيم الدنيوي، قبل أن يمنعه التكفيريّون من إحياء حفلة مشابهة، وهدّدوه بالذبح، فاضطرّ إلى الهجرة إلى ألمانيا في رحلة لجوء شاقّة، ليقيم حفلاته هناك بطمأنينة (بإمكانك مشاهدة فيديو له على اليوتيوب). تكمن المعضلة، كما تتبدّى لي الآن، بين البيانو من جهة، والربابة من جهةٍ ثانية، ثمّ بتحطيمهما معاً، بالبلطة نفسها التي أطاحت رأس تمثال المعرّي، والفتوى التي أدّت إلى حرق كتب ابن رشد، وتقطيع أوصال الحلّاج، وقتل السهروردي، وإعدام صديقي الشاعر بشير العاني، لنجد أنفسنا بعد رحلة الهلاك هذه في العراء. ربّما كنتِ تنتظرين منّي كلاماً آخر، يتعلّق بالبهجة المسروقة، بوجودنا معاً لساعات قبل مغادرتك دمشق إلى قريتك في الجنوب، لكنّني أشعر بالاختناق والضجر والتيه.

أغبطك على عزلتك الريفيّة، فأنتِ تعيشين وحيدة في كوكبٍ آخر، لم يكتشفه البرابرة بعد، وكأنّك «الأمير الصغير» في رواية أنطوان دو سانت إكزوبري، بدليل أنّك لم تشهدي سقوط قذيفة واحدة، أو أشلاء موتى، أو نفير سيّارات إسعاف، طوال خمس سنوات.

8

كنتُ غارقاً في تأمّل صورٍ أرشيفيّة ومخطّطات غامضة تتعلّق بكتابة مقترحات أوليّة عن ساحة المرجة، كمشروع فيلم لورشة من الهواة، في معهد لتعليم كتابة السيناريو. اخترت هذه الساحة على وجه التحديد، لأنّها قاع المدينة بكلّ صخبه، وروائحه، ومقاهيه، وفنادقه الرخيصة، وألغازه الليليّة. وهناك سبب إضافي للاهتمام بهذه الساحة، هو أنّني لم أشاهد فيلماً روائيّاً واحداً، سجّل لقطة عابرة عن هذا المكان، رغم إغراءاته البصرية، في سينما عمرها نحو تسعين عاماً. كانت الصورة الأولى لقافلة من الجمال المحمّلة بالبضائع التقطتها عدسة المصوِّر الفرنسي فيليكس بونفيليس في عام 1885، وسأجد صوراً أخرى في موقع المتحف الفوتوغرافي السوري لمصوّرين آخرين مثل أنونيم فرنسيس، وتشارلز سكوليك، وسليمان الحكيم، ترصد حشود مَحْمَل الحجّ، ثمّ صورة للنصب التذكاري الذي أمر بإقامته والي دمشق العثماني حسين ناظم باشا في الساحة لمناسبة إطلاق خط التلغراف بين إسطنبول، ودمشق، والمدينة المنوّرة (1907)، وصولاً إلى خدمة التراموای في العام نفسه، ليختفي الحنطور الذي كان يجرّه

حصان. وفي نهاية الحرب العالميّة الأولى، ستشهد هذه الساحة ظهور الأوتومبيل، ثمّ البوسطة. وكان لتأسيس شركة «نيرن» للنقليّات، على يد ضابط نيوزلندي في الجيش البريطاني يُدعى نورمان نيرن، فرصة سحريّة للمغامرة في السفر إلى بغداد في عربات مقطورة عبر الصحراء، وإلى بيروت في سيّارات صغيرة من طراز كاديلاك. ولكن ماذا أفعل بصورٍ فوتوغرافيّة بالأبيض والأسود؟ أرغب في تحرير صورة ساحة المرجة الآن، ونبش أحشائها وأسرارها وعنفها المخبوء، لا قبل قرنٍ مضى. سأمحو مشهدين كانا يلحّان عليّ: مشهد الإعدام شنقاً للوطنيّين الأحرار بأمر من والي الشام العثماني جمال باشا (6 أيار– 1916)، ومشهد إلقاء جثث الثوار الذين أعدمتهم سلطة الانتداب الفرنسي في نهر بردى (1925)، النهر الذي يخترق هذه الساحة كسيفٍ من أشجار الحور.

وسأصحو من فوتوغرافيا الحنين على رنين هاتفي «أرغب في سماع صوتك فقط، كي أنام». ذريعة قويّة في تبرير اتّصال هاتفي متأخّر. ودون تفكير أجبتها بعبارة قطفتها على عجلٍ، من كنوز أنسي الحاج «تسهرين فيَّ كاللّهب في السراج»، وهو ما أشعل حنينها للتوغّل أكثر في ما هو حميمي ومفتقد في ليالي وحدتها، واعترافها بوجع جسدها وحاجتها للدفء. لم تكن لديّ الحماسة الكافية للانزلاق نحو «طوبوغرافيا الحواسّ»، العبارة التي كنّا نلجأ إليها، في هذا المقام، بعد مناورات طويلة، وذلك بسبب الإرهاق أولاً، وانشغالي بإكمال ترتيب أفكار مشروع توثيق ساحة المرجة بصريّاً، فاختزلتُ المكالمة بعبارة «عناق طويل». هذا الوقت المستقطع أضاء فكرة أخرى في ذهني بخصوص جماليّة المكان، وهي أن أقتفي أثر أوّل دار سينما بُنيت في الساحة، أقصد سينما «زهرة دمشق» لصاحبها حبيب شمّاس، الدار التي عرضت فيلم «المتّهم البريء» لمخرجه أيّوب بدري، في

عام 1928، وهو أوّل فيلم روائي طويل يصوّر في دمشق، مروراً بدور السينما الأخرى مثل «الكوزموغراف»، و«سنترال»، و«النصر». لقد اختفت هذه الدور اليوم بفعل الحرائق، أو بسبب تنظيم العمارة في محيط الساحة. سنجدُ، في الورشة، صعوبة في إنجاز شريطٍ حارّ يعبّر عن حيويّة ساحة المرجة ودهاليز حياتها السريّة، أو غليانها نهاراً وليلاً، بمجموعة صور فوتوغرافيّة تالفة.

اتّفقنا، بعد نقاشات طويلة، على رصد ليل الساحة وصولاً إلى فجر اليوم التالي. توجيه العدسة نحو فنادق الغرباء، وملامح القوّادين، ونداءات سائقي التاكسي الذين يصطادون سكارى آخر الليل، وبائعات الهوى، ومهرّبي الخمور والتبغ والمخدّرات. ربّما لهذه العناصر كلّها، ابتعدتْ السينما عن فحص القاع، والاكتفاء بالسطح من دون تقشير طبقاته بعمق. أنهينا أخيراً، على أن يكون المشهد الأوّل ليليّاً، فوق سطح أحد الفنادق، لنزيل شابّ يستأجر فراشاً على السطح بأجر مخفوض، لكنّه لن يتمكّن من النوم ساعةً واحدة، بسبب جحافل البعوض، فيضطرّ للنهوض من فراشه، وتأمّل اللوحة السرياليّة لعشرات الأجساد المتعبة الغارقة في النوم على امتداد مساحة السطح، ثمّ يستند إلى السور ليكتشف من موقعه حركة الساحة ما بعد منتصف الليل إلى الفجر. سيلتفت أوّلاً، إلى مطاردة بين دوريّة شرطة ومهرّب تبغ. ثمّ إلى شجار بين عاهرة وقوّاد. ثمّ يستدير إلى مشهد سائق تاكسي يحمل حقيبة رجل بدوي ويتّجه إلى الفندق نفسه. شاحنة صغيرة محمّلة بأقفاص الدجاج. عربة شواء. جندي متعب يغفو على طاولة مقهى. يعود إلى فراشه وقد جافاه النوم، يشعل سيجارة، ويغرق في أحلام يقظة متداخلة. سوف تصعد العاهرة التي شاهدناها قبل قليل إلى السطح، وتندسّ في فراش النزيل، وهي تستنجد به كي ينقذها من القوّاد. تحتضنه بعنف.

سيغيّب كلّ صخب الساحة إلى صمتٍ تام، عدا تأوّهات العاهرة وهي تعبث بأعضائه المستنفرة، لكنّه سيبلّل الغطاء القذر لفراشه خلال ثوانٍ، على مقربة من كومة ورود، كان قد وضعها في سطل ماء، لحظة دخوله السطح، فيما تسقط جمرة السيجارة على طرف الفراش فيقفز ملسوعاً، ليصحو على صوت أذان الفجر.

– صوت أذان الفجر أم صوت انفجار قذيفة؟

سؤال أحد المتدرّبين في الورشة، أربكني قليلاً، فآثرت أن أحيل السؤال على بقيّة زملائه.

اعترض أحدهم على مزج لحظة الاستمناء مع ارتفاع صوت المؤذّن قائلاً: «عدا خشونة اللقطة، لديّ يقين بأنّ لجنة الرقابة ستعترض على فينال الفيلم». نهض متدرّب كسول عن مقعده، وبدا واضحاً من حركة جسمه أنّه أنهى سيجارة حشيش في الاستراحة، وقال بنبرة من لديه الخبر اليقين «أيّها الأصدقاء، مشكلتنا الأزليّة تعمل على محورين هما الكبت الجنسي، والنفاق الديني. عليهما اللعنة. نقطة انتهى»، ثمّ تكوّم في مقعده، وهو يلقي نظرة شهوانيّة نحو زميلته في المقعد المجاور. نوبة الضحك التي اندلعت، إثر هذه المرافعة، أضاعت البوصلة، فانسحبتُ من القاعة، على أن نكمل فكرة الفيلم في الحصّة المقبلة، وأنا أفكّر في مقترحات مشعّة تتجاوز ما تداولته مع المتدرّبين في النقاش، أو تضيء الدهليز المعتم في السيناريو، خصوصاً ما يتعلّق بثنائيّة الكبت الجنسي والنفاق الديني. ألا تكمن المشكلة هنا فعلاً؟ وبالنسبة للنزيل الغريب، هل سيبقى على سطح الفندق، أم سيحلم بحوريّة في الجنّة؟ وما المسافة التي تفصله عن الانتساب إلى كتيبة مسلحة لتحقيق حلم يقظته اللعين؟ وفيما كنت أنزل الدرجة الأخيرة من درج المبنى، استوقفتني متدرّبة محجّبة بسؤال:

– ولكنّك لم تبرّر وجود سطل الماء المملوء بالورد الذي أحضره النزيل إلى السطح.

– سنجد حلّاً للمشكلة. سطل ماء مملوء بالورد، أقلّ عبئاً من مشكلة الكبت الجنسي، وصوت المؤذّن، أليس كذلك؟

9

صوت إشعار وصول رسالة إلى هاتفي المحمول، كان ذريعة للاعتذار من المتدرّبة، على أن نكمل الحديث في الورشة نهار الغد. كانت الرسالة من سطرٍ واحد «أنتظرك بكامل مشمشي».

– تبّاً للمشمش والسفرجل والكرز.

أدركت حجم وحدتها، في ذلك الخلاء الريفي، وكيف تهيّئ زمناً افتراضيّاً لعلاقة وهميّة بيننا، وفقاً لشحنة الأشواق والرغبات والخيبات التي تراكمها العزلة، إذ ليس لديها ما تفعله في تعاقب الساعات الرمليّة الطويلة تحت سماء تخلو من الطائرات، أو حسب وصفها «سماء مطعونة بالأزرق الداكن الذي يمطرني بك».

(أضفت الطائرات هنا، لأنّني كنت مضطرباً بسبب صوت رعد طائرة كانت تتّجه إلى قصف موقع في ضاحية قريبة).

اتّجهتُ إلى «مقهى الروضة» للقاء صديق قديم، كنّا نلتقي بالمصادفة في مناسبات متباعدة. أخبرني هاتفيّاً بأنّ لديه فائض حكي، و«نصف اكتئاب»، بالإضافة إلى مشاريع كتب مؤجّلة ستحدث انقلاباً فكريّاً. لم أعد أعبأ بالحواجز، وأنا أجتاز الشوارع والساحات، ولا حتّى بصوت القذائف. أغيب بأحلام يقظة. أشعر بغبطة خاطفة

لمرأى نسخة من كتاب لي في واجهة مكتبة، لكنّها تنطفئ في الحال، وكأنّ الأمر يعني سواي. كنت مثل كائن عدمي يدرّب نفسه كلّ يوم على ترويض اليأس.

قبل مجيء صديقي القديم كمال علوان إلى موعدنا بقليل، كتبتُ رسالة قصيرة بالأحرف الصغيرة التي يتيحها هاتفي المحمول، ردّاً على ما كتبته لي آمال ناجي: «لا تستعيري مشمشك من بستان محمود درويش. ابتكري معجمك الخاصّ كي أحسَّ بطعم ثمارك حقاً».

الملفّ الذي وضعه كمال علوان أمامي كان وليمة أفكار مبعثرة، أو خلائط إيديولوجيّة يصعب وضعها في سلّة واحدة، لكنّها بأعجوبةٍ ما، تنتهي بفكرة خارقة هي «تقويض إسمنت الدولة» لمصلحة «حياة رعوية طليقة»، حسب تعبيره. لم أستغرب مثل هذا الخبل، فقد بات بضاعة رائجة في كلّ مكان. أجبته باستهزاء «عليك أن تقوّض إسمنت الدولة بمفردك، فليس لديّ مطرقة كالتي تحمل في دماغك. أنا رجل متعب ومشغول بشؤون أخرى».

كان يتناوب على الكرسيّ الفارغ الذي يسند ذراعه اليسرى، مؤرّخون ومفكّرون وفلاسفة وفقهاء، وباعة غاز، وصرّافو عملة، وسماسرة، وخبراء تبغ، وعشيقات سابقات، وأحذية مستوردة، وماركات كحول، وأفضل أنواع المقوّيات الجنسيّة، إلى الدرجة التي شعرت فيها، وأنا أنصت إليه، بأنّ ضباباً داكناً يحجبه عنّي بطبقات من الأصوات المتنافرة في موجة هذيانيّة. فما إن يذهب ماركس إلى المرحاض لتفريغ مثانته من فائض القيمة، حتّى يأتي ابن تيميّة بفتاوى مضادّة، لأجد نفسي بعد دقائق أمام محمّد عابد الجابري، أو كلود ليفي شتراوس، أو ابن خلدون، أو عبد الرحمن الكواكبي، أو غاندي، ثمّ ينسف كلّ هؤلاء بإيماءة غاضبة من يده، لمصلحة كتيبة مسلّحة أثبتت جدارتها في تقويض استبداد السلطة بمذبحة هنا

ومذبحة هناك. لا أعلم كيف خطر في بالي، أنّه في فترة من حياته، كان ضيفاً على مستشفى ابن سينا للأمراض العقليّة، وأنّه خرج منه هارباً، في فوضى الحرب، بعد أن خلا المستشفى من الحرّاس. اعتذرت عن مرافقته إلى حانة قريبة، فحمل الملفَّ ومضى، على أمل أن يجد شخصاً يوافقه على تقويض «إسمنت الدولة» بكتابه المنتظر الذي سيصدر، وفقاً لأوهامه المتراكمة، في ألف صفحة، لذلك، فهو عملياً، لن يكتبه على الإطلاق، وسيكتفي إلى أجلٍ غير مسمّى، بتأبّط هذا الملف، وتداول محتوياته شفوياً، من مقهى إلى حانة وبالعكس. كنت أتابع خطواته المتعثّرة، وقد بزغت في ذهني فكرة إحالته إلى طاولة التشريح، في ورشة كتابة السيناريو، كنموذج محلّي للتيه الوجودي، والعته الفكري، فسيرة رجل مثله، يقف مهتزّاً على عتبة السبعين، تختزل أحوال أربعة أجيال عاشت هزائم متتالية، وخيبات، وأوهاماً، وأمراضاً معدية، وها هو الآن، بيقينٍ تامّ، يرغب في تقويض كلّ الإيديولوجيّات والمؤسّسات والنظريّات، مبشّراً بحربٍ كونيّة كبرى تعيد الكوكب إلى أصوله الأولى، من دون أن يتخلّى عن الوسام الذي غنمه في حرب لم يخضها كما يجب. حسب ما رواه لي، فإنّ سائق سيّارة الجيب العسكرية الذي كان يرافقه بوصفه مراسلاً حربيّاً، أضاع طريق العودة من الجبهة وتوغّل خطأً، في أراضٍ محتلة، لكنّ أحداً من الجيش الإسرائيلي لم يكتشف وجود الجيب في تلك التضاريس الجبليّة الوعرة، وهو ما أدّى إلى نجاته بمساعدة أحد رعاة الماشية، إذ سلك دروباً آمنة، ليجد نوط الشجاعة بانتظاره، بعد خمسة أيّام على فقدانه في الجبهة. لاحقاً، سوف يلجأ إلى مهنٍ لا تخطر في بال أحد بسهولة، مثل تربية أسماك الزينة وبيعها، والتقاط الكلاب الصغيرة الضالّة وإخضاعها لدورات قاسية من أجل تحسين سلوكها، ثمّ بيعها لبلهاء مهووسين بالسلالات النادرة، إذ لا تنقصه

الفطنة والـدأب في منح هذه المخلوقات الرثّة أنساباً فاخرة، كان يستلّها من مجلّات أجنبية متخصّصة بأنواع الكلاب المنزليّة، كما أنّه سيعقد صفقات رابحة ببيع لوحات مزوّرة بتواقيع فنّانين محليّين من المشاهير، ستجد مكانها في صالونات طبقة جديدة من المقاولين كنوع من الوجاهة البلهاء، قبل أن يجد في ابتكار نظريّات فلسفيّة لا ينصت إليها أحد، ملاذاً آمناً من البطالة والعزلة والخواء.

10

سيهطل مشمشها ليلاً بجرعات أكبر، بصحبة صوت المطر من النافذة، كما كتبتْ لي في دردشتها الإلكترونية. «أغتسلُ بماء السماء الآن، ومشمشي على أشدّه. انتبه. مشمشي أنا، وليس ذلك المجاز في قصيدة محمود درويش، ألا تشمّ رائحته؟ أجلسُ الآن وحيدة، في غرفة معتمة وباردة، من أجلك أنت. أريد أن تجيبني بكلمة واحدة: «هل تحبني؟».

– ولكننا اتفقنا على أن نبقى صديقين فقط.

– تبّاً للصداقة، أريدك لي وحدي.

بالطبع، فإنّ أسمهان لا تعني ما تقوله تماماً، فقد اعتدتُ منها مثل هذه الحمّى الليليّة التي تأتي مثل نوبة رمل حادّة، وبمجرّد أن تصحو من غيبوبتها، ستتّهم النبيذ بأنّه السبب، وستبكي وتندب قدرها الذي ألقى بها في هذه القرية اللعينة، بعد أن هجرت دمشق إثر حادثة طلاقها. لم أشأ أن أنكأ جراحها القديمة، وأسباب طلاقها من زوجها، لكنّني قدّرت أنّ طعنةً عميقة ما، أصابتها منه، أدّت إلى فراقهما، بعد قصّة حبّ مجنونة.

لاحقاً، ستخبرني بعد أن احتست كأساً من العرق في بار أميّة، بأنّ رائحة غريبة شمَّتها من شرشف السرير أطاحت كلّ ما بينهما. «في اللحظة التي كنت أهمّ فيها بوضع الشرشف في الغسّالة، هبّت تلك الرائحة في المسافة الفاصلة بين الوعاء البلاستيكي الذي أضع فيه الثياب الداخليّة، والشراشف المتّسخة، وحركة يدي نحو باب الغسّالة. أعدت الشرشف إلى مكانه، ثمّ شممته عن قرب. كانت رائحة عطر نسائي من ماركة «سكادا» تهبّ نحو أنفي بوضوح. أعرف رائحة هذه الماركة جيداً. في الأصل أنا لا أستعمل العطور، لكن سبق أن أهدى إليّ زجاجة من هذه الماركة قبل زواجنا، ولم أستعملها على الإطلاق. كان يهمس بأذني «رائحة جسدك تثيرني»، وكنت أكتفي بوصفات من النباتات البريّة، أدهن بتلك السوائل، عنقي، وإبطيّ، وسرّتي».

أحضر النادل كأساً أخرى من العرق، ووضعها أمامها، ما شجّعها على اعترافات إضافيّة، من دون نقاط استناد «أخبرتك مرّة بأنّ هناك ما يخصّك في حياتي. كان حبيبي (في ما مضى) قد أحضر رواية لك، من مكتبة ميسلون، قبل أن تتحوّل إلى مكتب للصرافة. وكنت أجهل اسمك تماماً، لكنّك شددتني منذ السطور الأولى للرواية. كنت أتمدّد في حضنه وهو يقرأ بصوت عالٍ مقاطع منها عن العشق. سأعترف لك بأنني رغبت أكثر من مرّة في أن أكون بطلة روايتك في مغامراتها المجنونة، وأن أرافقك في جولاتك إلى دمشق القديمة، وأن أتناول الشاي بالنعناع بصحبتك في مقهى النوفرة، وها أنت شخصيّاً، تحتسي العرق معي. اسمع، لقد تركت تلك النسخة من الرواية في مكتبة بيتي القديم، عدني بأنّك ستهدي إليّ نسخة منها بتوقيعك».

أربكتني اعترافاتها، مثلما أثارت سخطي، فها هي قارئة أخرى تتعامل معي بوصفي بطلاً لروايتي، لا راوياً فحسب. انتبهت إلى أنّها

قالت «أن أرافقك في جولاتك إلى دمشق القديمة»، ولم تقل «أن أرافق الراوي». حاولت أن أفسّر لها خطأ هذا الاشتباك اليقيني بين الراوي ومؤلف الرواية، لكنّها واجهتني بابتسامة ماكرة دليلاً على عدم اقتناعها بكلامي.

11

أستعيد وقائع ذلك اللقاء في الحانة، لتفسير «حمّى المشمش» التي كانت أسمهان تهذي بها على التشات، واندحاراتها اللاحقة في توصيف نوع العلاقة بيننا. لستُ طهرانياً بالطبع، لكنني كنت أخشى من جنونها العاطفي، خصوصاً أنها كانت تعيش قحطاً مزمناً، وها هي تتدرّب على تمارين الشهوة باندفاعات بركانيّة، فهي لم تعد تختبئ خلف مجازات نصوصها فقط، بل تقف على أرض مكشوفة، كما لم تتردّد في أن تكتب لي «أريد أن أراك بعيداً عن البشر، من دون شروط»، على عكس رغباتها السابقة في أن نلتقي في مكانٍ مفتوح «لا أحبّ الأماكن الضيّقة ورائحة التبغ، وأمراض المثقّفين». لم تكن المرّة الأولى التي تلمّح فيها إلى رغبتها في أن نلتقي بعيداً عن البشر، لكنّ انعطافتها الحادّة، في هذه الرسالة، كانت صريحة وواضحة، وقد باتت الكرة في ملعبي. هذا الهوس العاطفي من جهتها أفزعني، إذ لم أكن مستعدّاً لمغامرة من هذا النوع، ستربك حياتي بأعباء ثقيلة ليس لديّ قدرة على احتمالها، فالمسألة، بالنسبة إليّ، لم تكن أكثر من نزوة عابرة، وعلاج مؤقّت لمقاومة الضجر والخذلان والاكتئاب. وربّما كان السبب الخفيّ للحذر، عبارة ذكرتها عرضاً «أفكّر في الانتحار».

سوف تنسى على عجل طيش هذه الفكرة التي أفزعتني تلك الليلة، وستخبرني صباحاً بأنّها عادت للتوّ من نزهة خلويّة، محمّلة بأنواع من النباتات البريّة التي كانت جدّتها تحضرها قبل خمسين عاماً، من الأمكنة نفسها، وها هي الآن تعدّ حساءً بمزيج من هذه الأعشاب، على أمل أن تستعيد خفّة جناحي الفراشة. قنفذي الذي كنت أستنجد بأشواكه الحادّة في مواجهة الفواتير الباهظة للعيش، كوّر نفسه على هيئة كرة شوكيّة، من دون رأس، وتدحرج إلى حفرة معتمة، فزعاً من أصوات انفجار القذائف التي كانت تهطل على مقربة منّي. لم تلتفت إلى اضطراب صوتي بتأثير انفجار آخر، في محيط شارع الحمراء، وارتفاع كثافة الدخان، وتسرّب الرائحة إلى نافذة غرفتي، فيما كانت تحصي مكوّنات الحساء، وفوائد البلوط، ولسان الحمل، والبقلة، والعلّيق، وسالف العروس، والهندباء، وعنب الذئب، وإكليل الجبل.

12

خلال بحثي عن صفحة «يوميات قذيفة هاون في دمشق» في موقع الفايسبوك، لمعرفة أين وقعت القذائف قبل قليل، انتبهت إلى طلب صداقة وردني من المتدرّبة المحجّبة، في ورشة كتابة السيناريو. كانت تضع صورة حديثة، باسمها الحقيقي «نارنج عبد الحميد». تجوّلتُ في صفحتها أولاً، قبل الموافقة على طلب الصداقة. كانت اختياراتها مدهشة حقاً، خصوصاً في ما يتعلّق بتاريخ دمشق فوتوغرافياً. صور نادرة لساحة المرجة، ومحطّة الحجاز، وسوق الحميديّة، والجامع الأموي، وبعض المهن الدمشقيّة القديمة. شذرات من نصوص فرناندو بيسوا، وإميل سيوران، وأنانيس نين، والنفّري، وكتابات شخصيّة تنطوي على تمرّد صريح، لا يتواءم مع صورتها بالحجاب، أو حتّى مع صمتها أثناء نقاشات الورشة. عبارات مثل «أنتَ خطيئة مهما كرّرتها لن أتوب»، و«الندم على المعصية شرطٌ لقبول التوبة»، و«أضاجع الحنين بغيابك»، و«كل من يراودني بعدك سيشمّ رائحتك حين يعانقني»، باغتتني جرأتها، فحاولت أن أستعيد صورتها على نحوٍ آخر، ولماذا لم ألتفت إليها قبلاً باهتمام، ثمّ لماذا طلبت صداقتي على الفايسبوك الآن، لا قبل أشهر مثلاً؟

لم تكلمني في الحصّة، كما لم تلحق بي إلى بهو المعهد، كما كنت أتوقّع، رغم أنني تباطأت في الخروج من المكان بمشاغل ثانويّة، مثل إجراء مكالمة هاتفية لم تكن ضروريّة، وإخراج أوراق من الجيب الجانبي لحقيبة اللابتوب، وإعادتها إلى مكانها، ثمّ استعارة ولّاعة من البوّاب لإشعال سيجارة. اكتفيت بنظرة خاطفة نحوها في القاعة، لكنّها بقيت على حيادها القديم، ونحن نناقش كيفيّة استعادة التاريخ الشخصي لنزيل الفندق، وأسباب جلبه سطل الورد إلى السطح.

كنت أعوّل على أفعال تكسر ما هو معتاد في رسم شخصيّة من هذا الطراز، لذلك رفضت اقتراح أحدهم بأن يكون هذا النزيل بائع ورود عند شارات المرور، فهذا الحلّ متوقّع، ولن يثير دهشة أحد (علينا أن نترك بصمة على مسار الحكاية كي تعيش حياتها خارج الأدراج وتكسر قشرة البيضة، أو كما يقول غابرييل غارسيا ماركيز، «على كاتب السيناريو أن يكون مثل الصيّاد الذي يكتشف فجأة، من خلال منظار بندقيّته، اللحظة التي يقفز فيها الأرنب»).

كانت فكرتي من وضع هذا المشهد، استثمار حكاية شاب كان يسرق الورود من المقابر ويعيد بيعها لمحالّ باعة الورد. خلال النقاش طوّرنا الفكرة جماعيّاً، بأن يكون هذا الشابّ عاملاً في مطبعة تقع في أحد الشوارع الفرعيّة لساحة المرجة، هناك يقرأ أوراق النعي الحديثة، ويسجّل أسماء المقابر المذكورة في هذه الأوراق، ثمّ يغزوها ليلاً. بالطبع لم أجد صعوبة في إقناع من سألني «لماذا ينام هذا النزيل على سطح الفندق، لا في بيتٍ ما؟». راهنية الحدث تتيح لنا ببساطة، أن نقول إنّه مهجّر من بيته، بسبب حدّة الاشتباكات في الحيّ الذي كان يقطنه، أو إنّ بيته كان ضحيّة قذيفة ضالّة، فتحوّل إلى ركام، وتالياً، ليس مستبعداً أن يلقي نفسه من ذلك السطح كحادثة انتحار عاديّة بسبب انعدام الأمل.

13

هذه المرّة، ستضيء النقطة الخضراء في مستطيل التشات على صفحتي في الفايسبوك باسم المتدرّبة المحجّبة، وستبدأ الدردشة من دون تحيّة، أو توطئة «لا أشكّ أبداً في أنّك تصفّحت بروفايلي على مهلٍ، بعد أن طلبت صداقتك، وأفترض أنّ لديك أسئلة تخصّني. لن أجيب عنها الآن، أفضّل أن نلتقي خارج المعهد، لديّ ما يبدّد فضولك عن فتاة محجّبة صورتها لا تشبه في شيء ما تكتبه على صفحتها». اقترحتُ عليها أن نلتقي غداً، بعد الواحدة، في ساحة يوسف العظمة، وأن ترافقني في جولة إلى ساحة المرجة، فقد كنتُ بحاجة إلى ترميم المكان بصرياً بنسخته الراهنة.

عدت إلى تفحّص صفحتها مجدّداً. هناك لغز ما، في سيرتها الغامضة، وضعني في مقام الارتباك، وإغراء مبهم في التعرّف إليها عن قرب، بإعادة تركيب صورتها على نحوٍ آخر، حميمي إلى حدٍّ ما. خيط يشدّني نحوها للخروج من متاهة عبثيّة تخنقني. فقد كنت بحاجة إلى من يحطّم دائرة عزلتي الضيّقة بما ليس فيها، أن يهزّ هشاشتي بعنف، ليس افتراضيّاً، أو في لقاءات متباعدة كما كان يحدث قبلاً، على هيئة مشمش ليلي، سيتلاشى طعمه بمجرّد أن تنتهي المكالمة.

أحتاج إلى ريح قويّة تزيح الغبار عن يوميّاتي المكرّرة، وتطوي آلام ألف وثمانمئة وخمسة وعشرين كابوساً، تكدّستْ فوق ظهري بسنام جمل ضخم. كوابيس لا تسترها أوهام البهجة الخاطفة، ومراوغة الجحيم، وتحسين صورة العزلة.

كانت تقف على الرصيف المواجه لتمثال يوسف العظمة من الجهة اليسرى للساحة، بحقيبة ظهر رمادية، الحقيبة التي ستخضع لتفتيش دقيق بأنامل خشنة لعنصر أمن نسائي ببزّة عسكريّة، فيما عبرتُ الحاجزَ منفرداً، وانتظرتها على بعد خطوات منه. قالت وهي تلتحق بي، مشيرةً إلى المفتّشة «كانت تريد مصادرة الكاميرا، لكنّني أقنعتها بأنّني أنتسب إلى إحدى الجمعيّات الإغاثيّة الرسمية، ببطاقة مزوّرة كنت قد استعرتها من صديقة لي غادرت البلاد منذ أشهر». توقّفنا أمام حاجز آخر قرب فندق عمر الخيّام، قبل أن نصعد جسراً معدنيّاً إلى الضفة الأخرى من الشارع. تكشّف مدخل ساحة المرجة عن حواجز كونكريتيّة متناوبة، تحتاج إلى لياقة بدنيّة لعبورها نحو الرصيف الآخر من جهة بناء العابد. أشرتُ نحو البناء العريق «هنا أعلن المؤتمر النيابي السوري، لأوّل مرّة، اسم الجمهوريّة السوريّة، سنة 1932». لم تعلّق على ما قلته، اكتفت بابتسامة غامضة. كان الحوار بيننا متقطّعاً، فكلانا كان ينتظر من الآخر خطوة إضافيّة في إعلان وجعه الشخصي. كانت الفكرة التي اقترحتها عليها، هي معرفة مكان صالة سينما «الكوزموغراف» قبل هدمها، ففي هذه الدار عُرض فيلم «تحت سماء دمشق»، في مطلع ثلاثينيّات القرن المنصرم، بتوقيع إسماعيل أنزور، وقد احتوى لقطات صامتة لساحة المرجة، مرفقة بموسيقى حيّة. اتّجهنا إلى طرف الساحة من جهتها الشرقيّة التي تطلّ على القلعة. قلت «يُفترض أن يكون موقع الدار في هذه

الزاوية تماماً. الموقع الذي تحوّل اليوم إلى دكاكين لبيع الحقائب، والأحذية، وأقفاص الطيور».

أخرجتْ الكاميرا من حقيبتها، والتقطت على عجل صوراً للمكان، من زوايا متعدّدة. وأظنّ أنّها أرخت العدسة إلى الأسفل قليلاً، والتقطت صورة جانبيّة لي، وأنا أتأمّل الساحة بحركة دائريّة، بحثاً عن موقع الفندق الذي اخترناه مكاناً في السيناريو الذي ناقشناه في الورشة. بناءً على رغبتها، اخترقنا زحام سوق الحميديّة القريب من المكان. قالت «أودُّ أن أريكَ مكاناً أليفاً وموجعاً في آنٍ واحد بالنسبة إليّ»، ثمّ أضافت بحسرة عميقة «لديّ ذكريات ترقد هناك وحيدة». كانت تسبقني بخطواتٍ عجلى، والتفاتة إلى الوراء بين خطوة وأخرى، كي لا أفقدها في الزحام، إلى أن توقفت أمام أحد محالّ بيع أزياء العرائس، ثمّ وجّهت عدسة كاميرتها إلى الطبقة الثانية من المحلّ، والتقطت صوراً متتالية لنافذة بزجاج مكسور، تغطّيها ستارة ممزّقة. أكملنا طريقنا نزولاً، نحو ساحة الجامع الأموي. همست بأنّها كانت تقف خلف تلك النافذة، قبل خمس سنوات مضت، بكامل اضطرابها، بكاميرا فيديو صغيرة الحجم، كانت قد خبّأتها جيّداً في حقيبتها، استعداداً لتصوير تظاهرة ستنطلق من هذا المكان، وأنّها أنجزت المهمّة بصعوبة، وبالكاد تمكّنت من الاختفاء في زقاق خلفيّ من دوريّة أمن حضرت إلى السوق بعد دقائق، واعتقلت بعض صديقاتها. لم أتوقّع أن تكون مرافقتي تحمل تاريخاً شخصيّاً من هذا النوع، لكنّني تجاهلت الأمر مؤقتاً بهزّة من رأسي، وأنا أتأمّل معروضات الواجهات الزجاجيّة، وتحديداً ذلك التناقض العنيف بين الملاءات التي تغطّي وجوه معظم النساء في السوق، وما تحشده الواجهات من أزياء فاضحة ابتكرتها مخيّلة شعبيّة متوارثة، وكأنّها تدعو إلى الخلاعة والتهتّك سرّاً، والخفر الزائف علناً. بانتهاء السقف المعدني

الذي يغطّي السوق الطويل، تكشّفت شمس الظهيرة عن ضوء مباغت لساحة الجامع الأموي، ينعكس على الحجارة السوداء. ولأوّل مرّة، سأنتبه إلى جمال عينيْ نارنج اللتين تشبهان «غابتيْ نخيل» حقاً. وقفت أمامي ثمّ أدارت ظهرها لبوّابة الجامع، لتباغتني هذه المرّة بالتقاط صورة «سيلفي» تجمعنا معاً، وستلتقط صوراً أخرى مثلها في متاهات أزقّة دمشق القديمة، وأمام دكاكين المشغولات اليدويّة، إلى أن وقع اختيارها على حانة «كهف بعل» في باب توما. أوّل ما لفت انتباهي في هذه الحانة، صور زعماء وشخصيّات وطنيّة صنعت الاستقلال، وما بعده بقليل، تملأ الجدار المقابل للطاولة التي جلسنا إليها. كأنّ عجلة التاريخ السوري توقّفت هناك، ثمّ أصابها العطب. الدواء المخدّر الذي أتى به انقلابيّو الثكنات العسكريّة في الخمسينيّات، ثمّ الستينيّات، وصولاً إلى السبعينيّات، وضع البلاد داخل سور مستشفى ضخم يحتشد بأسرّة المرضى الذين لا شفاء لهم، وإلّا فكيف لعسكريّ صغير يُدعى عبد الحميد السرّاج، كان حارساً أمام باب الكرخانة في حلب، أن يصعد السلّم ليصبح رجل جمال عبد الناصر في البلاد، وقبضته البوليسيّة الصلبة، أثناء فترة الوحدة مع مصر؟ أيقظتني نارنج من شرودي الخاطف لتريني الصور التي التقطتها قبل قليل. أثنيتُ على براعتها في التصوير، وفي المقابل أبديت تحفّظي على ظاهرة «السيلفي».

– اعتراض على السيلفي، أم على وجودك معي في الصورة؟

– لا أقصد ذلك، لكنني عموماً، أحسّ أنّ هذا الطراز من الصور يسهم بتزييف اللحظة وتصنيعها بدلاً من أن نعيشها كما هي، أو بمعنى آخر، محاولة تعبير عن ذات طاووسيّة بلهاء.

– أفهم أن ما تقوله شتيمة مبطّنة لي. سأمحو الصور حالاً.

سحبتُ من يدها الموبايل معتذراً، وأكملت أنّ ما أقوله يتعلّق بفلسفة الصورة عموماً، وكمائن الميديا الجديدة في تصدير الوهم بحياة موازية لم نعشها في الأصل.

ثمّ أكملتُ بجديّة فيلسوف طارئ:

– إنّها تعبير عن سطوة الفلسفة الجديدة المخادعة، وإسرافها في تسليع حياة الفرد، إذ تتلاشى الفروق بين تسجيل لحظة نوعيّة وتراكميّة، و«موديل» صامت في واجهة متجر. ما يحدث فعلياً هو أنّنا نخوض حرب تحطيم الأيقونات القديمة، وإزاحتها لمصلحة أيقونات محشوّة بالقش. أنتِ وأنا محشوّان بالقش. حياتنا معارة قسراً لبندقيّة قنّاص، أو قذيفة هاون عمياء.

– أو حادثة اغتصاب، كما حدث معي.

هذا الاعتراف المباغت فاجأني. حاولت أن أتجاهل ما قالته بأسى، فرويت لها ما حصل لشخص أراد أن يصوّر نفسه بصحبة أحد الثيران الهائجة في ملعب لمصارعة الثيران ما أدّى إلى موته مباشرةً، وحادثة الشخص الذي طحنته عجلات قطار، وهو يتهيّأ لالتقاط صورة سيلفي لحظة مرور القطار فانزلقت قدماه نحو السكة وتناثرت أشلاؤه، من دون أن يتمكّن من إنجاز المهمة.

– ألا تريد أن تنصت إلى حكايتي؟

– بالطبع.

تناولت رشفة من قهوتها، ثمّ قالت «نارنج عبد الحميد التي تجلس أمامك الآن، وتحاول أن تكون شخصاً مرحاً، هي نسخة مشوّهة عن الأصل». ثمّ ابتسمت وهي تضيف «أستعير هنا بعض مفرداتك التي كنت تستعملها في محاضراتك للورشة. وأتذكّر أنّك قلت لنا مرّة، ينبغي لكلٍّ منّا أن يكون لديه معجمه اللغوي الخاصّ كي يعبّر بدقة عمّا يفكّر فيه. من جهتي أضعت جزءاً من معجمي بعد تعرّضي

للاعتقال، ثمّ فقدته تماماً، إثر اغتصابي هناك. الآن أختصر تلك اللحظة الوحشيّة بكلمة واحدة: اغتصابي! لكنّني خلال استعادتي لشريط اعتقالي أيقنت بأنّ اغتصابي الأوّل حدث قبل اعتقالي مباشرة، حين علمت أنّ من أخبر دوريّة الأمن تلك الليلة عن مكان إقامتي، وخريطة مواعيدي، كان صديقي الحميم في «النضال السرّي». المخزي أنّه ما زال يكتب على صفحته في الفايسبوك إلى اليوم وقائع بطولاته الوهميّة في مواجهة الاستبداد، رغم أنه يقيم منذ ثلاث سنوات في برلين لاجئاً سياسيّاً. خرجت من المعتقل بعد أربعة أشهر، بنصف أُذن يُمنى، وبضلعين مكسورين، وجدّة ماتت في غيابي، هي آخر من بقي من عائلتي». في هذه اللحظة خلعت حجابها كي تريني أذنها نصف المفقودة، ثمّ أكملت «عضّني الحيوان مثل كلب مسعور، بعد أن لكمته على خصيتيه بآخر ما بقي لديّ من قوة». أحكمت الحجاب ثانيةً، ثمّ صمتت، ثمّ بكت، ثمّ ضحكت. «حين خرجت من المعتقل كنت أطفو مثل قشّة فوق بركة ماء آسنة. أكره رائحة جسدي. أخلع ثيابي في العتمة. أستيقظ مفزوعة. كنت أتخيّل أنّني أسمع خطوات المحقّق الذي اغتصبني تقترب من غرفتي، فأغادر سريري إلى سرير جدّتي لعلّي أجد بقايا طمأنينة. أدفن رأسي بمخدّتها كي أزيح عن عينيّ المغمضتين مشاهد التعذيب. بشر معلّقون بكلّابات كالذبائح. عشتُ في مسلخ حقيقي. تعاملوا معنا كأنّنا بهائم. بصقتُ في وجه المحقّق، وكنت أرغب في أن أبصق في وجه صديقي النذل. سأبصق في وجهه يوماً ما. حين قرأت الإعلان عن ورشة لكتابة السيناريو، قرّرت الانتساب إليها، كي أختلط ببشر لا أعرفهم، وأستعيد حياتي بالكتابة، لأنّني كنت متأكّدة من أنّ الكتابة هي طريقي إلى النجاة. فكّرت أكثر من مرّة في مخاطبتك كي أروي لك حكايتي. كنت بحاجة إلى أن أزيح البثور التي غطّت جسدي وروحي وذاكرتي. أنظر من

نافذة غرفتي إلى شجرة النارنج التي تتوسّط باحة البيت، وأبكي: لماذا اختار أبي اسمي على هيئة شجرة، ألم يفكّر بالفؤوس التي كانت تنتظرني في الخارج؟ لا أعلم لماذا اخترتك تحديداً، كي أروي لك حكايتي. ربّما لأنّني أحسست بأنّني سأجد وراء تلك الصرامة في ملامح وجهك، حناناً مخبوءاً. هل أخطأت في طمأنينتي لك؟».

– لا، أبداً.

مدّت أصابع يدها اليمنى نحوي، وهي تشير إلى خاتم فضّة تتوسّطه خرزة زرقاء داكنة من العقيق «إنه خاتم جدّتي. هديّة جدّي لها من سوق قبالي جارشي في اسطنبول. ليلة اعتقالي كنت قد خلعته ونسيته على طرف المغسلة. في المعتقل، كنت أقول لنفسي، لو لم أنسَ الخاتم في ذلك اليوم المشؤوم، لكنت حرّة الآن». أرخت رأسها فوق الطاولة، وبكت، ثمّ هرعت إلى الحمّام. أظنُّ أنّها تقيّأت. أشرت للنادل بأن يحضر لنا قهوة إضافيّة. عادت إلى مكانها بعد دقائق بابتسامة اعتذار.

– آسفة. تذكّرت مشهداً مؤلماً وقبيحاً، كنت قد قرّرت نسيانه إلى الأبد.

– أنا أنصت إليك.

– ليس ضروريّاً أن تتورّط في مصائبي أكثر، فأنا أشبه تلك المرأة في فيلم «الندم» الذي عرضته لنا في الورشة. ما ينقصني هو شجاعة حفر قبور هؤلاء الأوغاد، لكنّهم، للأسف، ما زالوا أحياءً.

– أنا أنصت إليكِ. كرّرتها مرّة ثانية.

– أجهضت جنيني من ذلك الذئب، في عيادة خاصّة. كنت آمل أنّني بمجرّد تخلّصي من كتلة اللحم اللزجة التي أودعها الطبيب في سلّة المهملات، سأتحرّر من «ثقل هشاشتي». هذه عبارتك أيضاً.

لكن الكوابيس ما زالت تطاردني. أكتب في مفكّرتي كلّ يوم، كي أنسى، كي أنجو، وربّما كي أثأر.

في اليوم التالي، خلال تدريبي أعضاء الورشة على كيفيّة تحويل المفردة إلى كتابة بالعدسة، التقطتُ بريقاً آخر في عيني نارنج. كانت ترتدي غطاء رأس ملوّناً بأزهارٍ ناعمة، بدلاً من الكحلي الذي لم تخلعه قبلاً. هناك خصلة قصيرة من شعرها تتدلّى على جبينها، وطيف ابتسامة يمحو هشاشة أمس.

كمن يوجّه رسالة شخصيّة لها، قلت «في الكتابة علينا أن نفتّش في قلب الذئب عن حيوانٍ حزين، قد يكون أرنباً أو حملاً أو سنجاباً، كي لا ننخرط في الجانب الوحشيّ منه فقط، وأن نعتني بالحكايات الجانبيّة، وننتصر لقوّة الهامش. شخصيّاً أميل إلى الفكاهة في شخصيّة سانشو أكثر من اهتمامي بفروسيّة دون كيخوته وبطولاته الخرقاء».

وأضفت مثالاً آخر «لا أحد يتذكّر اليوم رجلاً أعمى كان يقف على رصيف مقهى الهافانا، وهو يحمل كتاباً بيده، ويردّد أمام المارّة في الشارع «هذا الكتاب من تأليفي الخاص». لم أفكّر حينها باقتناء هذا الكتاب العجيب أو محاورة صاحبه، ربّما كان خورخي بورخيس آخر محليّاً، ينبغي اكتشافه. علينا أن نفتّش في الجوار أولاً، فعلى بعد أمتارٍ قليلة منّا قد تكمن كنوز قصص مهملة، تحتاج إلى من ينفض عنها الغبار ويفحصها عن كثب».

14

الخبر الذي تداولته مواقع إلكترونيّة عن موت غامض لشابّة كانت تقيم في حيّ الشعلان، أحد أكثر الأحياء صخباً في دمشق، اقتحم القاعة عنوةً، كنواة للنقاش، ونسي أعضاء الورشة مصير نزيل الفندق في سيناريو ساحة المرجة، كما لم تلفت الصور التي التقطتها نارنج للساحة، وموقع سينما «الكوزموغراف» قبل هدمها، انتباه أحد. كان خبر موت «فتاة الشعلان» وحده قد استقطب اهتمام الجميع، رغم أنّ الموت بات خبراً عاديّاً. لدينا قصّة غامضة ومثيرة و«مشوّقة» عن شابّة مجهولة وُجدت ميتة في منزلها. اكتشف الجيران رائحة كريهة تهبّ من جهة الشقة التي تقطنها الشابّة، فأبلغوا الشرطة بالواقعة. حسب أقوال الجيران فإن «ر.ع. س» كانت تخرج صبيحة كلّ يوم برفقة كلبيها للتنزّه، ثمّ تعود في الظهيرة، من دون أن تخرج من بيتها إلى صباح اليوم التالي، وقد لاحظوا غياب الشابّة منذ عدّة أيام. حين اقتحمت الشرطة الجنائيّة المنزل، وجدوا الفتاة ممدّدة على الأرض وقد فارقت الحياة. ولأنّها وحيدة ولا يزورها أحد، لم يحتمل الكلبان وطأة الجوع، فنهشا أجزاءً من جسدها، وهو ما ترك علامات واضحة

عليها، قبل أن تُنقل إلى مستشفى المجتهد لإجراء المعاينة الطبيّة على الجثّة وإجراءات الطبّ الشرعي، وقد تبيّن أنّ الوفاة طبيعية ناجمة عن توقّف عضلة القلب والتنفّس بسبب سوء حالتها العامّة.

بصرف النظر عن فظاعة الحادثة، فإنّنا إزاء حكاية نموذجيّة لإنشاء سيناريو محكم. اكتُشفتْ جثّة الفتاة، بعد تسعة أيّام على موتها. تسعة أيّام، من دون أن يرّن هاتفها مرّة واحدة، أو يطرق باب بيتها أحد. لا شكّ في أنّ كلبيها حاولا إيقاظها في اليوم التالي للتنزّه جرياً على عادتها الصباحيّة، وحين لم تستجب رقدا حائرين إلى جانبها، وقتاً طويلاً، وحين جاعا فتّشا البيت عن طعام، ثمّ أثارتهما الرائحة فنهشا جزءاً من جسدها. اللافت في الحكاية أنّ الجثّة أودِعت لأيّام في ثلّاجة الموتى، من دون أن يسأل أحد من أهلها عنها.

«ر.ع.س» عاشت وحيدة تماماً، وماتت وحيدة، لتُدفن مع أسرارها التي لا يعرفها أحد.

قبل سنة من اليوم انتحرت شابّة أخرى تدعى يارا بغدادي بشنق نفسها في شرفة منزلها في حيّ مشروع دمّر، وتبيّن أنّ سبب الانتحار هو الوحدة، وفقاً لما كتبته على ورقة تركتها فوق طاولة على الشرفة. هذه مدينة متوحّشة، لا يلتفت فيها أحد إلى عزلة فرد آخر، إلى أن توقظها عنوةً رائحة جيفة جثّة مهملة منذ تسعة أيّام، لشابة عمرها تسعة عشر عاماً، أو لمشهد فتاة معلّقة بحبل في شرفة بيتها، من دون أن تشعر بالندم، أو العار.

من دون أن نشمُّ رائحة الجثّة لن نقع على سيناريو جيّد. شخصيّاً ما زلت أشمّ رائحة زنخ المسلخ في فيلم «العطر» بتوقيع توم تايكور إلى الآن.

قبل خروجي من القاعة، انتبهت إلى اختفاء نارنج. توقّعت أن أجدها في البهو، أو في إحدى ردهات المعهد، لكنّني لم ألمحها في

المكان. أحسستُ بانقباضٍ ما، خشية أن تكون تأثّرت بوقائع مشابهة لما تعيشه في وحدتها. غادرت المعهد بمشية متعثّرة. قادتني خطواتي إلى حيّ الشعلان الذي لم يكن بعيداً عن الشارع الذي يقع فيه المعهد، وابتكرت خطأً متعرّجاً يؤدّي بي إلى الشارع الذي كانت تقطنه «ر.ع.س»، وفقاً لما ورد في محضر الشرطة الجنائيّة، وكدت أسمع وقع خطواتها على الرصيف ولهاث كلبيها الضخمين في نزهاتها اليوميّة إلى حديقة الجاحظ التي لا تبعد كثيراً عن الحيّ، كما سأفترض أنّها شخصيّة عنيدة تعاني من اكتئاب مزمن، بسبب خيبة عاطفيّة، بدليل أنّها تعيش وحيدة، بغياب أهلها. كانت صورتا الضحيّة ونارنج تتناوبان في طريقي إلى مقهى الروضة، وسوف يرسّخ المشهد أكثر بائع الصحف المتاخم للمقهى بإبرازه مانشيتاً مؤطّراً بخطوط قلم فلوماستر أزرق عن حادثة فتاة الشعلان. ابتعت نسخة من صحيفة الوطن، ثمّ دخلت المقهى بمزاج كائن ضجر وحزين، لا يجد ما يعوّل عليه. ليست هذه الحادثة، أو ما حدث لنارنج، وحدهما سبب ضجري واضطرابي وهشاشتي. فكلّ ما يحدث لي وحولي هو نوع من الهلاك البطيء، لم تعد الحُقن المخدّرة للنسيان مفيدة في علاجه. ما إن أمحو صورة مفزعة، حتى تأتيني صورة أخرى أكثر فزعاً، تفوق طاقتي على الاحتمال. لكنّني في كلّ الأحوال لم أتوقّع أن تأتي نارنج إلى المقهى:

– بناءً على حدسي، ومعرفتي بإحداثيّات يومك، كنت متأكّدة من أنّني سأجدك هنا. أتيت كي أقول لك ما لم أجرؤ على قوله بحضور أعضاء الورشة: أمّا أنا فقد نهشني كلب بشريّ لا تزال رائحته العفنة تطاردني، ولم يحاكمه أحد، وربّما حصل على ترقية من رئيسه في العمل.

ثمّ فتحت حقيبتها، وأخرجت ثمرة نارنج ووضعتها على الطاولة:

– هذه لك، قطفتها اليوم من شجرتي.

كانت فرصة مناسبة كي نذهب إلى حديثٍ آخر، يخفّف قليلاً من وطأة توتّرها، وأن أستعيد معها رحلة شجرة النارنج من إشبيلية إلى دمشق، وهل كان أحد أجدادها الأوائل أندلسيّاً؟ لكنّها لم تستجب لهذه الدعابة طويلاً، كما لم تنصت باهتمام إلى ما هو مكتوب في الصحيفة عن برجها اليوم. غادرتْ المقهى من دون أن تكمل فنجان قهوتها، بوعد أن نتواصل ليلاً على الفايسبوك.

ولكن مهلاً، ماذا أفعل بوحدتي أيضاً؟ فتزيين قضبان القفص لا يعني أنّ نسبة الأوكسجين ستصبح أفضل للتنفّس. أنا الآخر مثل طائر الكركي أقف على ساق واحدة عند طرف المستنقع. أحاول ترميم حطامي بتجفيف رائحة العفونة، وقياس أسباب النجاة. أبتعد عن نافذة الصالة التي أتوقّع أن تأتي منها قذيفة ضالة. أتكوّم في مساحة نصف متر، هي المسافة الآمنة بين الجدار المقابل والنافذة. سأدع القذيفة تعبر من دون عائق إلى جدار الحمّام، متجاهلاً شظاياها الجانبيّة، فالمهمّ ألّا تصطدم بجسمي مباشرة. أمام مرآة الحمّام، أنصت إلى صفير صواريخ الكاتيوشا، وأنتظر مكان وقوعها، وقوّة انفجارها. ماذا لو أنّني لم أتمكّن من إكمال حلاقة ذقني، أو استحمامي؟ أخرجُ من الحمّام. أتوقّف قليلاً أمام ما تبثّه شاشة التلفزيون. شاحنات مكشوفة بأقفاص تحمل مئات المخطوفين لدى الكتائب المسلّحة، تتوزّع شوارع مدينة دوما، وأسطح المنازل، كدروع بشرية، بقصد حماية المدينة من قصف الطائرات. أحسّ بنوع آخر من الخزي لمشهد نساء مخطوفات، وجنود محتجزين في سيرك عبثي بلا طائل. هناك أيضاً ضحايا المعتقلات الأمنيّة. الموت تحت التعذيب، حين تُختزل الضحيّة إلى بطاقة هويّة، يتسلّمها الأهل

من دون جثمان، أو حين تُلفّ الضحيّة ببطانيّة قذرة وتُحمل إلى حاوية القمامة ليلاً، ثمّ تُسحب البطانية من تحت الجثّة لاستعمالها ثانيةً مع ضحايا جدد.

15

مرّة أخرى، سأتجاهل ترتيب فوضى كتبي. لديّ حصّة في نصف سرير، فيما تتكوّم الكتب في نصفه الثاني. هناك كتب أخرى عالقة بين طرف السرير والحائط، وكتب متراكمة على المكتب تحاصر المساحة الضيّقة للكمبيوتر، وفي الممرّ إلى الصالة، وعلى رفٍّ زجاجي في التواليت، وفوق خزائن المطبخ. كتب وأسطوانات مدمجة، وأفلام، ولوحات، وكتب إلكترونية في اللابتوب حمّلتها على دفعات، في قافلة افتراضيّة تمتدّ من القرن الأول إلى اليوم. لست وحيداً، أقول لنفسي، أرواح أصدقائي تحوم، منذ ألفي عام، في كلّ أنحاء البيت. ملائكة وشياطين، قدّيسون وأنبياء، مرضى ومجانين. أخشى قذيفة طائشة تمزّق أجسادهم في محرقة كونيّة. أن أعود إلى البيت ولا أجد أحداً منهم. أن أجد رماداً، وبقايا استغاثات، وحطام صور. على هدى نصيحة من ألبرتو مانغويل، وضعتُ ثمرة النارنج على مكتبي كتعويذة إضافية لاستدعاء الكلمات، إلى جانب مكحلة نحاسيّة بمزود من الخشب، كانت أمّي تحتفظ بها من أيّام عرسها، قبل أربعة وخمسين عاماً، وأقلام أستعملها في كتابة ملاحظات عاجلة، خشية نسيانها، رغم اقتناعي بأنّ الفكرة المشرقة ستعاود الحفر مهما طواها النسيان،

أو تراكم فوقها الغبار. ضجيج الأغاني في الشارع يقتحم زجاج النافذة بعنف. أغاني تطلقها سيّارات شبّيحة الليل بألحان مقتبسة من لطميّات ومراثٍ قديمة تستعيد روح الحسين الذي مات مقتولاً، قبل ألف عام. سحبت من رفّ الموسيقى أسطوانة «رق الحبيب» لمحمد القصبجي، الأسطوانة التي ألجأ إليها كنوع من العلاج في استعادة الطمأنينة المؤقتة. ما أن تنتهي الدقائق السبع، ونصف الدقيقة، لهذا التسجيل النادر على العود، حتى أستعيدها مرّة ثانية، وثالثة، ورابعة. أقول لنفسي: ما هذا الجنون العظيم الذي قاد القصبجي إلى أن ينتحي بعوده جانباً، مدة أربع ساعات، ذات خريف من العام 1944، ثمّ يفجّر قنبلته في وجه أم كلثوم، وإذا به يضع الموسيقى العربية في مقامٍ آخر، أذهل معاصريه، قبل أن ينتهي عوّاداً محزوناً، في فرقة الست؟ حين قرأت على شاشة اللابتوب في صفحتي على الفيس بوك «آمال ناجي أرسلت لك رسالة»، كنت أحلّق في فضاء سحري على مقام النهوند، بما يقرب شطحاً صوفيّاً، صولو العود منحني طاقة مفاجأة في مواجهة كوابيس الليل والنهار. بمزاج العاشق كتبت لها مقطعاً من أغنية رق الحبيب «رقّ الحبيب وواعدني.. و«كان له مدّة غايب عنّي».. «سهرت استنّاه».. و«اسمع كلامي معاه وأشوف خياله قاعد جنبي». أجابتني على الفور «ما هذا الحنان المفاجئ، هل اشتقت لي فعلاً؟».

كانت علاقتي بها تتأرجح بين اسمها المستعار على الفايسبوك، واسمها الحقيقي. آمال ناجي التي غالباً ما تقودني معها بمراوغات لغويّة إلى مناطق وعرة في مكاشفات حسيّة، نعرّي خلالها اللغة من زخرفتها البلاغيّة في هرطقات شهوانيّة واستغاثات شبق محكومة بالمسافة بيننا، بديون أشواق متراكمة ووعود مؤجّلة بالقطاف، تتجاوز حواجز الحذر في دردشاتنا القديمة لتنتهي بوجع

لذّة عمياء، سوف تنهيها بعبارة «تبّاً لقد بلّلتني»، فيما تلعب أسمهان مشعل في منطقة الرصانة، من موقعها كشاعرة روحانيّة تنتصر على وحدتها بممارسة اليوغا وتمارين التأمّل على أمل إزالة البؤس الروحي واكتساب طاقة الحياة المبهجة، بمزيج متناغم من الصمت الخارجي والاحتفال الداخلي، أو بالعكس. لكنّ هذا التناغم لن يدوم طويلاً، فهي ستطيحه بنزق عند أول منعطف لليأس ممّا هي فيه. الطائر الذي قالت إنّه كان يضع عشّه في أعلى أغصان شجرة روحها، وقد علّم أطراف أصابع قدميها على الطيران بخفّة، ها هو يسقط من أعلى الشجرة بلا روح أو خفقة أجنحة، لذلك كنت أحاول إيقاظ آمال ناجي من غفوتها، وأمحو صورة أسمهان مشعل، بمقطع آخر من موسيقى محمد القصبجي وكلمات أحمد رامي «صُعُب عليّ أنام.. أحسن أشوف في المنام غير اللي يتمنّاه قلبي». من جهتها كانت تحاول جذبي إلى منطقة «بتنجالي يوغا سوترا»، من دون أن تمتلك يقيناً راسخاً بتعاليم هذا الكتاب:

– بتنجالي يوغا سوترا، أم كاما سوترا؟

– تبّاً لك.

– عبارة «الحياة هديّة ثمينة، اكتشفها بالذهاب إلى ما بعد ورق التغليف» التي نشرتها من الكتاب، على صفحتك قبل قليل، مذهلة، حاولي تمثّلها بعمق.

– كيف؟

– تخلّصي من ورق التغليف، تعرّي أمام مرآتك. عرّي لغتك من القيود التي تثقل رأسك. «لقد ورثنا لغةً ملوّثة» حسب ما تقوله جوليا كريستيفا.

– آسفة، أحسّ بصداع في رأسي، سأنام. أعرني وسادتك كي أغفو من دون كوابيس.

16

كانت نارنج عبد الحميد قد أرسلت لي، أثناء انشغالي بالدردشة مع أسمهان مشعل، إحدى صور السيلفي التي التقطتها خلال تجوالنا معاً، في دمشق القديمة. تأمّلت الصورة جيداً. كنّا ننزل الدرج عند كتف الجامع الأموي من جهة بابه الشرقي. جرّبتُ أن أخلع غطاء رأسها، وأن أحرّر أذنيها ممّا أصاب إحداهما من تشوّه، وأن أبرز حلق فضّة يتواءم مع خاتمها. بريق عينيها يخفي حزناً قديماً، يصعب تقشيره، فالأوجاع التي عاشتها في زنزانة رطبة وعفنة، طوال مئة وعشرين يوماً، لا يمكن علاجها بسهولة.

كتبتُ تعليقاً على الصورة:

– هذا البريق في عينيكِ لن يستطيع أحد أن يطفئه.

– ولكنّهما مطفأتان.

– أنتظرك غداً، بعد الدوام في الورشة.

لم يكن العار الذي تعيشه نارنج عاراً شخصيّاً. فأنا أيضاً لديّ حصّتي منه. عار على هيئة إهانات متتالية، تتراكم على مهل، مثل لعبة بازل. العار لحظة إحساسك بالهشاشة والهوان والصمت، تجاه الأهوال التي يعيشها الآخرون. عدائيّة عسكري الحاجز في تعامله

معك كمتّهم مؤجّل، مشهد رجم امرأة، وشم عضلات منفوخة للصّ سابق بثياب عسكريّة ملطّخة بالشعارات الوطنيّة، نشرة الأخبار، صور الغرقى، والجحيم اللامرئي لوحدتك.

فضّلت نارنج أن نلتقي في مقهى المتحف، بدلاً من مقهى الروضة، بذريعة أنّها لا تحتمل الضجيج، لكنّنا وجدناه مغلقاً، فاخترنا مقعداً حجريّاً في حديقة المتحف، تحيط بنا تماثيل من العصر الروماني، وأشجار الكينا التي تعلوها أسراب الغربان، إلى أن نتّفق على مكانٍ آخر.

أشارت إلى يسارها ثمّ تمتمت «كان هذا المقهى آخر مكان ذهبتُ إليه قبل اعتقالي».

لم أعلّق على كلامها. أكملتُ تدخين سيجارتي بصمت، ثمّ نهضت. الغيوم التي تغطي سماء آخر كانون الأول، كانت تُنذر بمطرٍ وشيك. ما إن قطعنا سور المتحف حتى فاجأنا المطر فعلاً. كنّا على بعد خطوات من صالة «سينما سيتي». اقترحتُ عليها أن نشاهد فيلماً، لكنّها اعتذرت بهزّة من رأسها، فأكملنا طريقنا نحو جسر فيكتوريا صعوداً إلى شارع 29 أيّار، من دون هدف محدّد. كنت أخشى أن ترتكب حماقة ما، تتعلّق بيأسها من كلّ ما يحدث حولها. فخلال النقاش الذي جرى في الورشة حول إمكانية بناء سيناريو يتّكئ على حادثة انتحار فتاة الشعلان، أشارت بمواربة إلى أننا نعيش كآبة عموميّة، ولا بدّ من أن نقع قريباً على حكايات أشدّ ألماً، وتالياً، علينا أن نفتّش عمّا وراء الحادثة، أو ما اتّفقنا على تسميته في الورشة «الفناء الخلفي للحكاية»، وأن ننبش قبوراً كثيرة، قبل أن يجفّ ترابها.

لم أشأ أن أتركها في هذه الحال، فقلت مازحاً:

– ألا ترغبين في الاطمئنان على نارنجتك؟ هزّت رأسها بالموافقة.

كنّا مبلّلين بالمطر تماماً. جلست نارنج على الصوفا الوحيدة في الصالة، وتناولت كتاباً كان إلى جانبها، لإخفاء ارتباكها في زيارتها الأولى لي. كان الكتاب نسخة قديمة ونادرة من «مسامرات الأموات» لمؤلّف سوري من القرن الثاني بعد الميلاد يُدعى لوقيانوس السميساطي، كنتُ قد اشتريته من بائع كتب مستعملة تحت جسر الرئيس. قلّبتْ صفحاته على عجل ثمّ أعادته إلى مكانه معلّقة:

– هل يتسامر الموتى حقاً؟

– ألن تخلعي معطفك؟

نهضت من مكانها، وخلعته. تناولته منها، وعلّقته على مشجب الحمّام. كانت لا تزال واقفة، وهي تتأمّل فوضى الصالة، ومحتويات الطاولة من فناجين قهوة قديمة، وبقايا شموع، وأدوية، وأجهزة ريموت كونترول معطّلة، ودفتر صغير يحمل اسم فندق في بيروت، يصلح لكتابة ملاحظات طارئة، وبطّاريّات جافة، وقلّامة أظافر.

– ألن تخلعي غطاء رأسك أيضاً؟

اقتربتُ منها، محاولاً أن أفكّ عقدة الغطاء، لكنّها تراجعت إلى الخلف باضطراب، ثمّ استرختْ على الصوفا، واحتضنتْ رأسها بين يديها وبكت، ثمّ طلبت أن تذهب إلى الحمّام. خرجتْ بعد دقائق وقد عدّلت من وضع الغطاء وجعلته عصابة على هيئة قوس يغطّي أذنيها تماماً. لم يكن شعرها طويلاً، لكنّها بدت بمظهرٍ آخر أكثر جمالاً. فتحتُ ذراعيّ لاحتضانها، فاتّكأت على كتفي بنوبة بكاء ثانيةً.

قلت لمداراة ارتباكي، وربّما ورطتي «سأعدّ القهوة»، واتّجهتُ إلى المطبخ. أعلم صعوبة ما تكابده، وما تختزنه من آلام وأوجاع وذلّ، فلم أجد إلّا أن أستنجد بالنقّري. فقلت، وأنا أضع فنجان القهوة أمامها، كمن يخاطب نفسه:

– «إذا رأيت النار فقع فيها ولا تهرب، فإنك إن وقعت فيها انطفت، وإن هربت منها طلبتك وأحرقتك».

– لكن ناري لن تنطفئ أبداً. قالتها بحسم.

– ألا تفكرين في جراحة تجميلية. أقصد ألم تزوري طبيباً؟

– أُذني مشوّهة تماماً... لو أُسعفت في حينها، ربّما كان ذلك ممكناً، أمّا الآن فلا أرغب في وضع أُذنٍ صناعيّة. ثمّ هل تسعفني الجراحة التجميليّة في تنظيف أُذنـيّ ممّا علق بهما من شتائم، وإهانات، وصراخ، وأذى، ولهاث كلاب مسعورة؟ أُذناي ملوّثتان بأقذر عبارات الـذّل، أحتاج إلى عمر آخر كي أنسى تلك الوحشيّة، وتلك الكراهية، وذلك الجنون.

نهضت فجأة، وألقت نظرة إلى الخارج.

– لقد توقّف المطر، يجب أن أذهب. جدّتي في انتظاري.

– جدّتك!

– لن تصدّق، لكنّ طيفها يأتيني كلّ ليلة، بالتوقيت نفسه. أفتح لها باب الغرفة، وأجلس على طرف سريرها. هي من يسلّي وحدتي. لا تستغرب، فإنّ ما يحدث معي هو نوع من مسامرات الأموات أيضاً. قالت ذلك بثقة، وهي تشير إلى الكتاب.

أحضرتُ معطفها من الحمّام، وساعدتها على ارتدائه. ثمّ وقفنا صامتين لثوانٍ. عانقتني بارتباك وخرجت مسرعة. أنصتُّ إلى صوت كعب حذائها على الدرج، مثل خفقة جناحي طائرٍ مطعونٍ يبتعد.

17

لم ينقذني محمد القصبجي هذه المرّة، وأنا أستمع إلى موسيقى «رق الحبيب» على أمل غامض في استعادة توازني. كنتُ في أعلى مراتب اليأس. أوقفت تشغيل الأسطوانة، ثمّ ارتديت معطفي لاستنشاق هواء آخر، غير عابئ بالمطر الذي عاد أقوى ممّا كان. توقّف المطر قليلاً، بما يكفي كي تصل نارنج عبد الحميد إلى منزلها في حيّ المهاجرين، وتناجي طيف جدّتها. كانت الشوارع شبه معتمة، وعدوانيّة إلى حدٍّ ما. عدوانيّة مضمرة، أحسّها في وجوه سائقي التاكسي، وفي الدوائر الحكوميّة، ولدى الحرّاس الشخصيّين أمام الحانات، وفظاظة صريحة ألمسها لدى رجال الأمن الذين يحرسون البوّابات الإلكترونيّة في الفنادق، ودار الأوبرا، ومبنى التلفزيون. تحاشيت المرور في الشوارع الجانبيّة بإنارتها الخفيفة، خشية أن يباغتني لصّ ما. كنتُ أسير مبلّلاً تحت المطر، فأنا لا أطيق حمل مظلّة، مهما كان المطر غزيراً. كنت بحاجة إلى أن أغتسل من الطحالب والإشنيات العالقة على جدران روحي.

قادتني خطواتي إلى حانة أميّة. هناك وجدت كمال علوان يشرح خطّة كتابه الذي سيصدر في ألف صفحة، وهو يهزّ الملفّ

المهترئ بيده في وجه البارمان، وقد أضاف فصلاً جديداً سيكتبه لاحقاً، عن ضرورة إعاقة صعود البورجوازيّة الطفيليّة إلى السلطة، لأنّها سليلة قوانين كولونياليّة منقرضة، مؤكداً أنّ تقويض الدولة بصورتها الحاليّة قد يحتاج إلى أربعة قرون لبزوغ عصر تنوير جديد في منطقة مثقلة بعقائدها الدينيّة والقبليّة والعشائريّة، لكنّه على سبيل إنعاش الأمل لدى قرّاء كتابه المنتظر، سيكتفي بقرنين فقط لوصول تلك الإشراقة النورانيّة. كان البارمان الحزين يهزّ رأسه ببلاهة، وهو يلمّع الكؤوس بقماشة قطنيّة بيضاء، فيما تخيّلت قرنين معدنيّين يبرزان من جبين هذا الكبش المخصيّ الغارق في ترّهاته الليليّة. أنهيت كأسي على عجل، خشية أن يشملني بإشراقاته، وخرجت.

لا مناص من الضيق والسأم والوحدة، فمطحنة البؤس تعمل بكامل طاقتها، أينما اتّجهت: منظر شخص مشرّد ينام في مدخل بناية، داخل صندوق كرتون، يبرز من أحد أضلاعه شعار شركة ألبسة مستوردة. عاهرة تقف على رصيف شارع الحمراء، بجوارب برّاقة وصدر مكشوف. كذلك استعدت وقائع اتّصال هاتفي من رقم مجهول تدعوني صاحبته للتعارف، وأنّها أرملة عمرها 27 سنة، وتقطن في حيّ المزرعة.

أيّام مكرّرة، تصلح للاستعمال مرّة واحدة فقط، مثل شفرات الحلاقة الجاهزة، وما بقي رغوة فائضة لا أكثر، تحاول أن تضفي عليها معنىً لوجودك، من دون جدوى. أنت في متاهة اللامعنى، تصرف أيّامك بإعادة تدوير الضجر، وإضفاء مهابة كاذبة على قائمة الموتى. القائمة التي تنتهي على هيئة أرقام بلا أسماء، أو ورقة نعي ملصقة على جدار، أو على جذع شجرة، أو في صفحة الوفيات في جريدة لا يقرأها أحد. تقرأ الاسم ثمّ تنساه حالاً. هكذا تختلط صور الموتى بصور

مغنّي الملاهي، فيما تتناوب على اللوحات الطرقية الضخمة إعلانات الجيل الجديد من الهواتف النقّالة مع شعارات النصر وإعلانات الشامبو.

18

بسبب فرق التوقيت، قرأت خبر موت صديقي محمّد وهيبي في ليلٍ متأخّر. مات محمّد في برلين، بعد أشهر من هجرته القسريّة. لم يهنأ في منفاه الألماني طويلاً. انطفأ قلبه فجأة، كأنّ أوكسجين الغربة الضئيل لم يلائم نحول جسده الذي ابتعد أكثر ممّا ينبغي عن البلاد. كانت التغريبة الأولى من طبريّا، مروراً بمخيّم وادي العجم عند تخوم جبل الشيخ، ثمّ إلى مخيّم اليرموك في دمشق، لتنتهي تغريبته الأخيرة في برلين. نزوحات متتالية أثقلت ألوانه بالمآتم المرتحلة التي كانت جوهر انشغالاته اللونيّة ووجعه الشخصي. وقفتُ منكسراً ومفجوعاً أمام لوحته المعلّقة في الممرّ بين الغرفة والصالة، كآخر بريد بيننا. امرأة موشومة بالفقدان، وطيور، وتعاويذ بدويّة. رائحة البراري المنهوبة لم تغادره قَطّ. لن يكون موته قاسياً، أقول لنفسي، هو الذي كانت سبّورته الأولى المقبرة، إذ كان يعيد رسم ما كانت ترويه أمّه، من طقوس حكايات الموتى، بالطباشير. أستعيد الآن صوته «لم نكن نشعر بمعنى الموت. كنّا نجلب النعناع البرّي ونضعه تحت الجسد المسجّى، قبل أن يُزفّ إلى المقبرة، فقد كان الموت شأناً عاديّاً لا يستدعي الحزن أو الألم». لكنّني حزين لغيابك يا محمّد.

أخاطب المرأة في اللوحة، فأرى طيفه في بياض جناح الطائر الذي كان يحطُّ على كتفها اليمنى، فيجيبني «ماذا أفعل أمام منظر امرأة تتناول القهوة بجانب قبر زوجها، وقد أحضرت فنجانين كي يشاركها بؤسها وذكرياتها في وحدتها؟». مات محمّد في برلين فجراً. لن يستيقظ على صباحٍ آخر، بقهوة، وأحلام، وقماشة بيضاء مشدودة على حامل اللوحة. في منفاه كان يرسم رجالاً قساة بخطوط صارمة، وكوابيس كأنّها خارجة للتوّ من أحد أعمال جورج أورويل المفزعة.

مات محمّد مطعوناً بخنجر الفقدان. اختنق بصقيع المنفى، وذهب إلى غيبوبته الأخيرة، في إشارة لاكتمال المحنة، وانتهاء درس الحنين.

19

لم تكن لديّ رغبة في مغادرة السرير، والذهاب إلى المعهد. صوت المطر في الخارج كان سبباً آخر للكسل. وضعت سمّاعة هاتفي المحمول بأذنَيّ، وجُلت بين محطّات الإذاعات المحليّة. كنت أفكّر بنارنج، هل تضع سمّاعة واحدة بأذنها السليمة، أم تتجاهل هذه الخدمة في الأصل كي تنسى محنتها؟ كانت الحياة مبهجة في محطات الإذاعات المحليّة. إنشاء رومانسي مبتذل في تفسير كلّ ما يجري خارج الاستوديوهات، وعطر ياسمين وقرنفل وفلّ يفوح من جثّة لغة ميتة، وبرامج تغذية، وكيفيّة تقشير الثوم من دون رائحة، وأفضل طريقة لإعداد شوربة الفطر، وفتاوى شرعيّة، وتوقعات فلكيّين، تتخللها أغاني عشق، وأقوال الصحف، وجنود في الميدان يهدون أشواقهم لأهاليهم البعيدين.

انقطاع التيّار الكهربائي، وحاجتي إلى شحن بطاريّة اللابتوب، وحصّتي من الكآبة، أسباب إضافية لمغادرة المنزل، والذهاب إلى المقهى في محاولة يائسة لمقاومة الضجر.

وضعتُ سلك الشحن في المأخذ الكهربائي، واتّخذت مكاني إلى طاولة مجاورة لثلاث شابّات باذخات. كان حديثهنَّ مسلّياً

وغرائبيّاً. الشقراء بخصلة شعر حمراء، وجينز مخرّق عند الركبة كانت غاضبة لأنّها لم تجد خبيراً في وضع «البيرسينغ» في سرّتها بقصد إرضاء رغبات شريكها. فهمت أنّ هذه المفردة تعني وضع الأقراط المصنوعة من الذهب أو الفضّة أو النيكل على مناطق من الجسم، مثل الأنف، والأذن، والشفاه، والحاجب، وحلمة الثدي، والسرّة، كنوع من الزينة، أو الموضة، فيما نصحتها صديقتها بالذهاب إلى بيروت، لوجود خبراء تجميل حاذقين، وخيارات أفضل لا تتوقّف عند هذه المناطق، بل تتعدّاها إلى مناطق حسّاسة أخرى. قالتها وهي تخبط بيدها فوق فرجها، مرفقة بموجة من الضحك. هذا الطراز من ثقافة البورنوغرافيا، حفر مجراه على مراحل، كنوع من الاحتجاج والتمرّد، واستجابة لإغواءات إعلانيّة تواجه ثقافة الحجاب، في حربٍ خفيّة بين جسد محتجب، وآخر مكشوف، يتجاوران في فضاءٍ واحد، ففي ركنٍ آخر من المقهى، كان مشهد نساء محجّبات يدخنّ النارجيلة بشبق، هو الخندق المضادّ، رغم تواشج المشهدين، في منطقة الرغبة، وسوف يطيح المشهدين، مشهدٌ ثالث لامرأة أربعينيّة محجبّة بصحبة قوّاد، اعتادا المجيء إلى المقهى، في التوقيت نفسه، قبل أن ينضمَّ أشخاص آخرون إلى «البازار». كنت مستغرقاً بتفكيك مشهديّات المقهى كفضاء عمومي يختزل التبدّلات التي طرأت على البشر، خلال الأعوام الخمسة الماضية، واختبار آليّات عمله في لحظة الهاوية. مجيء كمال علوان إلى المقهى، أفسد المشهد قليلاً. رفع يده محيّياً عن بعد، واتّجه إلى طاولة أخرى، ثمّ جلس إلى رجل غامض يرتدي بزّة أنيقة، كان يضع أمامه مجموعة من الملفّات الملوّنة. سوف يخبرني كمال علوان، بعدما أنهى حواره مع الرجل، بأنّه كان يفاوضه على ثمن براءة أحد أقاربه المعتقلين منذ أشهر، في أحد الفروع الأمنيّة، بتهمة الإرهاب. سأكتشف بذهول، نوعاً آخر من البازار، فهذا الرجل يعمل

ضمن شبكة أمنيّة غامضة، تقوم على اعتقال بعض الأشخاص الأغنياء بتهمة الإرهاب، وبعد إحالتهم إلى «محكمة الإرهاب» تبدأ المساومة على إعلان براءتهم مقابل مبالغ طائلة تصل إلى ملايين الليرات. مهمّة هذا الرجل الذي يعمل في المحاماة، وكان يقطن في أحد الأحياء العشوائيّة، قبل صعوده المفاجئ إلى طبقة الأثرياء، هي «التشبيك» بين المتهم والمحقّق في المحكمة، في عمليّة ابتزاز مكشوفة، يشارك فيها قضاة، ورجال أمن، وزعماء عشائر، ورجال دين، ولجان شعبيّة. يكتفي هذا المحامي الذي لا يمتلك مكتباً، باستعمال هاتفه الجوّال في إنجاز صفقاته مع ذوي المعتقلين، ثمّ يختار مقهى أو فندقاً، أو مطعماً، لإنهاء تفاصيل الصفقة، كما يظهر على الشاشات المحليّة، بين فترةٍ وأخرى بتغطية من جهات أمنيّة نافذة بوصفه خبيراً قانونيّاً. لم يتّفق كمال علوان مع الرجل على خفض المبلغ من خمسة ملايين ليرة إلى مليون ليرة، لكنّه طمأنني، وهو يرفع الملفّ بيمناه، بأنّه سيفضحه في كتابه «تقويض إسمنت الدولة» الذي سيصدر في ألف صفحة وملحق للهوامش. سحبت سلك شحن البطاريّة من «القابس»، وتهيّأت للخروج من المكان، دون خطة محدّدة لاستهلاك نهارٍ آخر. لم تكن لديّ رغبة في رؤية أحد، أو حتى الردّ على رسالة نصيّة، وصلتني من أسمهان مشعل، تطلب منّي قراءة نصّها الجديد الذي نُشر اليوم في موقع «أمواج». كنتُ كمن يعيش في الإقامة الجبرية. كلّ ما حولي يضيق إلى حدود الاختناق، بأوكسجين ملوّث، ورائحة عفونة تهبّ من الأرواح، والأشجار، والمطر، ونوافذ البيوت المهجورة، ولوحات الإعلانات، وعيادات الأطبّاء، ومحالّ الألبسة المستعملة، وأغذية الإعانات التي تُباع على الأرصفة بصفقات علنيّة بين مسؤولي منظمات الإغاثة ومافيات السوق. اخترقت شارع الصالحية صعوداً، نحو محلّ لبيع الخمور في جادة البحتري، اعتدت شراء أفضل أنواع

الخمور منه. كان جوزيف خبيراً في أنواع الخمور الممتازة، وقد نصحني بأن أجرّب ماركة جديدة من النبيذ المحلّي. عند عتبة الباب أبلغني خبراً صاعقاً عن مخرج سينمائي صديق، كان يتردّد إليه، على الدوام، وكان قد هاجر إلى باريس منذ ثلاث سنوات، بأنّه يرقد في أحد المستشفيات هناك، إثر إصابته بسرطان الحنجرة. لا أشكّ في أن رياض شيّا بلغ الدرجة القصوى من اليأس، وهو يرى المسافة تتضاءل نحو مقبرة الغرباء، طاوياً أحلامه المجهضة معه، بعد أن أنجز فيلماً يتيماً، منعته الرقابة الرسميّة من العرض، استجابة لاعتراضات طائفة المخرج على محتوى فيلمه بذريعة انتهاكه التعاليم السريّة للطائفة وكشف طقوسها على العلن. سيذهب إلى عزلة أبديّة تتيح له إمكانيّة التأمّل، وربما سيلتقي معبوده السينمائي روبير بريسون ليوضّح أمامه أسباب شغفه بأفلامه، تلك التي كان يقول عنها «أيقونات بصريّة» لجهة كثافتها القصوى، وتوتّرها الداخلي، وإقرارها باليأس من العالم.

خلال صعودي الدرج إلى منزلي، كان طيف صديقي رياض شيّا يرافقني، وكنت أقتفي أثر قدميه، وهو يصعد الدرج معي، بكامل بدانته، وسيجاره الكوبي المطفأ، واحتجاجاته على احتضار السينما التي أضحت صنبوراً مفتوحاً للحكي على حساب الفتنة البصريّة. تلك الليلة استدعى كعادته روبير بريسون إلى المائدة، مقرّراً بحزم تمجيد «السينماتوغراف» تلك التي تكون «أكبر من لوحة، وأعمق من قصيدة»، وكيفيّة إخفاء الأفكار برهافة، ذلك أنّ أهمّ الأفكار هي أكثرها احتجاباً. كان يشجّعني على أن نخوض مغامرة مشتركة بدمغة محليّة، تنتصر فيها الصورة وحدها، وأن نكتب نصّاً متقشّفاً «فعندما يكون كمانٌ واحد كافياً لا داعي لاستخدام اثنين»، لكنّنا سننسى المشروع في اليوم التالي، وسيغيب صاحبي أشهراً طويلة إلى أن نلتقي ثانيةً بالمصادفة، في حانةٍ، أو ناصية شارع، أو عبر مكالمة هاتفيّة، وكأنّ ما

طهوناه قبلاً، مجرّد طبخة خواء، سنجدّد طهوها على نحوٍ آخر بحماسة مؤقتة. ما أفزعني في وحدتي، هو أنّني تلقّيت خبر مرض صديقي، كما لو أنّه مات حقّاً، فقد أضفته تلقائيّاً إلى قائمة الموتى، من دون أن أتّكئ على أمل طفيف في شفائه، أو في لقائه مجدّداً. موت في برلين صباحاً، واحتضار في باريس مساءً، وقتلى بالعشرات في حافلة، لا تزال جثثهم طازجة في مشرحة شاشة نشرة الأخبار. خشيتُ كابوساً جديداً، سيداهمني هذه الليلة، ذلك أنّ كلّ الاحتياطات، وعمليّات المحو المستمرّة لمشاهد الأذى المتراكمة لديّ، لم تكن ناجعة في إزاحة التراب عن الحفرة العميقة التي غرقتُ فيها. وسوف أختزل ما أنا فيه بعبارة واحدة هي «خردة روح»، ثمّ بشطحٍ آخر «عجلة درّاجة هوائيّة معطوبة لا تصلح للنزهات القصيرة».

20

في المنام فقدت حذائي في مكانٍ مجهول، لم يسبق أن زرته قبلاً، ثمّ وجدت نفسي في بيتٍ واسع بغرف متداخلة. من إحدى نوافذ البيت، كنت أرقب عسكرياً بثياب ملوّثة بالفحم، وحشداً على هيئة دائرة في ساحة مجاورة، وصبيّاً شرّيراً يقود شاحنة تتوقّف أمام باب البيت، ودمية محطّمة وعارية في حقيبة مفتوحة. كنوع من التسلية في الوقت المستقطع، سأفتّش لاحقاً عن معنى فقدان الحذاء في المنام. فحسب تفسير ابن سيرين «المحذوّة منها إذا مشى فيها طريق وسفر، فإن انقطع شسعها أقام من سفر، فإن انقطع شراكها أو زمامها أو انكسرت النعل عرض له أمر منعه عن سفره على كره منه، وتكون إرادته في سفره حسب لون نعله، وإن رأى أنه ملك نعلاً ولم يمش فيها ملك امرأة، فإن لبسها وطئ المرأة، فإن كانت غير محذوّة كانت عذراء، وتكون المرأة منسوبة إلى لون النعل». ما هذا يا بن سيرين؟ كيف قادتك مخيّلتك المريضة إلى هذا التفسير الحصيف، امرأة ونعل في موطئٍ واحد؟

إلحاح أسمهان مشعل على قراءة نصّها الجديد، وضعني في مقامٍ آخر. تتبّعت رابط الموقع، فباغتتني بمزاجٍ آخر غير متوقّع

«غرفتي بلا ستائر، وملاءة سريري غزيرة بفاكهة أنوثتي، تعالَ على عجل، واقطف شهوتي قبل أن تذبل». للحظة خاطفة، أحسستُ بغبشٍ في الرؤية، كأنّني أمام آمال ناجي في شبقها الليلي المؤقّت، لا أمام النسخة الأصليّة من أسمهان مشعل في صحوها، وروحانيّتها، وخشيتها من الانزلاق إلى التضاريس الوعرة للّغة. ها هي تفكّ عروة إضافيّة في قميصها، وتتنفّس ملء رئتيها من دون ارتباكات بلاغيّة، فقد استهلكت رصيدها من رحلتها الأخيرة للجبال مع فريق اليوغا والروحانيّات، وعادت إلى جسدها الشهواني، لفحص عطبه عن كثب. هذه المرّة لم تكتفِ بالمشمش وحده، بل بثمار بستان كامل، ولم تقف عند العتبة الغامضة للشهوة، بل تجاوزتها إلى ملاءة السرير وأزاحتْ الستائر عن نوافذ الغرفة بانتظار هبوب رحيق النحل. أجبتُ بكلمة واحدة: «أورغازم بلاغة».

– لم أفهم ماذا تقصد، هل أعجبك نصّي؟

– أعجبني جداً.

ثمّ أوضحتُ لها بنبرة حكيم صيني من القرن الخامس قبل الميلاد، بأنّ ما تحتاج إليه لغتنا اليوم هو بلوغ اللذة، والإشباع، والرعشة، والهياج، والإمتاع، وأن نكنس غبار الكلام حتى يتحوّل الطين إلى صلصال. اللغة المشتهاة هي أن نحصل على مسك الغزال لحظة تفجّر كيس سرّته فوق صخور الجبال العالية. أن نشهد لذّة احتكاك الكيس بأطراف الصخور الخشنة إلى أن يتفجّر الدم. كوني مسك الغزال في جباله العالية، واحذري العشب المَدوس على حافات الدروب. كنت أنثر حكمتي كمن يحمل مبخرة ويطوف بها فوق رؤوس الآخرين، دون أن أنظر إلى نفسي في المرآة، وأفحص ندوبي، وأخطائي، وشهواتي، وفشل مشاريعي، ونزواتي، وجفاف روحي، وضجري المباغت. ثمّ ماذا يعني أن أبتكر حلولاً لسيناريوهات

لن تنقذ يوماً، وإن حصلت معجزة في هذا الشأن، فلن تكون الصورة كما أشتهي. لن أستطيع شخصياً، أو أحد من طلّاب الورشة، أن يلتقط مشهداً يتيماً، لبناء مدمّر، أو لحاجزٍ عسكري، أو لعائلة تقطن خيمة يغمرها الوحل. كان عليّ مثلاً، لولا خوفي، أن أخرج هاتفي المحمول، وأصوّر هذا المشهد الذي باغتني في ظهيرة يوم صيفي ملتهب:

كنت أعبر رصيف شارع خالد بن الوليد، حين توقّفت شاحنة صغيرة أمام حاجز التفتيش. الشاحنة محمّلة بصناديق من الكرتون، وكان على عسكري الحاجز تفتيشها بدقّة، وفحص البضاعة. لكنّه لم يفعل. أدار ظهره لزجاج نافذة الشاحنة من جهته، فأصبحت جيوب جعبته من الخلف على مرمى يد مرافق السائق حتّى يتاح له وضع رزمة من النقود في جيب العسكري الذي بدا متشاغلاً بتأمّل حركة الشارع، ثمّ ابتعد قليلاً، مفسحاً للشاحنة المرور. سوف أكمل طريقي، وكأنّ شيئاً لم يحدث، حتّى إنني فكّرت للحظات، في أن أنعطف يميناً إلى سوق السمك لإعداد وجبة شواء فاخرة، وأدعو نارنج إلى الغداء.

21

بقصد تخفيف وطأة الخسارة، وتبرير هشاشتي، وضعت سيناريوهات إضافيّة للواقعة. وجود مفخّخة في الشاحنة. المفخّخة ستنفجر في شارع مزدحم، وسيذهب ضحايا بالعشرات. سيشاهد عسكري حاجز التفتيش الخبر على الشاشة، أو يسمع أصوات سيّارات الإسعاف، وكأنّ الأمر لا يعنيه. وسوف يعدّ حصّته من النقود، كفاف يومه، ثمّ يدخّن سيجارة من علبة تبغ غنمها من سائقٍ آخر. ولكن لماذا تلحّ عليَّ الآن صورة سينما أوغاريت في اللاذقية؟ الصالة التي لم أدخلها يوماً، ولا أتذكّر جيداً إن كنت عبرت الرصيف المحاذي لها، خلال زياراتي المتباعدة لهذه المدينة البحريّة. خبر صغير قرأته في مدوّنة إلكترونيّة هزّني بعمق، ثمّ حاولت محوه، أو نسيانه، لفرط وحشيّته، وها هو يعاودني بإصرار مجدّداً. أقول لنفسي، ربّما لأنه يصلح لأن يكون بذرة سيناريو فيلم مؤجّل أيضاً. صالة سينما تتحوّل إلى معتقل. عربات مصفّحة، وحراسة مشدّدة حول المكان تمنع أيّ عابر في الشارع الاقتراب من الرصيف، لكنّ أصوات المعتقلين خلال نوبات التعذيب يمكن سماعها في الخارج، من دون أن يجرؤ أحد على الاحتجاج. لا أعلم من الذي أصدر أمراً بالاستيلاء على الصالة المغلقة،

بعد أن ضاقت الأماكن الأخرى بالمعتقلين، لكنّها فكرة فانتازيّة حقاً، بأن تستغني عن علب الأفلام، وشبّاك التذاكر، وتحجز مقعدك مجّاناً، كي تتفرّج على نفسك، وتختبر صوتك من شدّة الألم، ثمّ تنسحب من المشهد لمصلحة معتقل آخر، في عرضٍ متواصل بلا توقّف، فالقسوة اختراع بشري، كما يقول خوسيه ساراماغو، واحتكار الألم مهنة تخصّ البرابرة. لا أشكّ في أنّ واحداً من المعتقلين، أو أكثر، سبق أن شاهد فيلماً في القاعة نفسها، وربّما كان الآن يبحث بعينيه المتورّمتين من الصفعات، عن مكان مقعده القديم، ومن كان برفقته، وتلك الملامسات التي تحدث في العتمة، وها هو يستعيد لقطات من آخر فيلم شاهده، قبل أن تغلق الصالة أبوابها، متجاهلاً آلام جسده، وصرخات الآخرين. سأفترض أنّه كان يشاهد فيلم «جسور مقاطعة ماديسون»، ذلك أنّ الصالة أغلقت أبوابها في منتصف التسعينيّات، بالتوقيت نفسه الذي ظهر فيه هذا الفيلم تقريباً، وسوف يستنجد بكلينت إيستوود الذي كان يعمل مصوّراً فوتوغرافيّاً جوّالاً لدى مجلة «ناشيونال جيوغرافيك»، كي يوثّق آلامه بالصور، بعد أن وقع في المصيدة، وقد تخيّل نفسه وحشاً جريحاً في غابة، أو في قفص. وفي لقطةٍ أخرى سيشتهي حساءً كانت تعدّه ميريل ستريب في مطبخها، وربما سيرغب في مضاجعتها مستعيداً على نحوٍ آخر غراميّاتها المحرّمة، رغم وضعه الحرج، أو بسببه. وسيفكّر مثلها في كتابة مذكّراته سرّاً، على أن تُنشر بعد موته، مستبدلاً جسر الذكريات بسينما أوغاريت.

22

ما نفتقده يا أسمهان مشعل في هذا العراء، هو ذلك النصّ الجحيمي الملعون، أو تلك اللغة التي تصيب عظامنا بالخدر، وتزعزع يقيننا بما كان مقدّساً بسطوة البلاغة وحدها، وإلّا فما تفسير أن يشقَّ أسلافنا أكفانهم، ويخرجوا من قبورهم، كي تعود مطحنة الهلاك إلى الدوران عند النقطة التي توقّفت عندها، من دون أن نحتجّ على ذلك. أنت توقظين جسدك بقوّة مفعول النبيذ البلدي المعتّق، أمّا أنا فنبيذي ينتهي بي إلى البكاء. أستمع إلى أغنية عراقيّة عن الفقدان كي أجد مبرّراً قويّاً للبكاء. أنا أبكي كثيراً في وحدتي يا أسمهان، أبكي. أتعلمين ذلك؟ أنظر في المرآة إلى غزارة الشيب الذي اقتحم شعر رأسي مبكّراً. إنّ خلف كلّ خصلة شعر بيضاء مصيبةً إضافية، حالة رعب، خنجر بؤس، طعنة، خيانة، مكيدة، وتاريخاً غير مدوّن للانتهاك.

لم أثق بطرح فكرة سيناريو عن سينما أو «معتقل أوغاريت» أمام الورشة، فهي فكرة تفتقد الحصافة في مثل هذا التوقيت السيّئ، فقرّرت مناقشتها على انفراد مع نارنج عبد الحميد خارج المعهد. كان السبب الأوّل، هو ثقتي التامّة بها، والثاني إشغالها بمشروع ينسيها بعضاً من أوجاعها الشخصيّة. لكنّني سأتراجع عن الفكرة في الحال،

ذلك أنّ إعادتها إلى مربّع الاعتقالات ستوقظ أوجاعاً إضافيّة لديها، في الوقت الذي ينبغي أن تستعيد فيه كيانها المهدور، سأطوي الفكرة مؤقتاً، إلى درجة أنني سأتجاهل وجود نارنج في الورشة، ولن أجيب كما ينبغي عن سؤال وجّهته إليّ عن كيفيّة التحقّق من أهمّية فكرةٍ ما؟ «الفكرة الجيّدة تلمع في العتمة، ترافقك مثل ظلّك إلى أن تلتقطيها، وتالياً، فليس هناك مؤلّفات، هناك مؤلّفون». كنتُ في أسوأ حالات الاحتضار والحيرة، بين أن «أتورّط» بعلاقة مع نارنج، أو أن أبتعد عنها نهائياً، فأنا الآخر أحتاج إلى علاج مركّز للخروج من هذه المتاهة.

في السابعة مساءً، رنّ الأنترفون. كانت نارنج على الخطّ. قالت بنبرة حاسمة إنّها تقف أمام باب البناية.

– اصعدي.

كي تداري ارتباكها ربما، قالت على الفور بنوع من العتب، إنّها أتت للاطمئنان على نارنجتها، لا لسببٍ آخر. كانت تضع شالاً بزهور ناعمة يحمي أذنيها. جلست إلى جانبي وهي تعبث بخاتمها باضطراب، ثمّ قالت:

– كنتَ غاضباً منّي في الورشة، ولم أجد سبباً مقنعاً لتصرّفك، ولم أستطع أن أنتظر إلى الغد، ففضّلت المجيء إلى هنا. أخشى أن يكون هاتفي مراقباً.

– كنتُ متعباً. آسف على نبرتي التهكّميّة في الإجابة عن سؤالك.

– أليس هناك سببٌ آخر؟

– مثلاً؟

– خشية أن تنالك شبهة بسببي؟

– لا تهتمّي.

قهوة، ثمّ نبيذ، ثمّ شكوى من الوحدة، ثمّ كيف أنّ طيف جدّتها لم يزرها منذ يومين، ثمّ كيف مات أبوها بسبب إهانة. عاد إلى البيت مهموماً، إثر إهانته من أحد تلاميذه القدامى بطلب رشوة صريحة لإتمام معاملة تتعلّق بميراث أمّها. لم يستوعب الأب الحادثة، فنام في سريره، ولم يستيقظ أبداً. خلال ذهابي إلى المطبخ لجلب شرائح من الجزر، ألقت نارنج نظرة على غرفة المكتب للاطمئنان على نارنجتها، كما قالت، فهالها منظر الفوضى الداخلية. اقترحتْ عليّ أن تأتي في يوم عطلة لترتيب الفوضى. طلبتُ منها أن تنسى الأمر، فأنا أدرى بشعاب كتبي وأوراقي وأرشيفي. ثمّ اعترفت بأنها ظلّت تحمل سكيناً في حقيبتها، طوال أشهر، على أمل أن تصادف المحقّق الذي اغتصبها، كي تبترَ عضوه، كما أنها تحتفظ ببصقة كبيرة لأجل صديقها القديم حسام الذي غدر بها لدى الأمن، وهاجر إلى ألمانيا لاجئاً سياسيّاً، ثمّ ناشطاً في منظمة لحقوق الإنسان «كنت أسلّم الأشرطة التي أصوّرها خلال التظاهرات إلى حسام كي يسرّبها إلى بعض المحطّات الفضائيّة، وكان يقبض ثمن بثّها من تلك المحطات، قبل أن يودع نسخة منها لدى جهة أمنيّة. أنكرت التهمة، ما أثار غضب المحقّق».

أخرجت كيس تبغها من حقيبتها، ولفّت سيجارة، ثمّ قالت وهي تغيب وسط سحابة الدخان:

– الآن، أنا على يقينٍ تامّ بأن لا فرق بين الاثنين. حسام اغتصبني باسم الحبّ، والمحقّق اغتصبني باسم الكراهية. كلاهما لوّث جسدي بالضغينة. أكره جسدي، كأنّه يخصّ سواي. أنام كجثّة، وأستيقظ كجثة، مثل سلحفاتي الهرمة التي تختبئ في عتمة الحديقة.

– ألم تفكّري بالسفر خارج البلاد؟

– لا. لديّ هنا ثلاثة قبور، وشجرة نارنج. أمّي التي ماتت بالسرطان، وأبي الذي مات بإهانة، وجدّتي التي ماتت حزناً على غيابي. كيف لواحدة مثلي أن تحتمل ثقل ثلاثة قبور وشجرة فوق كتفيها، وتعبر الحدود باطمئنان؟

كل محاولاتي لإبعادها عمّا هي فيه، باءت بالفشل. زجاجة نبيذ كاملة لم تتمكّن من تقشير طبقات الوجع المتراكمة في روحها وجسدها وذاكرتها. كان اليأس، وكذلك الثأر، قد حفرا عميقاً في تفكيرها، وما لجوؤها لي إلّا محاولة لطعن الوحدة، ومقاومة الكآبة، واختبار هشاشة الندم. الفلاش ميموري التي أخرجتها من حقيبتها ووضعتها على الطاولة قبل ذهابها، كانت تحتوي يوميّات كتبتها عن تجربتها في المعتقل، وحكايات نساء أخريات كنَّ في ذلك المسلخ البشري، وفقاً لوصفها، بالإضافة إلى مسوّدات سيناريوهات غير مكتملة، وأجزاء من منامات مبهمة تتخللها إشارات إلى معانقات مشوّشة. استعرضت الصفحات على عجل، بحثاً عمّا يشير إلى علاقتها بالصوت إثر فقدانها جزءاً من حاسّة السمع. كنت لا أزال تحت تأثير موسيقى «رقّ الحبيب» لمحمد القصبجي، في تسجيلات مختلفة، وحين طرحت عليها الاستماع إلى الأسطوانة، اكتفت بأن هزّت رأسها بالإيجاب، من دون حماسة. كانت تحرّك خاتمها لولبيّاً بأصابع مضطربة، قبل أن تأخذ جرعة كبيرة من كأسها. سأجد في الصفحة السابعة عشرة من يوميّاتها، عبارة سبق أن ردّدتها أمامي بطريقة مشابهة «لن يكفي ما بقي من عمري كي أنظّف أذني اليُمنى من لعاب ذلك الكلب ولهاثه وشتائمه». وفي الصفحة الثانية والعشرين أوردت عبارة أثارت استغرابي ودهشتي «لماذا تطاردني صورة ذلك الوحش، وأنا أعبث بعانتي في العتمة؟»، وفي ملفٍّ آخر، كتبت عبارة واحدة، فيما تركت بقيّة الصفحة فارغة «لا أعلم ما هو رقمي في المسلخ،

أنا الذبيحة المعلّقة على حبال النسيان والذلّ والصمت، بأذن واحدة أختزن طبقات العار». على الأرجح، أرادت نارنج أن تملأ الثغرات في سيرتها الناقصة، بما لم تخبرني إيّاه مباشرة، خصوصاً ما يتعلّق بارتباك شهواتها، ومحاولاتها المستمرّة لتحرير جسدها الملوّث بآثام البرابرة من كمائنه، وذلك باختبار نجاعة العادة السريّة كعلاج لآلامها المبرّحة، وقياس نسبة الشقاء والشفاء في توقيتٍ واحد. سأتوقّف طويلاً أمام ملفٍّ للصور. صورة من طفولتها بصحبة والدها (أفترض ذلك) تحت شجرة النارنج، وصورة ثانية وهي تقود درّاجة صغيرة ثلاثيّة العجلات، ثمّ صورة جماعيّة في باحة مدرسة، وأخرى في رحلة جماعيّة إلى مدينة معلولا الأثريّة، بالإضافة إلى صور فرديّة حديثة لها. كانت تجلس على حافة حديقة المتحف بشعر أسود طويل، وقرطين صغيرين في أذنيها، وابتسامة غامضة، فيما بدا قوس واجهة المتحف خلفها واضحاً. بناءً على نصيحة من رولان بارت في قراءة الصورة الفوتوغرافيّة، أغمضتُ عينيّ كي أجعل الصورة تنطق في الصمت. حاولت أوّلاً استعادة القرط الذي فقدته، بعد أشهر من التقاط هذه الصورة. ربّما افترسه ذلك الوحش لحظة اغتصابها، أو ربّما هوى أرضاً، بعد صفعة جنونيّة تلقتها من المحقّق، ثمّ سحقه أحدهم بحذائه، من دون أن ينتبه إلى وجوده على بلاط الغرفة، وربّما تدحرج تحت طاولة المكتب، ولا يزال هناك إلى هذه اللحظة. ثمّ من التقط هذه الصورة؟ هل هو صديقها السابق حسام؟ فتّشت بقيّة الصور عن لقطة تجمعها به فلم أجد. محو صوره من أرشيفها، حركة أولى في تجربة نسيان ماضيها معه، ومحاولة لـ«ترويض الفوتوغرافيا» باختراع تاريخٍ آخر أقلّ ألماً. هذا ما منحني بعض الطمأنينة المؤقتة نحوها، وتالياً تحسين فكرة استمرار «الورطة» معها، وعدم خذلانها بدافع بقايا نخوة بدويّة في المقام الأوّل. لم أتوقّع أن أجد تسع صور تجمعني بها، تلك التي

التقطتها أثناء جولتنا معاً، في أزقّة دمشق القديمة. في واحدة من تلك الصور كانت يدها اليمنى تلامس كتفي بحذر، وهو ما لم أنتبه إليه قبلاً. لماذا وضعت هذه الصور تحديداً، وهل أرادت أن تضفي نوعاً من الحميميّة على علاقتنا الطارئة، أم كانت ترغب في أكثر من ذلك؟ ربّما لم يخطر في ذهنها إقامة أيّ علاقة معي، وإنما أوهامي هي التي ذهبت بعيداً، كطراز شائع من أمراض الذكورة، واستجابة لرغبةٍ ملتبسة لديّ في محو آلامها القديمة وكدر ما يؤرّق جسدها. ثمّ سأخلص إلى نتيجة حاسمة بأنّ كلّ ما تسعى إليه نارنج في ما يخصّني هو البحث عن ألفة مفتقدة، لم تجدها لدى الآخرين بعد موت جدّتها، وغياب طيفها لاحقاً، وهجرة معظم أصدقائها القدامى إلى جغرافيّات متباعدة، لذلك فإنّ أيّ تصرّف طائش منّي، سيحطّمها بأكثر ممّا فعله جحيم الآخرين بروحها المنهكة.

23

التمرينات الصباحيّة على نسيان الكوابيس، لن تصمد أكثر من دقائق. أزيح قوائم الموتى، وأشكال العنف، ومشاهد الفقدان جانباً، وأبتكر صباحاً بلا حروب. صباح أبيض بشمس ونزهات خلويّة، ومواعيد غراميّة، ورائحة حبق، ومقعد في حافلة تقطع الطريق الصحراوي إلى قرية حدوديّة، وعناق أمّي التي لم أرها منذ خمس سنوات. أستيقظ من شرودي على جرح في ذقني فيختلط خيط الدم برغوة الحلاقة أمام المرآة، بالإضافة إلى هدير طائرات، وأصوات قذائف، وشجار جيران، وصوت ارتطام ألبوم صور قديم بسيراميك أرضيّة الحمّام، بجانب المغسلة تماماً، مبلّلاً بالماء وطعم القهوة المرّة. سأقلّب الألبوم على مهل، مستعيراً هيئة صبيّ يجلس على عتبة بيت طيني في قرية منسيّة، وقد وضع صورته في الصفحة الأولى من الألبوم. الصورة بالأبيض والأسود، من تلك الصور المخصّصة للبطاقات الشخصيّة. ولكن ماذا يفعل ببقيّة الصفحات الفارغة، ومن أين يأتي بصورٍ أخرى، في قرية مهملة لا تعتني بالصور التذكاريّة، عدا تلك التي يرسلها الجنود لأهاليهم مع سعاة بريد متباعدين، وسوف تُلصق على الجدران بقطعة من العجين، أو بدبّوس، أو داخل برواز مذهّب؟ سيقوم الصبيّ برحلة

غرائبيّة لجمع الصور، بالانتقال من بيت لآخر، وهو يكرّر العبارة نفسها أمام كلّ بيت، رافعاً الألبوم بوجه محدّثه «جئت بقصد جمع الصور». سيفتّش الرجل جزدانه بارتباك، بحثاً عن صورة بطاقة شخصيّة فائضة ويناولها له، أو يعتذر لعدم توفّر صورة لديه، وسيضع الصبيّ الصورة التي غنمها ببهجة في صفحةٍ من الألبوم، ويريها لصاحبها الذي يكتفي بابتسامة إعجاب، من دون أن يفقه أهمّية مثل هذا العمل الغامض أو خطورته ربّما.

لا أعلم أين اختفى هذا الألبوم اليوم. ما أعرفه تماماً، أنّ معظم أصحاب هذه الصور يرقدون في مقبرة القرية باطمئنان، وآخرون هجروا المكان بعد أن اجتاحته جماعة إسلامية متشدّدة، ومن بقي منهم يخضع مرغماً لقسوة تعاليم هذه الجماعة وبطشها.

ينهض الموتى واحداً وراء الآخر، يثيرون زوبعة غبار في المقبرة. يمسحون التراب عن أكفانهم بأصابع متيبّسة، يغتسلون بماء النهر القريب، ثمّ يخترقون حقول القطن وعبّاد الشمس والذرة، في رتلٍ طويلٍ ومائلٍ، قبل أن يحيطوا الصبيّ ضمن دائرة ضيّقة، وهم يطالبونه باستعادة صورهم القديمة. يرفع الصبيّ يده أمام عينيه كي يحجب عنهما وهج الشمس، ثمّ ينهض مغادراً عتبة الباب، وهو يحلم باقتناء كاميرا كتلك التي رآها في أوّل استوديو تصوير في طفولته، ليلتقط لهم صورة جماعيّة.

24

أعلمتني أسمهان مشعل، من دون مقدّمات، بأنّها استقلّت الحافلة صباحاً إلى دمشق، وسوف تصل بعد نحو ساعتين، في حال عدم وجود ازدحام على الحواجز، كما أنّها تحتاج إلى ساعةٍ أخرى لإنجاز أعمالٍ ضروريّة، ثمّ نلتقي في المقهى بحدود الثالثة بعد الظهر. كنتُ في ذلك التوقيت من الظهيرة، أجول بين أرصفة الكتب تحت جسر الرئيس بصحبة صديق قديم، كان يعمل مترجماً، أخاطبه مازحاً بلقب «الترجمان الروسي». فقدَ الترجمان مكتبته، بعد أن هُجِّرَ من بيته في إحدى ضواحي دمشق التي طالها جحيم الحرب، وقد أتى إلى مركز مكتبات الأرصفة، على أمل أن يجد بعضاً من كتبه المفقودة هنا، بعد أن استشرت ظاهرة «التعفيش» بكافة أنواعها. ورغم يقينه بأنّ بيته تعرّض لقذيفة مباشرة، لا يريد أن يصدّق خسارة مكتبته إلى الأبد، فقد أخبره أحد جيرانه ممّن لم يغادروا الحيّ، أن رفوف مكتبته ما تزال في مكانها.

انتظرتُ أسمهان في المقهى نحو ساعة، استهلكتها بقراءة نحو ثلاثين صفحة من كتاب «أفول الأصنام» لنيتشه، كنت قد ابتعته من إحدى بسطات الكتب، إلى أن اقتحمت طاولتي مثل عاصفة.

أعلنت على الفور أنّها لا تستطيع تحمّل الضجيج هنا، فخرجنا من المكان. اتّجهنا إلى شارع الحمراء، ثمَّ إلى سوق الخُضر الذي يتوسّط حيّ الشعلان. ابتعت مختلف أصناف الأعشاب وبعض الخُضر، بناءً على تعليماتها، بعد أن اتفقنا على تحضير وجبة نباتيّة فاخرة، وأكّدتْ بتحدٍّ أنّني سأتحوّل إلى كائن نباتي لمجرّد تذوّق وصفتها الشهيّة. في الطريق إلى بيتي، كانت تشرح لي فوائد الزنجبيل الأخضر، وتتحدّث عن حلمها بالسفر إلى الهند، وزيارة بيت «كاسا كاموتسي»، البيت الذي سكنه هيرمان هيسه، وكتب روايته «سد هارتا» في إحدى غرفه المطلّة على غابات وأودية وجبال ساحرة، مؤكّدة أنّها تحتاج إلى عزلة روحيّة، كي تتكبّد الألم طوعاً، مثلما كان يفعل القدّيسون القدامى. كنتُ أنصت إليها بلا اكتراث، فقد اعتدت مثل هذه النفحات الروحانيّة التي تباغتها فجأة، فسألتها ساخراً:

– وهل ستمارسين الطقوس نفسها التي كان يمارسها هيرمان هيسه؟

– بالطبع. سأغيب في التأمّل العميق إلى أن أجد ذاتي، وسأتعلّم الرسم أيضاً.

– وهل ستستلقين عاريةً في الشرفة تحت أشعّة الشمس، كما كان هيرمان هيسه يفعل؟

– تبّاً لك. قالت عبارتها الأثيرة التي تكرّرها، عندما لا يعجبها ما أقول.

– ولكن هذا ما كان يفعله هيرمان هيسه حقاً.

– هذا ليس شأنك. فكّر في وجبة الهندباء التي سأطهوها لك بطريقتي الخاصّة. ستندم، لأنّك لم تتعرّف إليّ قبل خمس سنوات. كانت مكالمة يتيمة لم تتكرّر. لا أشكّ في أنّك كنت مشغولاً

بأخريات. هل لديك زيت ذرة؟ أين وقعت القذيفة، في هذا الشارع أم في الشارع المجاور؟

كانت لديها طريقة غريبة في الكلام. جمل غير مترابطة، وأفكار جنونيّة، وشجن مباغت، ومشاغبات ملغّزة. أعيد سبب ارتباكاتها وأفعالها الطائشة إلى العزلة، فيوم واحد في دمشق، لا يكفي لإفراغ شحنة البطّاريّة.

وقوفها عند ناصية فندق البرج الأزرق، واقتناص الآيباد من الحقيبة كي تقرأ لي ما كتبته أثناء وجودها في الحافلة، أمر لا يستدعي الغرابة بالنسبة لها. ما هو مستهجن جدّاً كان ألّا أبدي اهتماماً بعبارة خارقة مثل «دكاكين العطّارين تعجز عن مزج رائحتك في وصفة واحدة» كتبتها خلال رحلتها القصيرة، لحظة هبوب رائحة صنوبر من النافذة المفتوحة للحافلة.

ونحن نصعد الدرج إلى بيتي محمّلين بأكياس الخُضر، أيقنتُ أنّ التي تثرثر الآن خلفي بهرطقات روحانيّة، هي أسمهان مشعل، وينبغي أن أوقظ آمال ناجي من غيبوبتها. فور دخولها الصالة سألتني عن المطبخ، فأشرت لها نحو الباب، ثمّ أحضرتُ لها كأساً من النبيذ، بناءً على طلبها، ووضعته أمامها على رخام المجلى. طلبتْ أيضاً أن أضع موسيقى مناسبة كي يتحسّن مزاج الهندباء أثناء الطبخ. اخترت أسطوانة للباكستاني نصرت فتح علي خان فوافقت مزاجها الهوائيّ المضطرب. حين خرجتْ من المطبخ إلى الصالة، كانت تحمل كأس النبيذ بيدها، وهي تقوم بحركة دائريّة راقصة تواكب إيقاع الموسيقى، فانضممت إليها. لففت خصرها وضممتها نحوي، فابتعدت لتكمل رقصتها منفردة باتّجاه المطبخ بقصد الاطمئنان على بهجة الهندباء فوق النار، وتحضير طبق السَلَطة بمزيج فوضويّ من النباتات والأعشاب والتوابل. رويت لها في هذه الأثناء حكاية، كنت

متأكّداً من أنّها ستروقها، عن قبيلة بدويّة لم يذهب أحد من أبنائها يوماً، إلى عيادة طبيب، فقد قرّر أحد حكماء القبيلة أن يقتفي أثر قطعان الغزلان في البادية، ويلتقط النباتات التي تأكل منها، ويعاف ما تعافه، ثمّ يغلي خليط النباتات التي جمعها خلال رحلته، في وعاءٍ واحد. جرّب هذا الإكسير السحريّ على نفسه أوّلاً، فأحسّ بحيويّة مفاجئة في جسمه، ورشاقة في حركته، ثمّ جرّبه على مرضى قبيلته، فكانوا يُشفَون من أمراضهم بعد أيّامٍ فقط.

(سوف أستثمر الحكاية نفسها، أمام متدرّبي ورشة كتابة السيناريو، ولكن لتأكيد ضرورة الابتعاد عن النباتات السامّة في حقول النص، وضرورة أن نتمتّع برشاقة الغزال في الانتقال من لقطةٍ إلى أخرى، لا بثقل حركة الفيل، أو طول عنق الزرافة).

كانت الساعة تقارب السابعة مساءً، حين قرّرت أسمهان الذهاب إلى جرمانا لقضاء الليلة في بيت صديقتها المصوّرة الفوتوغرافية جمانة سلّوم. استلَّتْ من مكتبتي ثلاثة دواوين شعريّة على سبيل الاستعارة، ثمّ قلّبت بفوضى بعض الكتب المتراكمة حول السرير، ثمّ اتّكأت برأسها على المخدّة وأغمضت عينيها وهي تقول «أعرني وسادتك كي أنجو من الكوابيس». لم أجد تبريراً مقنعاً لفشلي في إرضائها. كنّا في حمّى معانقات، وملامسات خشنة، واختبار تضاريس غير مكتشفة، وروائح، ولهاث. كنت ألعق أذنها مروراً بشامة عنقها، أهمس باسمها، حين عبر بغتةً طيف نارنج. نارنج بأذن تسيل منها الدماء فتملأ فمي. أحسست بطعمٍ آخر لجلدها. ارتخت أعضائي دفعة واحدة، تيبّست أصابعي الغارقة في شعرها. انتفضتُ مثل طائر سنونو ارتطم بزجاج سيّارة مسرعة، ووقع أرضاً، لتدهسه السيّارة التي تليها. استلقيت على ظهري إلى جانبها. أدارت رأسي نحوها ونظرت

بحدّة «ما بك؟». أجبتها «لا أستطيع أن أكمل». ثمّ نهضتُ خارجاً إلى الصالة. كنتُ أدخّن بصمت. التحقت أسمهان بي، وضمّتني إلى صدرها بحنان أمّ خسر ابنها معركة، لكنّه لم يخسر الحرب.

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

25

هل كان عليّ أن أشرح لها أسبابي؟ لم أكن في مزاج الخضوع لاستجواب من نوع: من هي نارنج عبد الحميد، وما علاقتك بها، وهل حدّثتها عنّي؟ ذلك لعلمي مقدار حذرها من معرفة الآخرين وجود علاقة مكشوفة بيننا، وتالياً فهي كانت تناور في منطقة سريّة، سبق أن اتّفقنا ضمناً على تسميتها منطقة الاشتهاءات المتبادلة، نظراً لتفكيرها في السفر أوّلاً، وعدم رغبتها في تكرار فكرة الزواج مرّة أخرى ثانياً. وفي المقابل لم أكن راغباً في قطيعة تامّة معها. قلتُ لنفسي، وأنا أتلقّى رسالتها الأولى على الفايسبوك، بعد عودتها إلى قريتها، ينبغي أن أحافظ على خطّ تماسّ بيني وبينها، من دون اشتباكات، فبرّرت فشلي في النوم معها، وهو صحيح إلى حدّ ما، بأنّني لم أستطع إزاحة صورة الشابّة الإيزيديّة بهار مراد التي اختطفتها كتيبة إسلاميّة متشدّدة خلال غزوها قريتها في سنجار، واغتصبها تكفيريّون، ثلاثين مرّة في يومٍ واحد، بتأثير مشاهدتي فيلماً وثائقياً عنها، وأنّ زيارتها المفاجئة لي أتت في توقيت عاطفي سيّئ لا يتواءم مع ما أكنّه لها من أشواق وصبوات وتوق، وأنّني بانتظار فرصة أخرى لتضميد رضوض

«السنونو» الذي وقع أرضاً، وتدريبه على طيران الباشق بقوّة هبوب عاصفتها المقبلة.

ستذهب دردشتنا تلك الليلة إلى جهات متضاربة، من دون بوصلة، عن أحوال الخصاء المؤقت، ودرجات العنف، وفخاخ الموت. لكنّ ما سوف أختزنه بألم حقيقي هو ما أوردته خطفاً في نصّ جديد كتبته وأرسلته إليّ. رغم بساطة عبارة مثل «ثقل هشاشتي»، أصابتني في مقتل. الهشاشة التي تداهمنا في أكثر أوقاتنا حميميّة، برغم ندرة مثل هذه الأوقات. هشاشة كائن المصادفة الخائف أمام أهوال فواتير الخسارة والفقدان والجنون، في جغرافيّة الله الشاسعة، وهشاشة الأمل في اجتياز هذا الخندق الطويل للموت.

سوف تدهمني أسئلة من دون إجابات بقصد إزاحة ثقل الندم: ماذا لو نجت نارنج من جلّاديها ووحدتها وخيانة صديقها لها؟ ولماذا لم يعد طيف جدّتها إلى زيارتها في الثامنة من مساء كلّ يوم (هل ماتت الجدّة في هذا التوقيت؟)، وماذا لو أنني تعرّفت إلى أسمهان قبل خمسة أعوام بذكريات وشوارع وانتظارات أكثر شغفاً؟ وهل كان عليّ ألّا أشاهد مئة وسبعة عشر فيلماً على موقع اليوتيوب عن كيفيّة صناعة الموت، والعمائم، والعباءات، وحطام زوارق الغرقى، وتعليب الموتى في ثلّاجات الدجاج لبيع الأعضاء، وكيفيّة صناعة السيوف، والفتاوى الشرعية، والصواريخ المتطوّرة، في مصنعٍ واحد؟

قلت لنارنج ونحن نشاهد معاً، أفلاماً قصيرة عن أنواع موتنا في الألفيّة الثالثة «كيف لقلب مزارع زيتون من شمال حلب، أن ينبض في صدر تاجر أسلحة في بروكسل مثلاً، وكيف لتمثال صقله إزميل نحّات سوري قبل ألفي عام، أن يحيا في صقيع الشمال، وكيف لعجوز بدوي أن يفسّر لموظفة الهجرة حنينه إلى بيته الطينيّ الذي قصفته الطائرات في غارة جوّية؟». أجابت بأسى وهي تلفّ سيجارة من كيس

تبعها «أنا أحاول تنظيف أذنيّ من إهانات المحقّق، وأنت تحاول أن تنظّف عينيك من المذابح. كلانا خاسران».

ناولتني السيجارة، ولفّت أخرى مباشرة، سَحبتْ مجّة طويلة، ثمّ قالت:

– كأنّ كلّ ما يحدث هنا هو قنابل ذكيّة وعقول متوحّشة لابتكار مشهديّات مفزعة. مشهديّات لا يمكن تجريفها بمجرّد نبش أحشائها على الملأ.

– هناك فايروس غير مرئي يتسلل إلى أرواحنا ويفتك بخلايانا على مهل، فيما ننظر إليه بوصفه نوبة زكام عابرة. فايروس مصنوع من زرنيخ البغضاء، وماء الضغينة، وحليب الكراهية.

كنت أحاول أن أسحبها إلى بساطٍ آخر، فمنذ أن أودعتني بعضاً من يوميّاتها على الفلاش ميموري، لم أجد فرصة لمناقشتها في ما كتبتْ، وعلى ماذا تعوّل في مكاشفاتها المكتوبة، خصوصاً ما هو شخصيّ منها. كان بإمكانها أن تطلعني على محاولاتها في كتابة السيناريوهات فقط، أمّا أن تقفز السور مباشرة إلى ما هو أبعد من النصيحة في أمور مهنيّة صرفة، فذلك ما يثير الريبة قليلاً.

– أعجبتني يوميّاتك. أقصد مهارتك في صوغ الجمل.

– فقط؟

– وكذلك ترتيب الصور الفوتوغرافيّة.

– اخترت بعض يوميّاتي وصوري اعتباطيّاً.

– لاحظت خيطاً ناظماً يجمعها. حيرتك بين الانتقام، واختبار حواسّك في العتمة.

– يجب ألّا يفلت من سبّب لي الأذى، وأصابني بالعطب.

– لن يفلت من العقاب.

– أشكُّ في ذلك.

– «أفضل أنواع الانتقام هو النسيان»، عليك أن تنتقمي من هذا العطب بالانخراط في عمل ما. اسمعي، لديّ فكرة سيناريو كتبتها منذ فترة، وانتهت إلى أحد الملفّات المؤجّلة، ما رأيك في تنفيذها؟ الأمر لا يحتاج إلى أكثر من كاميرا. وأظنّ أنّ لديك واحدة منها. انشغالك بمشروع فيلم سيخرجك من هذا الجحيم مؤقتاً.

– هذا ما أحتاج إليه فعلاً.

– سأفتّش عن الملفّ، وأرسله إلى بريدك الإلكتروني الليلة.

– شكراً لأنّك تمنحني بعض السعادة. قالتها وهي تنهض.

– ما زالت تمطر في الخارج.

أخرجت مظلّة من حقيبتها، وقالت بغبطة: لا يهم.

عند الباب قلت لها مودّعاً بحكمة مستعارة «تعلّمي أن تسيري تحت المطر، من دون مظلّة، الملائكة ستحرسك»، فأعادتها إلى حقيبتها مباشرة وخرجت.

26

كنت قد تعرّفت إلى حارس مسرح القبّاني عن قرب، أثناء تردّدي إلى بروفات مسرحيّة لأحد أصدقائي في صالة هذا المسرح، كنوعٍ آخر من مقاومة الضجر. كان سميح عطا أرشيفاً حيّاً لكلّ العروض التي شهدتها هذه الخشبة طوال أربعة عقود، ولفرط شغفه بالمسرح، كان يحفظ مقاطع من بروفات العروض في خلطة عجائبيّة من الشخصيّات.

بعد عناء وجدت النصّ الأوليّ للمشروع في ملفّ عشوائي يضمّ أفكاراً لمشاريع مجهضة، فأرسلته على الفور إلى بريد نارنج الإلكتروني، وها أنذا أستعيد قراءته كما هو مكتوب في نسخته الأولى:

«ما الذي يفعله سميح عطا، حارس مسرح القبّاني في وحدته، بعد أن فقد بيته في الضواحي خلال موجة قصف عنيفة؟ منذ سنتين وسبعة أشهر لجأ إلى المسرح. اختار ركناً من غرفة الملابس مكاناً لنومه. هل يصعد إلى الخشبة ليلاً بمفرده، ويستعيد أدواراً أدّاها الآخرون، أم يخرج عن النصّ ويبتكر حوارات جديدة لتبرير عزلته القسريّة؟ وهل يجلس على كرسيّ «الملك لير»، أم يستعير شخصيّات تشيخوف في وصف الألم البشري، أم يصعد الدرج إلى بوّابة المسرح كي يتنفّس هواءً آخر عابراً بمحاذاة صورة أبي خليل القبّاني؟

الحارس الذي أمضى حياته في هذا المكان يحفظ مقاطع كاملة من المسرحيّات التي حطّت على الخشبة. لكنّني أظنُّ أنّه خلال بروفاته الليليّة المرتجلة قد عبث بالنصوص وخلط الأوراق، فتداخلت أصوات أوفيليا وهاملت والخال فانيا، وانزلقت بين الكراسي الفارغة. ولعلّه استعاد شيئاً من «قصّة موت معلن» لماركيز كي يروي قصّة موته الشخصي البطيء.

سوف ينظّف الخشبة من خطوات الممثّلين، ويرتدي ثيابهم وأكسسواراتهم وصراخهم، وينشئ نصّاً مختلفاً في الضوء الشحيح للمسرح بفصحى مرتبكة وحنجرة مجروحة وأصابع متشنّجة، فوق خشبة مهجورة.

لا نعلم ماذا يفعل بعد أن يؤدّي «أدواره». هل سيصفّق لنفسه، وينصت للصدى، أم يتذكّر بيته المهدّم، ويعيد بناءه، كما لو أنّه خشبة مسرح أخرى، ويدعو ضيوفاً وهميّين لحضور بروفاته الليليّة؟ أفكّر في حارس مسرح القباني وهو يضع إبريق الشاي أمام بوّابة المسرح مساءً، وينتظر العابرين، متجاهلاً أنّ مدخل الشارع الذي يقود إلى المسرح مغلق بكتل ضخمة من الكونكريت. سيحمل إبريق الشاي في ليل القذائف ويدخل إلى عتمة المكان، ويختلط بأشباح شخصيّات كانت تملأ فضاء الخشبة بالحبّ والاحتجاجات والغضب. سوف يلقي التحيّة على صور الممثلين داخل ملصقات العروض القديمة التي يحتشد بها الممرّ الطويل إلى الخشبة، ويمضي إلى ارتجالات جديدة مازجاً الأدوار في مونولوج واحد طويل، يختزل مأساته الشخصيّة».

فُتنت نارنج بالفكرة، حسب ما كتبته لي في ردّها على بريدي، وبدأت فعلاً برسم سينوغرافيا متخيّلة للشريط تتّكئ على معرفتها الشخصيّة بسميح عطا وبروح المكان «غداً سأذهب إلى المسرح

لمقابلة الحارس، وإقناعه بأن يقف أمام الكاميرا، ليروي سيرته كاملةً. ملاحظة: سأخبرك بنتيجة استطلاعي فور إنهائي عملي. هل ألتقيك في المقهى ظهراً، أم في البيت مساءً؟».

النسخة الثانية التي أنجزتها نارنج بمساعدة زملاء لها في الورشة من المشروع بعنوان «رسائل الحارس إلى أبي خليل القبّاني» تكشّفت عن وقائع جديدة تتعلّق بشغف سميح عطا بالمسرح واعترافه بأنّه كان يعوّض خسائره كمدير منصّة، ومنفذ ديكور، وكومبارس صامت، بصعوده الخشبة ليلاً لأداء أدوار كان يحلم بتجسيدها فعلاً. خلال وجوده وحيداً على الخشبة يستعيد محطّات من حياته الشخصيّة، وكأنّ العبارات التي ينطق بها من نصوص الآخرين تعبّر عن همومه أو ذائقته الجماليّة، وتطلّعاته نحو حياة لم يعشها، كما كان يبغي، إذ يجد في مخاطبة رائد المسرح السوري أبي خليل القبّاني عزاءً روحيّاً يخفّف من وحدته ووحشته الليليّة. في الحوار الذي سجّلته نارنج مع الحارس أخبرها بأنّه كان يعمل في ورشة دهان لدى متعهّد، وكان قد وقع الاختيار على هذه الورشة لطلي جدران المسرح، لكنّه بانتهاء العمل، تمكّن من الحصول على وظيفة حارس، ثمّ عاملاً في البوفيه، وهو ما طوّر علاقته بأهل المسرح عن طريق حضوره البروفات على سبيل التسلية أولاً، لكنّ شغفه بهذا العالم العجائبي لم يقف عند هذا الحدّ، إذ بدأت تتسرّب إلى أذنيه عبارات ذات رنين، لم يسمعها قبلاً، وسيذكر أوّلاً، مقطعاً من مسرحية «العنبر رقم 6» لأنطون تشيخوف، وآخر من «عرس الدم» للوركا، ثمّ يتوقّف عند «الملك لير» لشكسبير. يعترف سميح عطا بأنّه حين كان يوزّع ملصقات العروض في الشوارع، كان يتخيّل اسمه مكتوباً بخطٍ عريض بدلاً من اسم ممثّل العرض، ولطالما حمل باقات الورود بعد انتهاء عرضٍ ما إلى بيته مدّعياً أمام زوجته أنّ إدارة المسرح كرّمته

على الخشبة مع بقيّة فريق المسرحية «أنا الذي لم يهدِ لي أحد وردة في حياتي كلّها». وسوف يدخل في تراجيديا حياته الشخصيّة، حين عاد ذات يوم إلى بيته ليجده وقد تحوّل إلى أنقاض إثر اشتباكات عنيفة شهدتها مدينة داريّا المتاخمة لدمشق، وقد ذهبت زوجته ضحيّة القصف، فاضطرّ إلى أن يلجأ إلى المسرح ويصوغ حياةً متخيّلة فوق خشبة مهجورة. في تسجيلات لاحقة سوف يضيء مناطق معتمة أخرى تتعلّق بمناماته، وكيف داهمه كابوس عنيف، إذ رأى ابنه الذي انتهى مهاجراً إلى الدنمارك يغرق بعد انقلاب القارب في البحر، لينتشله أبو خليل القبّاني الذي ظهر فجأة من بين الأمواج المتلاطمة «كلما استمعت بالمصادفة إلى أغنية يا مال الشام يا الله يا مالي، الأغنية التي كتبها ولحّنها هذا المعلّم، أستعيد ذلك المنام».

كانت نارنج سعيدة بغنى المادة الأوليّة التي منحها إيّاها سميح عطا، واستعداده لتصوير وثائقي عن حياته، فهو الآخر كان بحاجة لمكاشفة الآخرين بما يكابده في وحدته بين جدران المسرح. سأقع خلال استماعي للتسجيلات على عبارات عميقة ومدهشة وردت في اعترافاته المرتجلة كهذه العبارة «أعظم مشحاف لا يستطيع محو ذكرياتي عن هذه الجدران». اقترحت أن يبدأ المشهد الأول بهذه العبارة، ثمّ يغوص سميح عطا تدريجاً في استعادة ذكرياته الأولى عن هذا المكان، وصولاً إلى لحظته الراهنة. طوال فترة التحضيرات للفيلم، لم تتوقف نارنج عن تزويدي بأسرار جديدة من مخزون الحارس، وهو ما أضفى حيويّة على سلوكها الشخصي، فقد استبدلت غطاء رأسها بقبّعة مخطّطة من الصوف تخفي أذنيها تماماً، كما بدت عيناها أكثر اتّساعاً بخطّ كحل ناعم يحيط برمشيها، وفيزون أسود ضيّق يكشف عن ساقين ممشوقتين بإغواء معلن. أخبرتني بأنّ الحارس وافق على

أداء مشاهد قصيرة على الخشبة، مثلما كان يفعل في لياليه الموحشة، وهي بحسب تسلسلها:

«حياة لعينة، والمصيبة أنّها لن تنتهي بمكافأة على الآلام أو بمشهد ختامي كما في الأوبرا، بل بالموت» (من العنبر رقم 6 – أنطون تشيخوف).

«كم مرّة هزمتنا الخيانة... دون قتال» (من الملك لير – وليم شيكسبير).

«أمّا أنا فسأعمل من رقادي حمامةً باردةً من العاج تحمل أزهار الكاميليا النديّة إلى المقبرة. المقبرة؟! لا بل مثوى من تراب يحميهم ويهدهدهم في السماء... أبعدي يديك عن وجهي، فإنّ أيّاماً رهيبة ستأتي. وأنا لا أريد أن أرى أحداً. فقط الأرض وأنا. دموعي وأنا. وهذه الجدران الأربعة» (من عرس الدم – فريدريكو غارسيا لوركا).

لاحظت أنّ كلّ المقاطع التي اختارها سميح عطا بوصفها تاريخاً شخصيّاً له، كانت من مسرحيّات أجنبيّة مترجمة، في غياب أيّ إشارة إلى نصوص عربيّة، وهو ما وعدتني نارنج بترميمه قبل التصوير، وذلك بتحريضه على استذكار عرضٍ محلّي ما حفر عميقاً في ذاكرته. بعد حيرة طويلة اختار شخصيّة الحكواتي مبرّراً ذلك بقدرته على استدعاء شخصيّات شعبيّة مثل عنترة، وأبي زيد الهلالي، وسيف بن ذي يزن، كما أنه رغب في توجيه تحيّة لرشيد الحلّاق، آخر حكواتيّة دمشق الذي مات قهراً، إثر حرق كتبه القديمة على يد جماعة تكفيريّة دهمت بيته في إحدى قرى غوطة دمشق. أعجبتني فكرته. قلت لنارنج «بموت الحكواتي نغلق القوس على انطفاء الحكاية بين زمني أبي خليل القبّاني والحكواتي، فقد لقيَ أبو خليل القبّاني مصيراً مشابهاً، حين أحرق الدهماء مسرحه، فاضطرّ إلى الهجرة من دمشق إلى القاهرة».

واجه السيناريو خلال مرحلة التحضير هزّات متتالية، نظراً لتضارب الآراء في الورشة، فبعد الاتفاق على تصوير سميح عطا بين أطلال بيت أبي خليل القبّاني الذي تحوّل إلى مكبٍّ للقمامة بدلاً من أن يكون متحفاً، طبقاً لوعود رسميّة متكرّرة، ثمّ الانتقال إلى المسرح، فضّلت نارنج عبد الحميد التصوير في المسرح فقط، بقصد تأكيد فكرة اللجوء والعزلة والوحشة.

على غرار ما يفعله في العادة، مساء كلّ يوم، أحضر سميح عطا إبريقاً من الشاي وجلس أمام واجهة المسرح يتأمّل حركة الشارع شبه المهجور. تذكّر بائع الورد المواجه للمسرح الذي أغلق محلّه بعد أشهر من اندلاع موجة العنف وهاجر إلى السويد، كما استعاد صورة ندى وهي ترفع ثوبها إلى ما فوق ركبتيها أثناء شطف درج البناية المقابلة، صبيحة كلّ يوم سبت، واضطراب ركبتيه وهو يعترف لها برغبته في الزواج بها، إثر نظرات متبادلة بينهما، وملامسات عجلى، في مدخل البناية، أو في الميكروباص، فهما كانا يسلكان خطّ سير واحداً إلى إحدى الضواحي العشوائيّة عند تخوم دمشق «أهديت لها ورداً لم يكن لي، لكنّني أشعر بندمٍ لا يُغتفر لأنّني لم أدعُها مرّة واحدة لحضور عرضٍ مسرحيّ طوال حياتنا معاً، كما لم أتمكّن من زيارة قبرها لصعوبة الوصول إليه». ارتبك سميح عطا خلال التصوير. طلاقته الشفويّة لم تسعفه أمام العدسة، فكان لا بدّ من إعادة تصوير اللقطة أكثر من مرّة. كان المشهد ينتهي بدويّ قذيفة قريباً من المكان، فيضطرّ إلى حمل إبريق الشاي واللجوء إلى الداخل. اختفى في غرفة الملابس، وحين خرج بعد دقائق كان يرتدي أغرب زيّ في العالم. عمامة ابن خلدون التي استعارها من مسرحيّة «منمنمات تاريخيّة»، وذقن «طرطوف» من مسرحيّة موليير، ومعطف وجزمة الجنرال من مسرحيّة «العائلة توت». لم يبرّر هذه الخلطة العجائبيّة من الأزياء،

لكنّه أوضح أنّ هذه الشخصيّات تركت وجعاً لا يُنسى في روحه. وقف حائراً على الخشبة، فيما كانت الكاميرا تدور. مرّت دقائق من دون أن ينطق بكلمة واحدة. تبخّرت محفوظاته فجأة مثل تلميذٍ مضطرب في امتحان. تلاشت الكلمات في صمت الصالة. كانت عيناه معلّقتين بصورة أبي خليل القبّاني المثبّتة في عمق الخشبة، وبدا كأنّه يستنجد به في استعادة ما كان يردّده بطلاقة أمامه في ليالي وحدته الموحشة. خَلَعَ عمامة ابن خلدون، وذقن طرطوف. مشى بضع خطوات ثقيلة بجزمة الجنرال ومعطفه، وحين يئس تماماً من استعادة النطق، استند إلى الجدار، تحت صورة أبي خليل القبّاني مباشرةً، وجثا على ركبتيه، وكأنّه في صلاة.

خرجنا من المسرح على أن نعود مرّة ثانية. كانت نارنج غارقة في خيبتها، وهي ترى فشل حلمها في تحقيق فيلم. قلت لها ونحن نجلس إلى طاولة في ركن من مقهى الروضة «لكلّ منّا بروفته الأولى المحكومة بالفشل غالباً، أمّا سميح عطا، فلشدّة شغفه بشخصيّاته المفضّلة أضاع بوصلته، ثمّ هناك سبب آخر، فهو لم يستطع ترميم المسافة بين لغة فصحى لا تشبهه، وعاميّة يفكّر فيها. عليك تكرار التجربة معه».

بقصد تخفيف توتّرها، صرفنا الجلسة بإنشاء مقارنات مسلّية في لعبة أضداد لغويّة، كأن نفسّر كلمة ما بعكس معناها الشائع. أن نطلب زيت الخروع، ونعني به القهوة مثلاً، وأن تذهب عبارة «أنا أكرهك» إلى باب «أنا أحبك»، وأن تعني كلمة «رعاع» صنفاً من النبالة، أو أن تكون الحرب نوعاً من الثمار الاستوائيّة.

اختراق صوت مؤذّن الجامع ضجيج المقهى، استدعى أفكاراً أخرى، تتعلّق بقوّة حضور صوت خطيب صلاة الجمعة في الأذهان المغلقة، وذلك بقصد تفكيك صورة هذا الكائن البلاغي الذي يستمدّ

هيبته من سطوة اللغة المقدّسة والمستعارة من بطون كتب قديمة، لا من دمغة شخصيّة ابتكرها بنفسه، بالإضافة إلى إرشادات مكتوبة من جهات أمنيّة متخصّصة بنوعيّة التوابل المفضّلة. وزيادة في إثارة جرعة الخشوع، وربّما إثارة الفزع، فهو يتكلّم بصوتٍ مرتفع مصحوبٍ بتهديدات مؤجّلة تنتظر من لا يكترث بما يقوله، في العالم الآخر، وإذا الفوز بالجنّة مهمّة عسيرة على ضعيفي الإيمان. لكنّه بمجرّد خروجه من باب الجامع يخلع جبّة اللغة الكرنفاليّة، ويستعيد لهجته العامّية في تصريف شؤونه اليوميّة العاديّة مستبدلاً فضائل «صحيح البخاري» بشراء العدس، أو تسديد فاتورة الكهرباء، أو تصليح صنبور ماء معطّل، أو إنجاز صفقة مشبوهة. ما حصل لسميح عطا لا يختلف كثيراً عن هذا المثال، فالمعضلة لغويّة في المقام الأوّل، ما يؤدّي إلى حادثة تصادم بين قطارين نتيجة فرق التوقيت بانطلاق أحدهما وتعثّر الثاني، وإلّا لما كنّا بحاجة إلى مدقّقين لغويّين في دور النشر، والصحف، ونشرات الأخبار، والمسلسلات التلفزيونيّة التاريخيّة، وتالياً، فإنّ كلّ ما نقوم به هو بروفات متواصلة على ردم الحفر بين نمطين من التفكير نادراً ما يلتقيان على سكّةٍ واحدة.

أحسّت نارنج ببعض الاطمئنان إلى مصير فيلمها، وأنّ بروفات إضافيّة سيجريها سميح عطا كفيلة بترميم «العطب اللغوي» الذي أصابه، وكانت فكرتها أن تبدأ تصوير الشريط بالمقلوب. الحكواتي بلغته السهلة أولاً، والإنهاء بمقطع من شكسبير، أو لوركا، أو تشيخوف «هكذا سيكون قد اعتاد الوقوف أمام الكاميرا على نحوٍ أفضل، واستعاد ثقته بنفسه».

لم تكن لديّ رغبة في العودة إلى بيتي، بعد ذهاب نارنج، فكلّما سعيت إلى معالجة ضجري باختراع أوقات مبهجة، أرتطمُ بأسباب اليأس والضيق والأذى. نشرة أخبار واحدة تطيح ارتفاع

منسوب الأمل على الفور، لتعيد المؤشّر إلى درجة الصفر. الرسّام الذي كان يشرح على الشاشة مشروعه في تجميل حطام البيوت المهدّمة بجداريّات ضخمة، زادني سخطاً، فقد كان هذا الأبله يرغب في أن يمحو عن الجدران آثار الضحايا بالفرشاة والأكريليك، متجاهلاً عدم توقّف مطحنة القتل عن إزهاق عشرات الأرواح يوميّاً، كما لم ينسَ مديح «جماليّات الحاجز» عن طريق طلي القضبان وإطارات السيّارات وكتل الكونكريت بألوان العلم الوطني. إغماض العينين عن أكثر الندوب ألماً، هل سيمحو أصوات الضحايا حقاً؟ وما الذي سيقوله سميح عطا مثلاً، وهو يشاهد هذه الجداريّة، على بعد أمتار من حطام بيته؟ هل يستعير كرسيّ الحكواتي ويقول «وهكذا انتهت الحكاية يا سادة يا كرام»؟

كان رشيد حلّاق حكواتي مقهى النوفرة قد أدرك بعد حرق كتبه أنّه أعزل، وأنّ سيف الزير سالم من خشب، لا يصلح لضرب «أربعين رأساً إلى اليمين ومثلها إلى اليسار»، ولا لشقّ رأس الخصم إلى نصفين، إلّا في حكاياته المتخيّلة، فمات بصمت، على عكس سميح عطا، فهو لم يخذل كاميرا نارنج عبد الحميد هذه المرّة. كان بارعاً في أداء دور الحكواتي، وقد أنقذ أبطال حكايته من فخاخ الخصوم بمهارة واضحة، من دون أن يتعثّر بجملةٍ واحدة. كانت نارنج سعيدة بما أنجزته، إذ حرّرت سميح عطا جزئيّاً من تلعثمه وارتباكاته وخوفه، لكنّها في المقابل أبدت خشيتها من عدم قدرته على تجسيد بقيّة الشخصيّات بالقوّة نفسها التي كانت للحكواتي. كنت واثقاً من خذلانه لها، أقلّه في البروفات الأوليّة للتصوير، لقناعتي بأنّه لن يجد نفسه في عنبر تشيخوف، أو في ثياب الملك لير وتاجه، بوجود كاميرا وإضاءة وتعليمات. نجح في حفظ تلك المقاطع كي يردّدها في وحدته بقصد تبديد الوحشة، والعيش في أحلام يقظة تضعه عند عتبة حياة

أخرى لا تشبه حياته كحارس أو ككومبارس، لذلك كان الحكواتي أقرب إليه بطربوشه وشرواله، سواء لجهة اللغة الهجينة المحمولة على فحولة راسخة في المرويّات الشفوية، أو لجهة الشغف بلذّة الحكاية الشعبيّة، وسهولة التلاعب بمصائر الخصوم، ومتعة الوصف الخارجي، من دون محاكمة الانفعالات الداخليّة للشخصيّات، كما يحدث لدى تشيخوف أو شيكسبير.

27

قِطع الزجاج المكسور المنثورة على الرصيف، إثر وقوع قذيفة عند زاوية شارع الحمراء، عطّلت طريقي المستقيم نحو ساحة النجمة. كانت واجهة محلّ الأزياء الذي يقع في الناصية مكشوفة تماماً، بإمكانك أن تعانق المانيكان من دون حاجز، وأن تلمسَ ثيابها الداخليّة المخرّمة بدانتيل أسود، ورطوبة مطر خفيف، ورائحة شهوات من عبروا الواجهة قبل قليل. كنتُ قد دخّنت سيجارة إضافيّة قبل خروجي من المقهى بانتظار توقّف المطر، ثمّ عرّجتُ على كشك بائع الصحف، لتسلّم حصّتي من الدوريّات الشهريّة. بحساب بسيط لتوقيت سقوط القذيفة، ومغادرة المقهى من دون أن أدخّن السيجارة، أو أتوقّف عند كشك بائع الصحف، كان ينبغي أن أكون في موقع القذيفة أو على مقربة من شظاياها، وفي أحسن الأحوال، ممدّداً داخل سيّارة إسعاف، لكنّني سأنجو هذه المرّة أيضاً، معتبراً ما حدث في الساعة الرابعة إلّا ربعاً، بعد ظهيرة يوم ثلاثاء، مجرّد بروفة موت إضافيّة فاشلة. سأكمل طريقي صعوداً، محاولاً استعادة بروفات موت سابقة، نجوت منها بالمصادفة، طوال السنوات الخمس الماضية. لكنّني، في المقابل، أعيش بروفة حياة، فوتوكوبي حياة. حياة غير ملموسة. حياة عرجاء

بعكّازين. ساعة رمليّة لتصريف الضجر. أوقات مهدورة في أنابيب الصرف الصحّي. لا فرق بين يوم أحد أو أربعاء. لا طعم لشورباء العدس مع الليمون. نبتة الريحان عند إفريز النافذة تتلقّى طعنات المطر بصمت الموتى. كلب الجيران توقّف عن النباح، لم تعد تفزعه أصوات القذائف. ليس لديّ خدمة سكايب لإرضاء المتع الليليّة لفتيات ضالّات يتسكّعنَ على أرصفة الفايسبوك. هناك رائحة عفونة في كلّ الأمكنة، وإعادة تدوير لحياة مصنوعة من بقايا بلاستيك، وعلب مشروبات غازيّة، وفوط نسائيّة مبقّعة بدمٍ جاف، ومعانقات باردة. أقطع الطريق بشكلٍ مائل على طريقة السلطعون، في المسافة الضيّقة بين الحاجز، وممرّ عبور السيّارات. كنت بصدد الذهاب إلى محلّ لبيع الوجبات الجاهزة، قبل أن ألغي الفكرة تماماً. لم تعد لديّ شهيّة للطعام. ساعتي البيولوجيّة معطّلة، و«قلبي ممتلئ بالشظايا». أعبر سوق الشعلان للخُضر والفاكهة، مستعيداً آثار خطوات أسمهان مشعل في زيارتنا المشتركة للسوق، وحركة يديها وهي تقلّب أصناف الحشائش البريّة التي أحضرتها فلّاحة من أماكن بعيدة كي تختار ما يناسبها لإعداد وجبتها العجائبيّة، ورعونة مزاج النبيذ، في إعادة تدوير ثانية للبهجات الخاطفة. لم أكن قلقاً لغيابها. الأرجح أنّها غارقة في نوبة جديدة من نوبات التأمّل والروحانيّات، بتأثير نصاعة ثلج الجنوب الذي يغطّي كلّ الجهات، الثلج الذي أدّى إلى توقّف عمل المواصلات على طريق دمشق، بحسب نشرة أخبار الطقس. في مكالمة ليليّة متأخّرة، قلت لها «أنا أعيش عزلة المطر، وأنت تعيشين عزلة الثلج. أنتظرك بعد ذوبان الجليد». صمتت طويلاً، ثمّ أجابت بصوت متقطّع «لا أريد أن أموت بحادثة سيّارة، كما حدث لأسمهان المغنّية، كما أن الأشواق لا تعمل وفقاً لحالة الطقس، أو حسب فصول السنة، و(الحبّ وقع حوافر لا تهدأ أبداً). بالمناسبة، العبارة الأخيرة

ليست لي، استعرتها من قصيدة لسيلفيا بلاث، لكنّني أؤمن بها كثيراً. لا أعلم ماذا أفعل بحصتي من الثلج في العتمة، بذلك البياض، وتلك العتمة الحالكة في الخارج. ينتابني إحساس يشبه ما حدث في قصّة للأطفال عن غراب استولى على قطعة من الجبن. أخشى أن يقنعني أحد بجمال صوتي، فتقع قطعة الجبن في فم الثعلب الذي يقف تحت الشجرة. أرجوك لا تكن ذلك الثعلب. هذا احتمال يحطّمني تماماً».

28

أقفُ وراء النافذة أتأمّل المطر في العتمة، محاولاً استحضار صورة أسمهان مشعل، وهي تجلس خلف نافذتها تتأمّل الثلج في قريتها الجبليّة، وتقرأ سيلفيا بلاث بلذّة عاشقة، وربّما تنصت إلى إحدى أغنيات أسمهان التي حملت اسمها بناءً على رغبة الأب الذي كان يعشق صوتها بجنون:

«كان والدي عازف عود مغموراً، هجر مهنة التعليم، على أمل أن يقتفي أثر فريد الأطرش في مهارة العزف على العود، وأن يتفوّق على محمّد القصبجي في لحن أغنية «يا طيور» التي لحّنها لأسمهان قبل حادثة موتها الغامض بقليل. الأقدار التي حملته إلى قرية عرى، على طريق بصرى الشام، كعقوبة مسلكيّة بسبب شبهة انتسابه إلى حزب محظور، قذفت به من دمشق إلى الجنوب بصحبة امرأة حامل في أواخر شهرها التاسع، وحقيبتين، وعود مصنوع من خشب الجوز المحروق، لكنّه سيتعامل مع هذه العقوبة لاحقاً على أنّها كانت فألاً حسناً، ففي هذه القرية المعزولة عن العالم وُلدت آمال الأطرش التي عُرفت لاحقاً باسم أسمهان، وسيدهم المخاض أمّي هناك، صبيحة

وصولها إلى القرية، وسأحمل الاسمين معاً. الأوّل في سجّل النفوس، والثاني في البيت، إلى أن طغى الاسم الثاني تماماً.

رحل والـدي بسبب نوبة قلبيّة، من دون أن يحقّق أحلامه كعازف عود مشهور، لكنّه أورثني أرشيفاً غنيّاً من أسطوانات الزمن الذهبي للموسيقى العربيّة التي كان يحضرها من دمشق وبيروت والقاهرة بمراسلات شاقّة، وآلة غرامافون نادرة، وثلاثة وخمسين عدداً من مجلّة «الكواكب» المصريّة التي كانت تصل بالبريد الجوّي من القاهرة، وقد حملت بعض أغلفتها صوراً لأسمهان، بالإضافة إلى كتب تناولت سيرتها والشائعات التي أحاطت حياتها الغامضة، ولغز موتها، ولفرط تعلّقي بما كُتب عن سيرتها، كنت أبحرُ في تلك الباخرة التي وُلدتْ فيها خلال رحلة عائلتها من أزمير إلى بيروت، بعينين خضراوين وصوت ملائكي، ومصيرٍ غامضٍ، حتى إنني فكّرتُ في الانتحار مثلما فعلت هي يوماً. أعترف بأنني لم أكن أملك صوتاً أوبرالياً مثل صوتها، لكنّني جرّبت الغناء في بعض الحفلات الخاصّة (سأسمعك صوتي ذات يوم. اطمئنّ، ليس صوتي قبيحاً تماماً). علّمتني أسمهان معنى التمرّد، لذلك لم أتردّد في الطلاق بمجرّد اكتشافي عطراً نسائيّاً غريباً يهبُّ من ملاءة سريري، ولم أندم لحظة واحدة على قراري. لاحقاً، سأكتشف كتاباً لفاطمة المرنيسي تحكي فيه عن شخصيّة أسمهان بوصفها أيقونة للأنوثة الطاغية والجسارة في مواجهة التقاليد الصارمة في مجتمع بطريركي مغلق على أوهامه. كان عنوان الكتاب «نساء على أجنحة الحلم»، وكانت سيرة أسمهان – بالنسبة لي – جرعة إضافيّة في المغامرة، والتوق إلى الطيران. الآن أنا أنثى محطّمة، تعيش في قرية شبه مهجورة، مثل طائر مسالم خرّب عشّه الأشرار، يحاول لملمة حطام البيوض المكسورة. ربّما كانت هذه حصّتي من الحرب، حتى لو كنت أستمع إلى صوت القذائف من بعيد، أو هدير

الطائرات، أو صور القتلى والمهجّرين. أنا متأكدة من أنّني سأسافر يوماً، إلى بلاد بعيدة لا تشبه هذه البلاد، وأهجر هذه المصحّة العموميّة إلى الأبد، وربما سأكرّر ما فعلته شريفة زهور التي حفظت أغاني أسمهان وظلت تردّدها طوال ستّة عشر عاماً في نادٍ ليلي كانت تعمل به في مدينة كاليفورنيا لتأمين كلفة دراستها الجامعيّة، وإنجاز أطروحتها عن أسمهان. كانت هذه الباحثة الموسيقيّة قد اكتشفت بالمصادفة أُسطوانة لأسمهان في حانوت للموسيقى العربيّة في أحد شوارع كاليفورنيا، ومنذ اللحظة التي استمعت فيها إلى أغنية «يا حبيبي تعالَ الحقني»، شُغِفتْ بالمغنّية المجهولة. وفكّرتْ في أنّها ذات يوم، قد تكتب قصّة حياتها، وقد كَتبتها فعلاً، بعد رحلة طويلة تنقّلت خلالها بين الأماكن التي عبرتها أسمهان، من قرية عرى، إلى دمشق، وبيروت، والقدس، وانتهاءً بالقاهرة. أمّا أنا فقد وُلدتُ في المكان نفسه، ولا أظنّ أنّ ذلك كان مجرّد مصادفة. انتظرْ أسمهان أخرى، أسمهان كلمات. سأكتب بشجاعةِ جنون النبيذ، كمن يغيب في هبوب عاصفة رمليّة، أو حلقة ذكر، أو عراك أعضاء في السرير».

29

«هناك تحسّن طفيف في استجابته للكاميرا»، قالتها نارنج عبد الحميد بنوع من الإحباط، ذلك أنّ سميح عطا، بحسب وصفها، لم يتخلّص من ارتباكه تماماً، رغم إعادة بروفة التصوير أكثر من ثلاث مرّات للّقطة الواحدة. شغفه بعنبر تشيخوف لم ينقذه لحظة الوقوف أمام الكاميرا، فهو، حسب ما قالته نارنج، ونحن خارجان من المعهد، لا يستطيع إتمام جملة واحدة كما ينبغي، وكأنّ اللغة تخونه في منتصف المسافة، فما إن تتوقّف عن التصوير حتّى يستعيد العبارات الهاربة، وستذكر لي عَرَضاً، أنّه أخبرها مناماً غريباً أتاه ليلة أمس. في المنام، كان تشيخوف، بنظارته الطبّية كما تبدو في صوره المعروفة، يجلس مسترخياً، في مقعد يتوسّط الصفّ «جيم» من الصالة، وكان يتكلّم العربيّة بنبرة هادئة، وقد طلب منه أن يضع سريراً إضافيّاً في عنبر المرضى، وأن يتمدّد عليه بانتظار وصول طبيب المصحّة لعلاجه، لكنّه استيقظ عند هذه اللحظة، وهو يرتجف كمن أصابته حمّى. طلبتُ من نارنج إقناع سميح عطا بأن يروي منامه أمام الكاميرا، فمشهد من هذا الطراز يغني الشريط بوقائع حياتيّة أكثر تأثيراً من أقنعة الشخصيّات التي يحاول ارتداءها أمام الآخرين، وفي وحدته.

في زيارتها الثانية لي، أسرّت نارنج، بعد تردّد، بأنّها تسلّلت إلى مستودع الملابس في المسرح أثناء غياب الحارس لتحضير الشاي، وقد لفتت انتباهها طريقة تخزين الثياب في مشاجب معلّقة على أنابيب معدنيّة. ثياب تاريخيّة، وبزّات عسكريّة، وأزياء من القرن التاسع عشر. «في ركنٍ ما، كانت هناك دمية كبيرة بثياب راقصة، وشعر مستعار، وأكسسوارات، ورائحة عطر نفّاذة تفوح من ثيابها، لا أعلم لماذا داهمني إحساس بأن سميح عطا هو من رتّب الأمر على هذه الهيئة، بقصد قضاء حاجته الجنسيّة مع امرأة يتخيّلها، في مكانٍ معتم وسرّي». أجبتها موافقاً «لا أستبعد ذلك، فهذا رجل الظلّ. ربّما يستدعي أخيلة ممثلات، ورائحة ثيابهنّ، وما هو متاح من أجسادهن، خلال تبديل أزيائهن في الكواليس، ثمّ يبتكر عرضه الخاصّ، مستبعداً خطوات الآخرين وأنفاسهم عن الخشبة». بالطبع، يستحيل طرح أسئلة شائكة من هذا القبيل على الحارس، أو المراهنة على اعترافات يدلي بها، عمّا يفكّر فيه أثناء وحدته ليلاً. الألفة وحدها هي من تبني جسراً للبوح أمام الآخر، وهذا ما نصحتُ نارنج به، أن تكسر الحواجز الشخصيّة معه كي يطمئنّ إليها أكثر، وينسى بريق ضوء الكاميرا، أو يتآلف مع الضوء، وكأنّه يحكي مع نفسه. يفتح صندوقه الأسود ويتألّم.

أبدت نارنج شكوكها في تحقيق مثل هذه الألفة مع الحارس بسهولة، رغم أنّها قطعت شوطاً معه في حميميّاته الشخصيّة، لكنّها اعترضت على فكرة نبش الصندوق الأسود «لا أحد لديه الشجاعة على نبش محتويات صندوقه الأسود، فتلك منطقة محظورة محاطة بالألغام، ومهما كنت خبيراً في تفكيك اللغم، فإنّه – في نهاية المطاف – سينفجر بك وحدك». رفعت رأسها ونظرت نحوي بتركيز، وهي تنطق عبارتها الأخيرة، فقد كانت منهمكة في فرش كيس تبغها

على الطاولة، ولفّ سيجارتين ملغومتين، ناولتني اللفافة الأولى وهي تقول «لا تستغرب. الحشيشة نوع من العلاج لما نحن فيه». سحبت مجّة طويلة من سيجارتها ثمّ قالت بثقة: «لا أحد يعلم ما يخبّئه الصندوق الأسود إلّا بعد أن تهوي الطائرة بركّابها، وحتّى هذه اللحظة المفزعة لن تمنحنا أكثر من صراخ المفجوعين واستغاثاتهم، أمّا الشريحة الصغيرة المختبئة في عمق الصندوق فستذهب معنا إلى القبر». أجبتها مبرّراً «أقصد القشرة التي على السطح، أن نحلّ الطلاء عن الصندوق بمكاشفات ما، تضيء بريق الداخل أو عتمته».

كنتُ بصدد تشغيل أسطوانة موسيقيّة، في غرفة المكتب. لحقت بي نارنج إلى الغرفة. ألقت نظرة على فوضى السرير والمكتبة وركام الكتب والصحف والمجلّات على الأرض. قالت وهي ترى ثمرة النارنج على المكتب «نارنجتي ذابلة مثلي»، ثمّ وقفت أمام رفوف المكتبة، تتأمّل عناوينها، ثمّ قالت وهي تتناول كتاباً وتتصفّحه:

– هذه الأفكار نجدها في الروايات والأفلام فقط. أنت كروائي تنبش حكايات الآخرين، تزعزع طمأنينتهم، تعرّي دواخلهم، لكنّك تقف على مسافة من شخصيّات رواياتك، وعندما ترغب في أن تضع فكرة ما تعبّر عن ذاتك، تهديها من دون ألم إلى إحدى شخصيّات الرواية، كي لا تقع في المعصية، أو في دائرة الاتّهام الشخصي.

لم أعهد منها مثل هذه الجرأة قبلاً، في مواجهتي على هذا النحو من النديّة، فتشاغلت بالتفتيش عن أسطوانة مناسبة، وأنا أفكّر في إجابة عن اتّهامها لي.

كانت ما تزال تقف أمام المكتبة تقلّب رفوفها. أخرجت كتاب «علم الأخلاق» لباروخ اسبينوزا، ثمّ قالت بتهكّم «حين كنت أدرس الفلسفة في الجامعة، تحرّش بي أستاذ مادّة الأخلاق، وعندما فقد الأمل من استجابتي لرغباته المحمومة، انتقم منّي بوضع علامة لا

تخوّلني النجاح في المادّة، على أمل استدراجي بطريقة عمليّة. كانت تنقصني تسع درجات. حينها فسّرت الأمر على النحو التالي: تسع درجات صعوداً تساوي إرخاء سروالي نزولاً، بما يساويها في السنتيمتر. قسمة عادلة أليس كذلك؟».

– وماذا حلّ بحفيد اسبينوزا؟

– لا أعلم، لأنّني لم أكمل دراستي.

– بسببه؟

– لأسباب كثيرة، من بينها موت أمّي. الآن، كلّما تسلّمت أجرة البيت الذي ورثته عنها، أدرك أنني صرتُ وحيدة تماماً. كنتُ أرافقها مرّة كلّ شهر إلى حيّ الشيخ محيي الدين لتسلّم الأجرة، كانت تفضّل أن تذهب بنفسها كنوعٍ من النزهة. نعبر مقام ابن عربي، ونشرب ماءً مباركاً من سبيل بقرب الضريح، ونحضر خبز تنّور من فرنٍ هناك. رائحة التوابل لا تزال عابقة في أنفي. بعد غياب أمّي كانت جدّتي تسلّي وحدتي، ماتت هي الأخرى من دون أن أودّعها، ثمّ اقتنيت قطّة كي تسلّي وحدتي.

لوّحتُ لها بأسطوانة، اخترتها من بين ركام الأسطوانات:

– ما رأيك في موسيقى كنان العظمة؟

هزّت رأسها موافقةً، واتّجهت إلى الصالة. وضعتُ الأسطوانة في الكمبيوتر، ورفعت حجم الصوت، ثمّ لحقتُ بها. كانت تفلش تبغها على الطاولة. ناولتني سيجارة، وأكملت عملها لتحضير سيجارة أخرى.

قلت لها من موقع الروائي المُتَّهم:

– كلّ رواية، هي بشكل ما، سيرة مجتزأة، وربّما سيرة مشتهاة لصاحبها، ولكنّها في كلّ الأحوال ليست النسخة الأصليّة. كان فلوبير قد قال مرّة «أنا مدام بوفاري». مأثرة الروائي الجيّد تتمثّل في إقناع قارئه بأنّ ما يقرأه ليست سيرة متخيّلة، بل وقائع شخصيّة دامغة.

– أفكّر في ما فعلته الحرب بنا، وكم من الضحايا غابوا من دون أن يتمكّنَ أحد من كتابة سيرهم الأصليّة أو المشتهاة. في المهجع استمعت إلى حكايات إحدى وأربعين امرأة. كنت أستمع كل يوم إلى حكاية إحداهنّ، وحين خرجت دوّنت بعض هذه الحكايات ونسيت حكايات أخرى. لن أنسى حكاية تلك المرأة التي اختطفوها عند الحدود للتأثير على اعترافات زوجها المعتقل. كانوا يجبرونها، وهي معصوبة العينين، على خلع ثيابها قطعة وراء قطعة أمام نظر زوجها، بقصد الحصول على اعترافات إضافيّة، إلى أن تعرّت تماماً، وحين حاولتْ ستر عورتها بيديها منعوها من ذلك، فيما انهار زوجها وتلاشى بكاؤه دفعة واحدة، ثمّ سمعتْ كلمة واحدة من المحقّق: «فطس». مَن سيدوّن مثل هذا «الستربتيز القسري»، وأيّ عدسة ستعيد هذه المشاهد بمستوى المذلّة التي انتابت هذه الضحيّة، في تلك الساعات الجحيميّة؟

ارتجاف صوتها، وتشنّج حركة يديها، أصاباني بالفزع، كانت كمن تروي حكاية عاشتها بكلّ تفاصيلها. أحطتها بذراعي بقصد تهدئتها، فأسندت رأسها إلى صدري وبدأت تنتحب. ثمّ هدأت قليلاً. تناولت حقيبتها وخرجت، من دون أن تلتفت إلى الوراء.

كانت مثل عربة إسعاف متأخّرة، تجرُّ خلفها عشرات الجثث، قبل أن تودعها ثلّاجة الموتى.

30

أوقفتُ تشغيل الأسطوانة، وفتحتُ النافذة. كنت بحاجة إلى هواءٍ آخر لتبديد حموضة ما روته نارنج. رائحة الألم تهبُّ من الجلد، تلتصق بالمسامّ، وأطراف الأصابع، بجدران الغرفة، بخزائن المطبخ، بمرآة الحمّام، بالماء الذي يسيل نحو المغسلة، أمام الفرن أثناء إعداد قهوة الصباح. جلستُ أمام شاشة الكمبيوتر، برغبة ترميم مشاريع سيناريوهات مضت عليها سنوات، من دون أن تكتمل، وفكرة رواية عشق اختطفتها الحرب عند أوّل حاجز، ولم تعدها لي ثانيةً. كانت مجرّد فكرة غائمة عن رسّامة تستعمل بقايا الأقمشة في بناء لوحاتها، زارتني مرّة واحدة، ذات صباح مبكر من شتاءٍ قديم، وكانت تعدّ القهوة بطريقة خاصّة. تضع البنّ في ركوة القهوة وتحرّكه فوق نار هادئة، ثمّ تضيف الماء. الآن، بعد سبع سنوات على تلك الزيارة، كلّما وقفتُ أمام فرن الغاز لإعداد القهوة صباحاً، أتذكّرها، وكأنها لا تزال تقف في المكان نفسه، برائحة البنّ والهال، متجاهلاً صوت الطائرات، ورائحة البارود، وغيابها. ألفان وخمسمئة وخمسة وخمسون يوماً، يتكرّر المشهد نفسه، عدا مـرّاتٍ نـادرة أكـون فيها بأسوأ أحوال غيبوبتي، من دون أن ألتقط خيطاً واحداً لاقتناص شغف حضورها.

الحبل ينقطع باكراً. تحرن الكلمات مثل حمارٍ يرفض أن يعبر ساقيةً. قلت لنفسي «اللعنة، رواية من هذا النوع تحتاج إلى روائي ياباني من مقام هاروكي موراكامي». هل كان عليّ أن أضيف الوشم الذي نقشته على طرف كتفها اليسرى، الوشم الذي يظهر جزئيّاً على هيئة عنكبوت، وهي تحني رأسها إلى الأمام خلال إعدادها القهوة؟ ولكن ما فائدة نصف وشم على هيئة عنكبوت في تحريك المياه الراكدة للفكرة، ولماذا تجاهلت، أو تناسيت، أو خشيت أن أذكر لحظة أخرى أكثر حرارة في إشعال حطب فكرتي؟ لحظة تتعلّق بآخر مرّة التقيت فيها، قبل سفرها إلى كندا. كانت الساعة نحو التاسعة والربع ليلاً، وقد أغلقت الدكاكين الصغيرة في أحد الأنفاق أبوابها، قبل قليل. في عتمة النفق، تبادلنا قبلة طويلة بعيون مفتوحة، خشية عبور أحد ما النفق فجأة. كانت هذه «الحادثة» آخر ما ربطني بها، بسبب فشل أيّ موعدٍ لاحق بيننا، لأسباب تخصّها أكثر ممّا تخصّني، ثمّ أتى سفرها المفاجئ فأوقف علاقتي بها عند هذا الحدّ. خلال مراجعتي مسوّدة مشروع الرواية، اكتشفت أنّ سبب توقّفي عن إتمامها يتعلّق بالحذر من الانزلاق إلى مناطق خطرة، والحيرة بين استعمال ضمير الغائب، وضمير المتكلّم، في كيفيّة إبحار السفينة، ذلك أنّ هناك فرقاً واضحاً بين أن تقول «كانت تعدّ القهوة على طريقتها الخاصّة في مزج البنّ بالماء، فيما كان «سين» يقف وراءها مباشرة، يتأمّل وشماً على هيئة عنكبوت، نقشته على كتفها اليسرى»، وأن تقول «أتأمّلُ وشماً». في غيابها، بإمكاني أن أستبدل الوشم بنمش، وأن أنزلق إلى ساقية صدرها، وهو ما حدث فعلاً، بعد القهوة مباشرةً، لكنني لسببٍ ما، ربّما هو الحذر أيضاً، اكتفيت في تلك المسوّدة بمراقبتها وهي تعدّ القهوة، كما تجاهلت زيارتي لها في غرفتها لمشاهدة أعمالها الجديدة. أحاول الآن تدوير العجلة إلى الوراء في تمرينات على التذكّر ومقاومة النسيان،

على أمل التقاط بعض حطب تلك العلاقة الخاطفة، ولماذا لم تستمرّ طويلاً؟ ليس سفرها المفاجئ سبباً مقنعاً لانتهاء العلاقة، فذلك حدث بعد نحو سنة، من لقائنا الأول، وتالياً، احتضار المسوّدة في المهد. ربما كان عليّ أن أبدأ من لقائي الأول بها في إحدى حانات باب توما. ألقت التحيّة على صديق كان بصحبتي، ووعدته بأنّها ستنضمّ إلينا بعد قليل، وهو ما فعلته بعد نحو نصف ساعة. في تلك الجلسة تبادلنا أرقام هاتفينا، ثمّ التقينا في مقهى الروضة، وذهبنا في اليوم التالي معاً إلى دار الأوبرا لمشاهدة لوحتها التي شاركت بها في معرضٍ جماعي. كانت الشهوانيّة المضمرة، تمشي على قدمين، لا من جهتي فقط، بل من جهتها أيضاً، لذلك حين واعدتها في الحانة نفسها، بعد نحو ثلاثة أسابيع، لم نحتج إلى وقت طويل لمغادرة الحانة، والذهاب إلى غرفتها التي تبعد نحو زقاقين لا أكثر، بذريعة مشاهدة أعمالها التي أنجزتها أخيراً. فكلانا كان يضع قطعة جبنة بيضاء في المصيدة، وينتظر مبادرة الآخر لالتهامها أوّلاً. ولكن مهلاً، هل سأكتفي بمشاهدة أعمالها المركونة في زاوية الغرفة، واللحاق بها إلى مجلى الرخام الذي يعزل المطبخ عن بقيّة الغرفة، لمساعدتها في تحضير العشاء، وجلب الأطباق إلى الطاولة، ثمّ أخرجُ حاملاً إحدى لوحاتها الصغيرة التي أهدتها لي، بعد أن أبديت شغفي بها، أم أضيف تفاصيل أخرى؟ لم أجد في تلك المسوّدة أيّ إشارة إلى ما حدث لاحقاً. فقط هناك إشارة مبهمة إلى أنّ «سين»، عانق «هاء» عند الباب، وأنّه أحاطها بذراعه اليسرى، فيما كان يتأبّط اللوحة بيده الثانية، وكانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل. ما أهملته عمداً حينذاك، لخشيةٍ ما بالطبع، هو وجود سلّم خشبي يقود إلى عليّة صغيرة تنتهي بنافذة معدنيّة تطلّ على الشارع مباشرةً، وتغطّيها ستارة صغيرة، هي غرفة نومها. فراش من دون سرير بمخدّات ملوّنة حاكتها بيدها، على طريقتها في إنجاز لوحاتها،

وشموع عند الحافة الخشبيّة، وكتب، وأصيص لنبات شوكي. لا شك في أنّني أهدرت تفاصيل كثيرة حدثت أثناء هذه الزيارة وما بعدها. فوجود «سين» إلى ما بعد منتصف الليل في غرفة «هاء»، وصعودهما إلى العليّة، يحتمل شرحاً أطول ممّا كتبته في تلك المسوّدة، ويحتاج إلى تفسير لأسباب فشلي أو عدم حماستي لإتمامها، وكلّ ما أحتاج إليه الآن، هو تزييت عجلة التذكّر لملء الثغرات ما بين السطور. ينبغي أوّلاً، وضع العجلات على السكّة بطريقة صحيحة، وإلّا فستنزلق جانباً عند هبوب أوّل عاصفة. سيطمئنني همنغواي بقوله «لا تقلق، لقد كنت تكتب دوماً من قبل، وستكتب الآن. كلّ ما عليك أن تفعله هو أن تكتب جملة حقيقيّة واحدة. أكتب أصدقَ جملة تعرفها». يا للتهلكة. هل عليّ أن أقول كانت «هاء» شبقة بجنون، وإنّها تشتهي الجنسين باللذّة نفسها، وفقاً لما اعترفت به لي من دون ارتباكات، حين سألتها عن طبيعة علاقتها بصديقتها التي كانت لا تفارقها غالباً؟ لينتحر همنغواي مرّة ثانية، وليذهب إلى الجحيم، لا أريد أن أقشّر البرتقال بيديّ، وأتأمّل اللهب الأزرق للنار في الموقد، كما كان يفعل قبل الشروع في الكتابة. استهوتني فكرة أخرى أقلّ رطانة، لا أعلم مدى صوابها هنا، وذلك بتشبيه المسوّدة بسيّارة معطّلة، على أن أكون الميكانيكيّ الذي يتمدّد تحت المحرّك لإصلاح العطل، ثمّ يخرج مبقّعاً بلطخ الزيت والشحوم، وهو يقول بثقة: أدر المحرّك.

31

فكرة السيّارة المعطّلة والميكانيكي، سوف أطرحها على أعضاء ورشة السيناريو، من دون أن أربطها بوجعٍ شخصي، فخلال مراجعتي لمعظم مشاريع الأفلام، لم أجد أفكاراً مشعّة، فقلت غاضباً «هذه مقبرة سيّارات. هذه خردة معادن صدئة»، ثمّ عرّجت على فكرتي عن ضرورة أن تتلطّخ ثيابهم وأرواحهم بزيت الحياة وشحومها، كي يدور المحرّك باطمئنان. كانت معظم الأفكار التي طرحوها في مشاريعهم مقتبسة عن أفلامٍ أجنبيّة، وبعضها الآخر بالكاد تحمل بذرةً مضيئة. «الأفكار تحتاج إلى تهوية، كي لا تصاب بالتعفّن، وعلينا ألّا نكتفي بالطبقة الأولى للتراب. في الكتابة، علينا أن نشبه الصقر في اختطاف سحليّة آمنة، كانت تغفو قبل قليل على صخرة»، أضفت بما يشبه الحكمة. كنتُ كمن ينتقم لفشله الشخصي في عدم التقاط الجملة الغائبة في مسوّدة روايتي، الجملة التي تفتح الباب لما سوف يليها من وقائع، ودهاليز ومتاهات. حكّ سمير عمّار ذقنه، وبدا أنّه استيقظ لتوه من نوبة حشيش، وقال بنبرة متهكّمة «تقصد أنّ هذه الأفكار تحتاج إلى شدّ براغٍ»، ثمّ أضاف وهو يشير بإصبعه إلى رأسه «المشكلة ليست في

البرغيّ، بل في غياب العزقة»، ما أثار موجة من الضحك في القاعة، إلى أن تداركت نارنج الموقف بإعلان رغبتها في عرض ما أنجزته من شريطها عن الحارس كمادّة خام، لمناقشة عيوب المادّة ومزاياها.

في المادّة المصوّرة التي شاهدناها على شاشة صغيرة، لم يلتقط سميح عطا نبض تشيخوف جيّداً. بدا مرتبكاً مثل تلميذ حفظ واجبه غيباً. وكان العنبر خاوياً من ضجيج المرضى، لكنّه سيتخلّى عن أقنعته، حين يتكلّم عن حياته وذكرياته وشجونه «أنا حارس حيطان». إنّه حارس ملصقات في المقام الأوّل، هذا ما استنتجته أخيراً. لديه لكلّ ملصق حكاية وذكرى وإشارة. أمّا نارنج فاقتنعت على مضض بضرورة تجريف ما هو فائض في الشريط والاكتفاء بما هو حقيقي وجارح ومؤلم في يوميّات سميح عطا.

في نهاية الحصّة، اتفقتُ مع أعضاء الورشة، على أن يكتب كلّ واحدٍ منهم بمفرده، سيناريو فيلم مدّته دقيقة واحدة «دقيقة مكتنزة تهطل على الشاشة مثل مزنة، وكأنّها هاربة من بكرة فيلم عظيم. أمّا نحن فينبغي أن نطاردها في الأزقّة، ونخرجها من الجحر الذي تختبئ فيه، نقبض عليها بكامل أصابعنا، كما نقبض على كنز. وننبش غرفة العرض في «سينما براديسو» بحثاً عن بقايا اللقطات الممنوعة، من دون أن نعبأ برنين جرس الرقيب». مثالاً على ذلك سأختار لقطة من فيلم ألماني عنوانه «الخطيبة»، شاهدته منذ سنوات، ولم أعد أذكر اسم مخرجه. لقطة لم أنسها إلى اليوم. امرأة حليقة الشعر في أحد المعتقلات النازية، تخرج إلى باحة خلفيّة مخصّصة لتنفّس السجينات. في ركن من الباحة نبتت كومة من العشب بتأثير مسقط أشعّة الشمس عليها. تقف أمام المربّع الأخضر الصغير، ثمّ تخلع حذاءها وتتلمّس بأطراف أصابع قدميها العشب ذهاباً وإياباً. بالنسبة

إليّ، كنت سأضع العشب فوق فروة رأسها إلى أن ينمو حتّى كتفيها مثل شلّال.

أفكّر في ما ستكتبه نارنج في مشروعها، وهل ستكفيها دقيقة واحدة لاختزال أوجاعها؟

32

متّخذاً هيئة الميكانيكي، حاولت أن أزحف تحت العربة المعطّلة لفحص أحشائها، واكتشاف أنبوب مكسور، أو سلكٍ مقطوع، أو خزّان مثقوب، لمعرفة أين يكمن خلل مسوّدة روايتي؟ كان المطر يهطل بغزارة في الخارج، وينقر على النافذة بعنف. ليس لديّ ذكريات مع «هاء» تتعلّق بالمطر كي أستمدّ منها وقائع إضافيّة تمنحني حريّة الانزلاق بليونة تحت العربة. أذكر أنّني تعرّفت إليها في الصيف، في أواخر تمّوز تقريباً، وأنّ آخر لقاء كان بيننا حدث في ربيع متأخّر، في الأسبوع الثالث من نيسان على وجه التحديد، بدليل مرور بائع نرجس، كان يحمل وروده على هيئة أطواق، حاول إقناعي بشراء واحدٍ منها، وانتهى اللقاء عند نهاية درج النفق، بوعد أن تدعوني إلى غرفتها على الغداء «سأعدّ لكَ طبقاً من المعكرونة بالبيشاميل». لا أظنُّ أنّ جملة وداعية من هذا الطراز، تشجّع روائيّاً يتمتّع بقليل من الحصافة والجديّة والانتباه، كي يتّكئ عليها في حفر مسالك جديدة لروايته. على العكس تماماً، فهو سيتخبّط بتشابك الخيوط أكثر في هذه المتاهة، كما يحدث في تناول المعكرونة نفسها. العربة ما تزال

معطّلة. للأسف لم تعلق نقطة زيت واحدة على ثيابي، كما لم تتلوّث يداي بالشحوم.

«هاء» تنأى بعيداً، مثل غيمة لم تمطر، وفي أفضل الأحوال مثل رذاذٍ خفيف بالكاد يترك أثراً على الجلد. ربّما كان عليّ أن أسمع نصيحة بائع النرجس، وأهدي لها طوقاً منه، حتى إن كان بلا رائحة. ففي ذكرى من هذا النوع، على الأرجح، سأتجاوز حالة الاستعصاء (المؤقتة) هذه، بخسائر أقلّ. سألجأ إلى الشاي بالزنجبيل والقرفة لتحسين عمل القصبات الهوائية، والتنفّس بعمق، لالتقاط تلك الذبذبات اللامرئيّة بدقّة أكبر، في العلاقة مع «هاء»، على أمل إشعال الموقد بجمرة لم أنتبه إلى وجودها، وظننت حينها أنّها مجرّد كتلة رماد، ليست ذات شأن.

نهضتُ محبطاً، من دون أن أضيف سطراً واحداً إلى الملفّ، بمثانة ممتلئة، وذاكرة مثقوبة بالعجز والخذلان والأزهار الذابلة.

ثمَّ كبسولة بروزاك مضادّة للاكتئاب، وكوب ماء، وكتاب.

33

حبل الضجر، والاكتئاب، واليأس، يلتفّ حول عنقي تدريجياً، أجرّب أن أتجاهل الاختناق بابتكار طراز من اللهو المؤقت بوصفات غرائبيّة. تفشل اللعبة وينتهي مفعول مخدّر الصبر باكراً. فالحرب لا تحدث في مكانٍ آخر، كما أحاول إقناع نفسي. إنها هنا على مرمى قذيفة عشوائيّة، أو عسف، أو حادثة اختطاف، أو عزلة قسريّة. منذ أشهر كففت عن مشاهدة نشرات الأخبار بشراهة، فقد تلاشت حمّى التجوال بين المحطّات الفضائية لالتقاط خبر ما ينهي هذه المذبحة. لم يعد المشهد مثيراً ومؤثراً، كما كان قبلاً. القتلى أرقام فقط، من دون باركود لإحصاء الشهقات الأخيرة، أرقام لم تعد تعني إلّا أهالي الضحايا أو من بقي منهم. هناك دمغة مزوّرة في كلّ ما يحدث لي، ومن حولي. مرّةً أخرى، أجدني أمام فوتوكوبي حياة، لا أمام نسخة أصليّة يمكن اعتمادها باطمئنان. لديّ نحو ألفين وثلاثمئة وثلاثة وعشرين صديقاً افتراضيّاً على صفحتي الشخصيّة في الفايسبوك. أعرف نحو مئة وخمسين شخصاً منهم عن قرب، والبقيّة كائنات افتراضيّة تعوم في الموج الأزرق بكامل عتادها الحربي. حروب شبقيّة، وأكاذيب، واختراع بطولات، وتبديل خنادق، وشتائم، وفقهاء ثورات يديرون

معاركهم بالبيجامات وقواميس الأسلاف، وصور سيلفي في شوارع المدن الأوروبيّة العريقة، ومتلعثمو لغات، وحفّارو قبور ينبشون أكفان أسلافهم لمعاضدتهم في إفناء الآخر، وركاكة عاطفيّة، ولطميّات، ومهن وهميّة. أقول لنفسي، إنّها مصحّة مسلّية إلى حدّ ما، فلأحجز سريراً في هذا الرواق الطويل، فأنا الآخر أحتاج إلى جرعة حنان من الممرّضة المناوبة (أفضّلها ممرّضة).

كانت أسمهان مشعل قد اتّهمتني في إحدى رسائلها بأنّني شهوانيّ وخجول. سأفسّر ذلك بأنّها دعوةٌ صريحة منها، لاستعمال حاسّة اللمس على نحوٍ أكثر نجاعة، وبناءً على هذا التفسير، وكنوعٍ من الدفاع عن النفس، لم أعد أوفّر فرصةً نحوها، لمباغتتها شفويّاً وحسيّاً بملامسات صريحة، في مصعد، أو درج قبو بناية، أو زقاقٍ معتم، أو في المطبخ، حين تكون في زيارتي، تُعِدّ واحدة من وجباتها النباتيّة، أو تحت أشعّة الضوء الأخضر في التشات، خصوصاً بعد اشتباك شخصيّتها الواقعيّة بشخصيّتها الافتراضيّة، من دون نتوءات واضحة.

ألجأ إلى الفايسبوك لمقاومة الضجر، وكأنّني ذاهب إلى مقهى. أتفرّج على شجار هنا، ونزال بالسيوف هناك، وتوقّعات علماء فلك مزيّفين، وفضائح جنسيّة، ونصائح طبيّة، وعقاقير في طبّ الأعشاب تشفي من الأمراض المزمنة، وأسلحة فتّاكة، وفيديوهات لحيوانات مفترسة، ومواقع أدبيّة، وكتب مقرصنة، وصور مشاهير، وطهاة فتنة، وغرقى، وركاكة كاتبات مهووسات بالشهرة، ومرضى حنين، وصنابير شتائم مفتوحة تصبُّ في أنابيب الصرف الصحّي، وتهديدات بالحذف من قائمة الأصدقاء. أقول لنفسي: كان أمبرتو إيكو محقّاً حين وصف «تويتر» و«الفايسبوك» بأنّهما تمنحان «حقّ الكلام لفيلق من الحمقى ممّن كانوا يتكلمون في البارات فقط، بعد تناول كأس من النبيذ، دون أن يتسبّبوا بأيّ ضرر للمجتمع، وكان يتم إسكاتهم فوراً». بلهاء ومرضى

وعشّاق يتقاسمون الخرائط، وغنائم الغزو، والحريم، وأنوثة تائهة بين شهوة التحرّش اللفظي، والحشمة الكاذبة. ستبقى كوّة صغيرة مفتوحة على سجالات جديّة، ومعلومات، وتواصل حميم، ونصوص مشعّة، وسط الغبار الذي تثيره قافلة الدهماء في حروبها الشرسة.

في حانة أميّة سيخبرني أحد الشعراء المحزونين بأنّه يخوض ألعاباً مسلّية من نوعٍ آخر أكثر متعة، فهو يرسل العبارة نفسها لأكثر من صديقة، وينتظر الإجابة. ثلاثة مستطيلات مضاءة بالنقطة الخضراء في توقيتٍ واحد، وعبارة سحريّة استعارها من قصيدة لناظم حكمت، من دون أن يكشف عن اسمه، مدّعياً أنّها من معجمه الخاص (كانت عبارة «أنتِ قطعة السكّر التي غادرت البحر فصار مالحاً» تنطلق من كيبوردي مثل سهمٍ مشعّ إلى شباكهنّ، وكنت أعنيها فعلاً، ولكن بدرجات متفاوتة في الاشتهاء والألفة والأشواق، بين واحدة وأخرى. وستعلق صنّارتي بالتأكيد، لدى أكثرهنَّ رومانسيّة).

كان مخموراً كعادته، ولكنّه بما بقي في دماغه من صحو، قال بجديّة:

– لقد استهلكت كلّ ما في جعبتي من أقوال مأثورة، وشذرات، وقصائد. أريد أقوالاً تحدث زلزالاً لدى سماعها، هل لديك نصيحة ناجعة في هذا الشأن؟

– عليك بأسماء ذات رنين، ما رأيك بفرناندو بيسوا، مؤلف «كتاب اللاطمأنينة»، فهو ما زال بعيداً إلى حدّ ما عن مصائد البلهاء؟

– هل تحفظ له شيئاً؟

– اسمع هذه «أحسُّ أنّ لي قيمة لأنّني وُلدت، فقط لأصغي إلى هبوب الريح». وكي تزيد من جرعة التأثير لدى الضحيّة، أضف من عندك «أنتِ عاصفتي التي أنتظر هبوبها كلّ يوم».

لطالما احتجت إلى نوبات من العبث والفوضى والتسكّع، في مواجهة حطام أيّامي الداكنة، بأوقات مستقطعة، لطعن وحش الضجر بسكاكين مثلّمة بالكاد تخترق سطح الجلد، ثمّ أعود مرغماً إلى الاختباء في عتمة كرتي الشوكيّة مثل قنفذٍ خائف.

34

في زحام بريدي الإلكتروني الذي يحتاج إلى كناسة دوريّة لتنظيفه من الرسائل الفائضة عن الحاجة، اخترت قراءة ثلاث رسائل وصلتني من أعضاء في ورشة كتابة السيناريو تحمل أفكاراً لأفلام الدقيقة الواحدة التي اقترحتها عليهم في الحصّة الأخيرة، استجابةً لضرورة الكثافة وإشباع الصورة من الداخل. كانت لديّ أفكار متلاطمة بهذا الشأن. ماذا لو حاولت شخصيّاً أن أكتب فيلماً من دقيقة واحدة؟ دقيقة واحدة تختزل أوجاعي. دقيقة تشبه طعنة خنجر مباغتة، أو خفقة جناح طائر مفزوع، أو عناقاً يحطّم الأضلاع من فرط الفقدان. كأنّ ركام العنف يمحو ما قبله، ذلك أنّ الفكرة التي ألحّت عليّ دون غيرها تتعلّق بمشهد شخصيّ مقتطع من مكانٍ آخر، لكنّني سأؤجّلها الآن. كنت متلهّفاً إلى قراءة ما كتبته نارنج عبد الحميد أولاً، لمعرفة اتّجاه بوصلتها في هذه الفترة. كان السيناريو الذي كتبته بعنوان «قطّتي بأذنين، وأنا بأذنٍ واحدة». وكأنّ فيلم «الحارس» الذي أنجزته قبلاً، لم يكن أكثر من مخدّر موضعي انتهى مفعوله بأسرع ممّا توقعت. في السيناريو الجديد تخاطب نارنج قطّتها «أنت تسمعين جيّداً بأذنين، أمّا أنا فأسمع نصف مواء، وأعيش نصف حياة، ثمّ أقسمُ هذا النصف إلى

مقادير أقلّ، إلى أن يتلاشى الصوت تماماً، عدا شتائم ثقيلة وإذلالات، ولهاث اغتصاب». أحسستُ بمغصٍ حادّ وأنا أتخيّل تلك الأصوات تطرق بعنف نصف سمع لجسد منهار ومدمّى ومخذول، في عتمة شاشة سوداء ملطّخة بأنينٍ خافت. الرسالة الثانية تذهب إلى فضاء آخر مختلف، لكنّه لا يبتعد كثيراً عن مكابدات الجسد، وإن من ضفّة أخرى مباغتة «رجل يقف وراء زجاج واجهة متجر للألبسة الرجّاليّة الرسميّة، كما لو أنّه مانيكان. يرتدي فانيلة بيضاء وربطة عنق، وبجانبه لافتة مكتوب عليها عبارة «تنزيلات حتى 75%». ثمّ تعليق صوتي «ربع كائن بشري لمن يرغب في جثّة قيد الاحتضار». كانت الفكرة الثالثة بعنوان «بلاد نصف نعل»، محاولة لاستعادة تاريخ بيت محمّد علي العابد، أوّل رئيس جمهوريّة في البلاد (1932)، وكيف تحوّل هذا القصر الأثري اليوم، بفعل الإهمال والحرائق المتتالية، إلى ورشات لتصليح الأحذية. في الشريط المقترح سوف تتناوب وثائق الاستقلال بطرقات «شاكوش» الإسكافي، وهو منهمك في عمله، وستكون اللقطة الأخيرة صورة حريق يلتهم الوثائق أولاً، ثمّ يتصاعد إلى السقف ليجهز على الأعمدة الخشبيّة والزخارف والأقواس.

35

الشريط الوثائقي الذي باغتني ليلاً، في إحدى المحطات الإخبارية، عن غرقى سوريّين جدد، أبعد صورة «هاء» الغائمة والمهتزّة والمشتهاة. كنت على وشك ارتكاب خديعة سرديّة بمطاردتها في شوارع مونتريال لترميم عطب المسافة، واختراع رسائل بيننا، بعد أن وجدت حساباً جديداً باسمها على الفايسبوك. كانت «هاء» قد أغلقت صفحتها منذ ثلاث سنوات تقريباً، لكنّ صفحتها الجديدة لا تحمل أيّ إشارة إلى أحوالها في المنفى. فقط نماذج من أعمالها الجديدة. لم يطرأ تغيير جوهري على طريقتها في الشغل. كولاج وتطريز ببقايا أقمشة وخيوط وخطوط يدويّة، فقط استبدلت القطط والدمى التي كانت ترسمها بوحوش مفزعة، ولطخات ببقايا قماش أسود، وأوراق صحف، وبقايا ملصقات نعي. كتبتُ لها رسالة اطمئنان وأشواق، فلم يصلني ردٌّ منها. هل هي إشارة إلى عدم جدوى الاشتغال مجدّداً على مسوّدة الرواية، أم لأنّني ما زلت أخفي سرّاً في علاقتي مع «هاء»؟ تابعت الوثائقي باهتمام، وبدا لي أنّ ما أشاهده نسخة مفزعة من سفينة نوح بأرواح بشريّة منهوبة وتائهة في بحر الظلمات، تحرسها غيمة من الغربان. قلتُ لنفسي، هؤلاء ليسوا أحفاد الفينيقيّين كي يكتشفوا

قرطاجة أخرى، أو كي يصدّروا لون الأرجوان إلى العالم. الأرجوان القاني يُغرق صدورهم. هاربون من الجحيم فقط. لا قوارب نجاة في انتظارهم. قواربهم مثقوبة في الأصل. أوديسة عصيّة على التدوين، حتّى بالنسبة إلى هوميروس نفسه. أوديسة عالقة بين صخور الخرائط الخشنة، على هيئة جثث مؤجّلة. جثث مجهولة الأسماء، وصرخات استغاثة لن ينصت إليها أحد.

كانت الأقدار قد قادت أسلافهم، قبل مئة سنة، إلى سفينة «تايتانيك» (1912)، أعظم سفينة في العالم للإبحار إلى أرض الأحلام، حجزوا أماكنهم في الدرجة الثالثة، وأُغلقت عليهم الأبواب، كما لو أنّهم في زريبة ماشية. قرويّون هاربون من مجاعة «الرجل العثماني المريض» وفزع «النفير العام». هربوا من حرب قناة السويس، فماتوا في مياهٍ أخرى بعيدة. لم يسجّل أحد أسماء الموتى السوريين في قاع «تايتانيك». فقط وثّقوا الحشرجات الأخيرة لموتى بلا لغة، في شهادات عابرة أطاحها النسيان. ميديا اليوم تحتفل بالموت السوري ببثّ صورٍ مفزعة، تمحو صوراً مفزعة من وليمة الأمس، في متوالية بصريّة باذخة بوصفها فرجة كونيّة. فرجة لم تنقذ الضحايا، ولم توقف أسباب الكارثة. استغاثات غرقى بلا أثمان، أو أكفان. مقبرة الماء لا تحتاج إلى توثيق تاريخ الوفاة على قبر بلا شاهدة. من جهتنا، نحن الأحياء، لا يمكننا وضع الورود فوق حافةٍ لا مرئيّة، أو فوق وليمة عظام عالقة بين أنياب الأسماك والحيتان. ثمّ ماذا نفعل لرجل عالق بين الأسلاك، كان قد فقد نصف عائلته في القصف، ونصفها الآخر تحت الماء؟ وكيف سيبدأ حياةً جديدة، في مدنٍ لا يعرفها، وبلا ألبوم صور قديم، هل عليه أن يصدّق تقنيّة «الفوتوشوب» كي يستعيد صور المفقودين، أم يكتفي برفع شارة النصر في الصورة، علامة على

النجاة؟ لا عزاء للموتى تحت القصف، أو برصاصة قنّاص، أو بانفجارٍ عبثيّ، أو بحادثة اغتصاب شرعي.

المجد هنا للموت غرقاً، فهو أكثر إثارة لغريزة الميديا المتوحّشة التي استهلكت ما يكفي من أنواع الموت السوري، في مطحنة الصورة. سلاح فتّاك تقابله صورة فتّاكة، في أقصى حالات الفتنة البصرية «حرب تنظر إلى نفسها في المرآة» كي تتحقّق من قوّة إغوائها رقميّاً.

هكذا نتفوّق نحن السوريين، بدرجات، على مختلف مذابح القرون الفائتة، ألسنا في جحيم الألفيّة الثالثة، وموتى ما بعد الحداثة؟ لكن، مهلاً، كيف تستقيم مفردات «مفرمة» العولمة، مع معجم الطوائف والمذاهب والفتاوى، وكيف سيلعب جان بودريار النرد مع ابن تيميّة، تحت شجرة مشمش في غوطة دمشق؟ فهناك من يندب موتى القرون الفائتة تحت بند الثأر لدم القتلى بسيوف إلكترونيّة، وهناك من يحصي أرباحه من الدماء في بازار الربيع الأسود، ثمّ هل من اخترع الأسلحة المتطوّرة، هو نفسه من اخترع السيوف والبلطات واللحى والرايات السود ومركبات الدفع الرباعي، في المصنع نفسه؟ كان على خبراء الحروب الجديدة اختراع جمل بسنام ليزري يليق بكنوز هذه الصحراء، وإبادة تاريخها الحضاري على مذبح التقنيّة التي «تبصق روثاً وتزمجر قلقاً مخزوناً منذ قرون». على هذا المنوال، تعمل «فوتوغرافيا الاختفاء» فتحضر صورة ما بغزارة، وتختفي أخرى، تبعاً للمتطلبات الرمزيّة للحظة. حرّاس الهمجيّة هم الخندق المكمّل لحرّاس الميديا، وخبراء «الفوتوشوب» في غرف عمليّات المحو والتركيب والتفكيك. يروي العقيد أرتشيبالد غراسي، وهو أحد الناجين من غرق سفينة «تايتانيك»، أنّ الأصوات والصرخات والاستغاثات «كانت تطفو على سطح المياه الداكنة من

دون انقطاع طوال الساعة التي تلت الحادثة، لكنّها راحت تتخامد مع مرور الوقت حتّى تلاشت نهائياً». أمّا القارب المطاطي المثقوب لنوح السوري وأحفاده، فما زال يستغيث، ذلك أنّ غربان السوشال ميديا لم ينهوا طقوس الفرجة بعد، وإيثاكا بعيدة، وعصيّة على التعيين، ولن ترويها كيت وينسلت في نسخةٍ رومانسيّة أخرى. هناك من يغرق الآن، في أوقيانوس الدم.

من جهتي كنت أُحتضَر في قارب الوحدة، أعوم بصعوبة فوق جليد الوقت، بمجذاف مكسور، وجسدٍ محطّم، أصطدم بصخورٍ ناتئة، من دون أن يغيثني أحد. وكانت «هاء» تنأى بعيداً بقاربٍ مثقوب على وشك الغرق.

36

لا أتذكّر منام أمس بدقّة، لكنّه في كلّ الأحوال لن يخلو من كابوس. طريقتي في الاستيقاظ قفزاً من السرير، ثمّ هيئتي الرثّة أمام مرآة المغسلة، تؤكّدان حصول عراكٍ ما، مع كائنات غامضة. أعدُّ القهوة على طريقة «هاء». المشهد القديم نفسه، عدا صوت المطر في الخارج. تختلط رائحتها برائحة البنّ المحروق. هذه المرّة، ربّما عليّ أن أضيف تفصيلاً مهمّاً، سبق أن أهملته، وهو كيف أحطتها بذراعيّ من الخلف وضغطت بأصابعي على حلمتي نهديها، وكيف تأوّهت بإغواء، فيما كانت ركوة القهوة على وشك أن تغلي. الآن فقط ربما عرفت سبب الإعاقة، وهو غياب اسمها كما عرفتها به. هناك فرق بين أن أقول «هاء»، أو أن أقول «هنادي عاصي»، كما توقّع به لوحاتها تماماً، بالهاء المفتوحة والياء التي على هيئة ذيل قطّة، وأن أستثمر عبارات من نوع «كان لها فم فراشة، وعنق غزالة نائمة، وبطن من المخمل». على الأرجح ليس غياب اسمها كاملاً عن المسوّدة سبباً وحيداً لهذا الاستعصاء، بل غياب الاعترافات الصادمة، فهي مثلاً، لم تتردّد لحظةً واحدة، بعد أن غادرت صديقتها الأثيرة نجوى المقهى لانشغالها بموعد مسبق(!)، في أن تخبرني بعدم ممانعتها إقامة علاقة ثلاثيّة.

لقد صُدمت حقاً، لذلك لم أفكّر حينها بإضافة «تفصيل مشين» كهذا إلى نسيج الرواية. بالنسبة إليّ، أفضّل أقصى حالات السريّة في العلاقة الحميمة، مثل جملٍ وناقة، وراء أكمة غير مكشوفة للآخرين، بصرف النظر عمّا يقوله فرويد وأقرانه في تفسير مثل هذه الرغبة. الآن فقط، أشعرُ بالندم على إهدار تلك المغامرة، لا كتجربة حسيّة بمذاق حرّيف فحسب، بل كتجربة في الكتابة ذاتها، واختبار الغوص في إغواءات الإيروتيكيّة وخصوبتها في الاستعمالات الجانبيّة للّغة. ولكن هل تكفي علاقة متقطّعة كالتي عشتها مع هنادي عاصي لحياكة حكاية مكتملة الأضلاع؟ أقول لنفسي محرّضاً «لمَ لا؟ فقد التقيتها نحو أربع مرّات بحميميّة، فيما لم يتردّد ميلان كونديرا في روايته «خفّة الكائن التي لا تُحتمل» في ذكر حيثيّات عاطفية أقلّ وطأة ممّا لديّ بمراحل في هذا الخصوص، من دون أن يتوقّف عن العمل، وإلّا فما معنى أن يكتب بجسارة مثل هذه العبارة «أكان ذلك هو الحبّ؟ لقد لاحظ أنه كان يرغب في الموت إلى جانبها، كان يراها للمرّة الثانية في حياته».

رنين الأنترفون أيقظني من شرودي بأحوال هنادي عاصي وبكيفيّة استدراجها إلى هاوية المكاشفات الخشنة. كانت نارنج تقف أمام باب البناية. ضغطتُ زرّ السماعة، فانفتح الباب، ثمّ سمعت صوت كعبي حذائها على الدرج. انتظرتها أمام الباب. كان معطفها مبلّلاً تماماً، قالت فور وصولها، وهي تخلع معطفها وقبّعتها الصوف «انظر ماذا فعل بي المطر، أين ملائكتك؟». ثمّ أضافت وهي تضع كيساً على الطاولة «لم أشأ أن أتّصل بك قبل مجيئي، خشيت أن تعتذر. أكاد أموت من الوحدة». ثمّ أضافت، وهي تخرج محتويات الكيس «أحضرت لك فطائر سبانخ صنعتها بيديّ». ناولتني فطيرة وهي تنظر إلى عينيّ بتركيز:

– لم تعجبك فكرة السيناريو الذي كتبته أليس كذلك؟

– ليس تماماً. فكرة أن تخاطبي قطّة، دليل على وحدة قاتلة.

– أخبرتك قبل قليل بأنّني أكاد أموت من الوحدة. قبل سنوات قرأت قصّة كتبها أحدهم، عن شخص يعيش في أحد المنافي الاسكندينافيّة، وكان يذهب إلى الغابة يومياً، كي يصرخ ويحدّث نفسه بلغته الأم، أو يختلق شجاراً في السوبرماركت من أجل أن يتبادل الكلام مع شخص آخر ويشتمه بالعربيّة من دون أن يفهم شتائمه. أظنّ أنّه وُجد منتحراً في غرفته. لا تستغرب أن أعيش التجربة نفسها قريباً. أصلاً، أن تكلّم نفسك في الشارع لم يعد أمراً مستهجناً، غالباً ما أصادف أحدهم وهو يكلّم نفسه غير عابئ بما حوله.

كنت أرغب في أن أسحبها إلى بساطٍ آخر ينسيها ما هي فيه، فطرحتُ عليها مأزقي السردي مع هنادي عاصي، بوصفها شخصيّة روائيّة لا تستجيب لتصوّراتي عنها، برغم محاولاتي المتكرّرة لاقتحام مناطق سريّة، كنت أتجنّب الخوض فيها قبلاً، خشية الذهاب إلى دروب وعرة.

أخرجتْ كيس تبغها ولفّت سيجارتين كعادتها، ثمّ قالت ضاحكةً، وهي تلحق بي إلى المكتب لقراءة ما كتبته في المسوّدة:

– ألست ميكانيكيّ العربات التخييليّة المعطّلة؟

ثمّ أضافت بعد صمت، بتأثير السيجارة الملغومة ربّما:

– وخبير أسرّة النساء المحزونات؟

تجاهلتُ نبرتها المتهكّمة، وأكملت شرح مأزقي في إتمام مسوّدة روايتي:

– كانت فكرتي الأصليّة هي كتابة رواية عشق، باستدعاء تجارب غراميّة خائبة لرجل خمسينيّ انتهى وحيداً، على سريرٍ من الندم، مثل «ذئب البوادي» الذي كان في العمر نفسه تماماً، أو مثل «دون كيخوته» الذي بدأ مغامرته كفارسٍ جوّال، وهو في الخمسين من

عمره أيضاً. رجل يقلّب دفاتره العتيقة، ورسائله، وذكرياته، وأسفاره، وندوب جسده، بقصد حراثة حياته على نحوٍ آخر، واختبار درجات المتعة المنهوبة، والطعنات التي نالها من حكايات حبّ لم تكتمل.

أضأتُ شاشة اللابتوب، ووضعته أمامها كي تقرأ آخر مسوّدة من الرواية. تناولتْ سيجارة من علبة تبغي وأشعلتها، ثمّ ركّزت عينيها نحو الملفّ. كنتُ أراقب انفعالاتها بانتباه، إلى أن رفعت رأسها عن الشاشة:

– هناك فرق بين العشق والاشتهاء. ما تحكيه هنا يتعلّق باشتهاء جسد غائب أكثر منه عشقاً. ثمّ إنّك لم تستثمر ما حدث في العليّة جيّداً (أستعير هذه الملاحظات من محاضراتك في الورشة)، وبناءً على ذلك بإمكانك الحكي عن ثلاث حركات إيقاعيّة متناوبة: الغرفة، والسلّم، والعليّة.

– لقد فكّرت فعلاً في أن تكون إحدى درجات السلّم مكسورة، ما يؤدّي إلى إصابته بجرح طفيف في الركبة اليمنى، لكنني عدلت عن الفكرة لاحقاً، حتى لا تنشغل هنادي بمعالجته، وتفشل محاولته الصعود إلى العليّة. لستُ مارسيل بروست كي أُسهبَ في الوصف.

– مارسيل بروست! إنّه مضجر بالنسبة إليّ. سمعت ذات مرّة إحدى المتحذلقات تقول إنّها تضع روايته «البحث عن الزمن المفقود» إلى جانب سريرها مثل تميمة، لفرط شغفها بكتابته. وحين حاولت أن أقرأ المجلد الأول، لم أصمد طويلاً. إنني قارئة مزاجيّة على أيّ حال، ولا ينبغي أن تنصت إلى ملاحظاتي بجديّة.

– أوافقك في أن القراءة مزاج في المقام الأول. قد يكون توقيت قراءة كتاب ما خاطئاً، وحين نعيد قراءته بمزاجٍ آخر نجده ممتعاً. هناك كتب لم أحببها في القراءة الأولى، ثمّ اكتشفت خلال القراءة الثانية، أنني أضعتُ كنزاً. وأظنّ أن هناك وقتاً حيوياً للكتابة أيضاً. سوء التوقيت يعطّل عجلة المتعة.

– بالمناسبة، ألا تنوي زيارتي؟ لديّ مكتبة ضخمة تضمّ كتب جدّي، وكتب والدي، وكتبي. ربّما تجد الوصفة السحريّة في أحد رفوف مكتبتي.

– سأزورك يوماً ما بالتأكيد.

تناولتْ معطفها المبلّل عن الكرسي وارتدته على مهلٍ، ثمّ أرخت قبّعتها الصوف فوق المنديل الذي يغطّي شعرها وأذنيها، ثمّ حملت حقيبتها، ووقفت وسط الصالة، ثمّ ألقت نظرة إلى الخارج، لتتأكّد من أنّ المطر قد توقّف. التفتت نحوي وكأنّها تريد أن تقول كلاماً ما، رغبةً ما. زمّتْ شفتيها، ثمّ خرجتْ بارتباك، من دون أن تنطق بكلمةٍ واحدة. أعرف درجة اضطرابها، حين تكون قلقة، وذلك بالإنصات إلى حركة كعبي حذائها على الدرج. هذه المرّة، كانت تنهب الدرج نزولاً، كما لو أنّها هاربة من حريق.

37

كلّما نجحت في إزاحة قوائم الموتى، وغطرسة عنف الحرب جانباً، أحرزت تقدّماً في مسوّدة روايتي المؤجّلة عن العشق. مناماتي باتت أقلّ كابوسيّة، أو تأتي في أوقاتٍ متباعدة. أعرف ذلك حين لا أجد مخدّتي مبلّلة بالعرق، بل يتبلّل سروالي فقط. تجتاحني خلال نومي لذّة عمياء لكنّها لا تكتمل، تُبتر عند لحظة الذروة. سأعتبر ذلك علامة على شفاء جزئي من مخزون الفزع المتراكم، وفرصة مؤقتة لترميم سيرة هنادي عاصي بمعلومات إضافيّة. وضعت اسمها على محرّك البحث في الانترنت. كانت الحصيلة مجموعة من المقالات الصحافيّة عن معارض أقامتها، بعد مغادرتها دمشق، في عمّان، وبيروت، واستكهولم، كما وجدت صوراً حديثة لها، تقف فيها إلى جانب لوحاتها بابتسامة نصف ذابلة. بدت سمينة إلى حدٍّ ما، بالمقارنة مع هيئتها القديمة. سأنتبه إلى وجود اسمها كواحدة من الذين وقّعوا على بيان مضادّ لعسف السلطة حيال الحراك السلمي. هكذا سأجد تفسيراً مقنعاً لاختفائها، في تلك الفترة التي أعقبت الموعد المؤجَّل بيننا، وارتباك صوتها على الهاتف وهي تعتذر عن «وليمة المعكرونة بالبيشاميل». كانت إذاً، تخطّط للهروب سرّاً خارج البلاد، فورود اسمها

في بيان احتجاجي يضعها في قائمة المطلوبين أمنيّاً بالتأكيد. لا أعلم كيف تمكّنت من الهرب إلى عمّان، ثمّ إلى بيروت، قبل أن تحصل على اللجوء في السويد أو كندا. ما أعرفه جيّداً، هو أنّ الكائنات الأليفة التي كانت تصنعها من القماش في إنجاز لوحاتها، تحوّلت في أعمالها الأخيرة إلى وحوش مفترسة. اختفت القطط، والطيور، والزهور، وأذرع النساء خلال طيرانها إلى سقف اللوحة، لتحلّ مكانها وحوش مفزعة بالأسود والكحلي والأحمر الداكن، من دون أن تتخلّى صاحبتها عن نبرة المنمنمات في تطريز أقمشتها. كأنّ حجم الخسارة في حياة هنادي عاصي يكمن في فقدان طمأنينة كائناتها الأليفة، حين تتكوّر امرأة بعينين مفزوعتين، وبذراعين مبتورتين، فيما سيقتحم الوحش أرضيّة اللوحة. وحش على هيئة ضبع يشتمُّ جثّة متروكة في العراء. ما أحتاج إليه في هذه اللحظة هو فحص الزلزال الذي أصاب هنادي عاصي، وأدّى إلى كسر ثمرة الجوز الصلبة لطمأنينتها القديمة، وشبقها، وعبثها الصبياني في تشكيل الدمى والطيور والزهور فوق الأقمشة، ثمّ انتقالها المباغت إلى خندق العصيان، ومراودة الوحوش التي خرجت من أقفاصها، والفزّاعات التي عبثت بروحها إلى الحدّ الأقصى من همجيّة الأذى.

38

انتابتني الحيرة لفرط تراكم الصور التي أظنّ أنها تصلح لأن تكون مشروعاً شخصيّاً لفيلم من دقيقة واحدة. أقتنع للحظات بصواب فكرة ما، ثمّ أستبعدها لمصلحة فكرة ثانية تبدو أكثر بريقاً وعمقاً ووجعاً، لكنّها بمجرّد فحصها من الداخل، تذبل مثل نبتة بريّة سحقتها أقدامٌ ثقيلة.

أهـربُ مـن وقـائـع جحيم الـحـرب، فـأقـع بـعـد خـطـوات في مصيدتها. تتناهبني صور كمال علوان وكتابه الذي سوف يصدر بألف صفحة وملحق. أتخيّله مكوّماً في حانة معتمة، وقد تطايرت أوراق ملفّه الأبدي عن تقويض إسمنت الدولة، بما يشبه كفناً يغطّي جسمه الناحل. ثمّ صورة صديقي (الترجمان الروسي)، يتفقّد عناوين الكتب المعروضة تحت جسر الرئيس، على أمل أن يجد كتاباً واحداً نجا من مكتبته المفقودة، رغم تأكّده من أنّ من استولى على بيته سيستخدم كتبه في التدفئة. أكـداس من الكتب تتكوّم بفوضى على مراحل، تلمع صورة دستويفسكي على غلافٍ يهوي على الأرض، وعود ثقاب مشتعل. النار تلتهم جزءاً من الصورة، يظهر جزء من عبارة لم تطلها ألسنة اللهب، كان دستويفسكي قد قالها لحظة صعوده إلى منصّة الإعدام، قبل أن يشمله العفو فجأة «يا إلهي! ما أكثر الشخصيّات التي

ظلّت حيّة، فهي ستهلك وتنطفئ في رأسي»، ثمّ لقطة لشاحنة تجوب الشوارع بقفص معدني ضخم، تتوقّف أمام بناية شبه مهدّمة، لا تزال آثار القذائف والحرائق والرصاص واضحة على واجهتها الأماميّة. يخرج دستويفسكي مخفوراً بقدمٍ عرجاء ولحية مشعّثة. يتلفّت حوله باضطراب وعصبيّة، قبل أن يرتطم بقضبان القفص جراء ضربة عنيفة بكعب بندقيّة أحد المسلحين الذين كانوا يحرسون الشاحنة. كان بانتظاره في القفص تولستوي، وبوشكين، وتشيخوف، ومایاكوفسكي، وجنكيز إيتماتوف. ولكن، مهلاً، ماذا تفعل آنّا كارنينا هنا؟ لا توجد قطارات تعبر مدينة حرستا كي تنتحر فوق السكّة. آنّا كارنينا التي لمحتها في قفص الشاحنة، لا تشبه صوفي مارسو التي أدّت دورها في فيلم مشهور بتوقيع بيربارد روز، بل امرأة شاحبة بجلباب أسود يغطّي جسمها تماماً، عدا خصلة شعر شقراء تمرّدت على الحجاب.

لا مناص. هناك فكرة أخرى تلحُّ عليّ. كلّما حاولت محوها حضَرَت ثانيةً، ذلك لأنّها تتعلّق بوجعٍ شخصيّ قد لا يبدو مرئيّاً بوضوح: فرق التوقيت أيضاً، هو سبب النجاة من موتٍ متوقّع. كنتُ قد وصلتُ في ليلٍ متأخّر إلى فندق الوادي. الفندق الذي يقع في وادٍ يواجه قلعة الحصن، وكانت إحدى الجماعات المسلّحة قد استولت على القلعة قبل أن يستعيدها الجيش. استيقظتُ صباحاً على منظر القلعة التي لم أزرها قبلاً. جلست في الشرفة أتأمّل سحر الجبال والغابات وحركة الطيور، وقد أودعتُ ذاكرة الحرب عند آخر حاجز يقع على أطراف دمشق. من سور الشرفة كنت أرقب حركة سحليّة صغيرة، تبدو كما لو أنّها وُلدت للتو. عند حافة الجدار كانت تقوم بمحاولات فاشلة للانتقال إلى الجهة الأخرى، ثمّ الاختفاء بين شقوق القرميد لإحساسها بخطرٍ ما، والخروج ثانيةً بخطّة جديدة. قالت عاملة خدمة الغرف، وهي تضع فنجان القهوة أمامي، ثمّ وهي

تشير بيدها نحو القلعة «هذه الغرفة، كانت قبل أشهر فقط في مرمى القنّاص تماماً. الطلاء أزال آثار الرصاص».

لم أهنأ بقهوتي. أحسست بمذاق آخر أكثرَ مرارة. سهوتُ عن متابعة حركة السحليّة بمراقبة جدران القلعة، وذلك الخط الوهمي المستقيم الممتدّ من إحدى فتحات السور نحو شرفة الغرفة «لا بأس، إنني دريئة جيّدة لقنّاصٍ هاوٍ». كان القنّاص الأول من القرن الحادي عشر، القرن الذي شيّد خلاله المرداسيون الحصن بهدف حماية طريق القوافل التجارية القادمة من سواحل بلاد الشام إلى الداخل. كان القنّاص يهيّئ سهماً لإطلاقه نحوي، لولا انشغاله في اللحظة الأخيرة بمواجهة طلائع الحملة الصليبيّة التي اقتحمت الحصن بقيادة ريموند سنجيل، وبمباركة البابا أوربان، الذي كان يطمح إلى السيطرة على بيت المقدس، إلى أن حرّرها القائد المملوكي الظاهر بيبرس بعد محاصرتها طويلاً. تحت شمس أيّار، كنت أرى حرائق حقول القمح، وأشجار الزيتون، وأسوار الحصن، ثمّ أنصت إلى صرخات المحاصرين من بني مرداس واستغاثاتهم المتفجّعة وهروب بعضهم نحو الأودية ومغاور الجبال، طلباً للنجاة.

بسيطرة تانكرد صاحب أنطاكية على القلعة في أوائل القرن الثاني عشر. توقّعت أن يكون القنّاص أحد رماة المنجنيق، وها هي كرة ملتهبة تقتحم سور الفندق لتقع في بركة السباحة. كدتُ أدع الكرة الناريّة تكمل خط سيرها نحو شرفة غرفتي، فتشتعل ملاءة السرير أولاً، لكنّني سأنجو بصعوبة مكتفياً بحروق متوسّطة. كان الاحتمال الثالث يتعلّق بوجود قنّاص يمتلك بندقية بريطانية متطوّرة من طراز (AS-50)، تلك التي تخترق التحصينات وتقتل فيلاً، مزوّدة بمخزنين للذخيرة، وهي محاطة بأمجادٍ قتاليّة غير مسبوقة، إذ بإمكان القنّاص اصطياد هدفه على بعد 1800 متر، من دون أخطاء في منظار

الرؤية. الصديق الذي كان يعمل مرشداً سياحيّاً، كان يحدّثني طوال الطريق الملتوية نحو القلعة، عن حوادث قنص وخطف وتعذيب، شهدتها البلدة في الأشهر الماضية، قبل اضطرار المسلّحين لإخلاء القلعة تحت ضربات نيران مدفعيّة الجيش.

على ارتفاع نحو 650 متراً عن سطح البحر، أتخفّف من حمولتي الثقيلة، محاولاً استعادة استقامة ظهري الذي كان محنيّاً مثل سنام جمل، تحت ثقل آثام سنوات الموت ومصائبها وجحيمها. كنتُ كمن يتدرّب على العيش، وربّما على الطيران. سماء زرقاء، ورائحة صنوبر، وهدوء لم أعهده في دمشق منذ سنوات.

خلال جولتي في القلعة، لم أهتمّ بأقسامها الداخلية، ولم أنصت إلى المرشد وهو يردّد مثل ببّغاء، تواريخ النقوش الإسلامية، أو أقواس الكنيسة القديمة، والقاعة الملكيّة، ومهاجع الجند، ومرابط الخيل، ومخزن المؤن، وجماليّات الفنّ القوطيّ. كنتُ أعبر الممرّات والدهاليز والأبواب التي تقودني إلى سور القلعة بخطوات عجلى، أتعثّر بصناديق ذخيرة فارغة، ومواقد مطفأة، وبقايا أغذية معلّبة. أصعد عتبة من حجارة ضخمة نحو الفتحات الدائريّة التي يختبئ خلفها حرّاس القلعة، يصوّبون أسلحتهم منها نحو الغزاة. اضطررتُ إلى أن أمشي نصف دورة محاذياً السور الشمالي، وأن أختار فتحة تواجه موقع غرفتي في الفندق، ثمّ أصوّب بندقيتي المتخيّلة إلى ظلّي هناك.

كنت بصدد استكمال كتابة روايتي في الريف، على غرار ما يفعله روائيّون فقدوا بوصلة شخصيّاتهم في صخب المدينة. أردت الخروج من القفص. أن أبتعد قليلاً عن أسباب الجحيم الذي كان ينهش روحي بأنيابه الحادّة. أن أستعيد صورة هنادي عاصي من دون نقصان. تتماوج أمام شاشة كمبيوتري المحمول، وجوه هنادي،

ونارنج، وأسمهان، بالتناوب، قبل أن يقتحم محارب قديم برداء أسود، وسيف، ولغةٍ منقرضة، شرفة الغرفة، ويستلّ سيفه مهدّداً، ثمّ يأسر شخصيّات روايتي كسبايا حرب عائداً بها إلى القلعة. كنت مكبّلاً تماماً، وحين تمكّنت من الحركة قليلاً، ألقيت نظرة من الشرفة نحو الشارع. كان المحارب الشرس يقود نسائي الثلاث أمامه نحو شاحنة تويوتا بيضاء، مجهّزة بمدفع رشاش، وقبل أن تنطلق الشاحنة، التفتت نارنج نحو شرفة غرفتي بنظرة استغاثة، ثمّ غابت الشاحنة في زقاقٍ فرعي.

غادرتُ الغرفة إلى بهو الفندق بكامل اضطرابي. جلست وحيداً في ركنٍ يضعني مباشرة في مواجهة موظفة الاستقبال، أراقب حركة النزلاء. كان أغلبهم من العائلات المهجّرة، من مدن اجتاحها أصحاب الرايات السود. كانت صاحبة الفندق قد أخبرتني، وهي تسلّمني مفتاح الغرفة، بأنّها استقبلت نحو ثلاثين عائلة من قرى حلب مجّاناً، لأجل إراحة روح يسوع. لكلّ واحد من هؤلاء حكايته المؤلمة. أتيت من أجل استعادة طيف هنادي فقط، ولا أريد أن ألوّث روايتي بآثام الحرب. ولكن ماذا تفعل نارنج هنا؟ ثمّ لماذا أحاول أن أتجاهل زيارتي الخاطفة لمدينة طرطوس لمقابلة صديقة تعرّفت إليها على الفايسبوك، وكيف لجأنا إلى مقعدين في زاوية قاعة سينما قديمة، كانت تعرض فيلماً متهالكاً لم أنتبه إلى عنوانه؟ ثمّ ألا ينبغي أن أستعيد تلك القبلة المسروقة وراء صخرة تحجب الرؤية عن حركة عشّاق ضالّين آخرين، توزّعوا صخور ذلك اللسان البحري الطويل؟ ستكتب لي بعد مغادرتي المدينة «ما زالت تلك القبلة المالحة عالقة بين الصخور».

كدتُ أقول متبجّحاً «أرغب في أن أستعيد «نسائي» المبعثرات بين المدن والقارات».

طوال ثلاثة أيّام قضيتها في ذلك الفندق، لم أتمكّن من إضافة سطرٍ واحدٍ إلى مسوّدة روايتي، رغم محاولاتي المتكرّرة لالتقاط الجملة التائهة. كانت أشباح محاربي القلعة تطاردني في مناماتي الغامضة، فقررتُ العودة إلى خندقي الأوّل، ونبش التراب بمعولٍ أكبر.

للجحيم فضائله أيضاً في إعادة ترتيب الفوضى.

سوف أصرفُ رصيدي من أوكسجين الجبال، وغريزة الطبيعة، والأوقـات المستقطعة للبهجة، بأسرع ما توقّعت. ما إن اقتربت السيّارة في طريق الإياب، من تخوم دمشق، حتّى أحسستُ بكآبة تضغط على روحي مثل حجرٍ ثقيل: نقطة التفتيش، وفحص بيانات البطاقة الشخصيّة، النظرة المرتابة، ثمّ البنايات المهجورة والمدمّرة، ثمّ الخوف الحقيقي من القنص في بضعة أمتار إجباريّة ينبغي عبورها في أسرع ما يمكن. ثمّ بقايا طعم قبلة مسروقة خلف صخرة على شاطئ البحر، ثمّ كتاب «الجنس والفزع» لباسكال كينار الذي ضاع في مكانٍ ما خلال الرحلة. أغوص مرّة أخرى في حفرة اليأس مثل خُلد، فقد تجاوزت المدّة المحدّدة للسيناريو، وينبغي عليّ اختراع مشهديّة أخرى أكثر كثافة، وأقلّ عنفاً، كأن أكتفي بمصير سحليّة صغيرة عالقة بين قطعتي قرميد عند حافة جدار، فهي الأخرى تخوض حربها الشرسة في البقاء.

39

لا أعلم بماذا تفكّر نارنج عبد الحميد بخصوص زيارتي المؤجلة لها منذ أسابيع؟هذه اللهفة بانتظار الزيارة، وحرصها على التأكّد من الموعد، هل كان على الخامسة أم السادسة مساءً، وهل سأجد صعوبة في معرفة الشارع، وضرورة أن أضع شجرة كينا عتيقة إلى يساري، قبل أن أدخل زقاقاً مائلاً بقوسٍ حجريّ؟ من جهتي سأنساق وراء أسئلة أخرى: هل ستتطوّر الإشارات الملغّزة بيننا إلى علاقة حميمة، لطالما اعتبرتها من جهتي مستحيلة، أم هي تفتّش عن ألفة تفتقدها لدى سواي؟ لا أريد أن أوذي جسدها بانتهاكات جديدة، ستوقظ ندوبها القديمة على نحوٍ أشدّ مرارة، فهي، كما أتوقّع، لم تخض أيّ تجربة جسديّة بعد خروجها من المعتقل، ولا أرغب في أن تكون علاقة من هذا الطراز نوعاً من العلاج، أو اختباراً لشفاء جسدها من كدمات الأذى. لكنّها، أقول لنفسي، وأنا أنزل درج النفق، سبق أن أرسلتْ لي إشارات تتعلّق بالفروقات ما بين الحبّ والاشتهاء، سواء في نقاشاتنا المتكرّرة، أو في كتاباتها التي كانت ترسلها إلى بريدي الإلكتروني. في هذه اللحظة كنت أقترب من المتر المربّع الذي استوقفت عنده هنادي عاصي، في الثلث الأوّل من النفق، بمحاذاة دكّان تعبئة العطور

الذي كان مغلقاً حينذاك، وحضنتها من دون مقدّمات. توقّفتُ قليلاً بذريعة تأمّل أنواع العطور، فيما كنتُ أستعيد رائحة هنادي، وطعم شفتيها، واضطراب عينيّ المفتوحتين على اتساعهما خشية عبور أحدٍ ما النفق المعتم.

عند بائع الزهور، استبدلت باقة القرنفل بنبتة صبّار أعجبتني. كانت نارنج ترسم إحداثيّات خريطة بيتها على الهاتف، دخلت زقاقاً ضيّقاً، وصولاً إلى باب بطلاء زيتيّ غامق، ومطرقة نحاسيّة على هيئة يد، وشجرة ياسمين تتدلّى من سور الحديقة إلى الخارج «الآن، أنا بين نارنجتين» قلت، وأنا أتأمّل شجرة النارنج التي تتوسّط الحديقة. أجابت بأسى بأنّ إحداهما غير مثمرة، ثمّ سبقتني إلى باب غرفة الضيوف، من دون غطاء رأس، أو قبّعة الصوف، أو شال يغطّي أذنيها. كنت أنظر خطفاً إلى بقايا الجرح في أذنها اليمنى، من دون تركيز، خشية إحراجها، وبقصد إخفاء اضطرابي، تشاغلت بالفرجة على المكتبة التي تغطّي حائطاً كاملاً من الغرفة، وتتوزّعها صور الجدّ الذي كان يرتدي طربوشاً، وصورة الأب بطقم وربطة عنق، وصورة الأم بتسريحة شعر تنتمي إلى سبعينيّات القرن الماضي. كانت محتويات المكتبة خليطاً متناقضاً من الكتب التراثيّة والدينيّة والفلسفيّة، وسلسلة بهجة المعرفة، والفيزياء المسليّة، وقصص للأطفال، وكتب جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وطه حسين، ونوال السعداوي، وروايات مترجمة، وكتب عن السينما. كانت نارنج قد أعدّت طبقاً من ورق العنب، وسلطة الشوندر بالجبنة البيضاء، ونبيذاً محليّاً. جلست قبالتي على كرسيّ هزّاز من الخيزران بفخذين مكشوفتين تحت جوارب سوداء مخرّمة، ولم أجد إلّا أن أرفع نخبها، مكتفياً بتعليقات عابرة على محتويات المكتبة، وتحوّلات القراءة، والشغف بكتب

السيرة والاعترافات. عند هذا الحدّ، كان علينا أن نتبادل الأدوار في تشوّش الحواسّ، والسيطرة على الهياج الحسّي. تجاهلت أوّلاً ارتعاش أصابعي، وأنا أتناول كأساً أخرى من النبيذ، مصحوبة بسيجارة حشيش كنّا نتبادلها بمتعة. أحسستُ بدوار وخدر يتسلّلان إلى أطرافي على مهل. خشيت أن أرتكب حماقة عاطفيّة، لطالما حاولت تجنّبها قبلاً، رغم إحساسي بأنّها تنتظر مثل هذه الحماقة، أو أنّها ستستجيب لها على نحوٍ ما. ولكن لماذا اكتفت بلفّ سيجارة واحدة على غير عادتها، هل أرادت إلغاء الخصوصيّة بيننا، وردم المسافة بين أطراف الأصابع، لحظة تبادل اللفافة المشتعلة؟ ثمّ أليس رفضي واستهجاني مثل هذه العلاقة ضرباً من الاحتقار لجسدها الذي «دنّسه الآخرون»؟ ثمّ هل أرادت بمداعباتها الحميمة لقطّتها، أن تكون بروفة لما ينبغي أن يحصل بيننا؟ كنت مشوّشاً، ومضطرباً ومحموماً، أحاول تركيب بازل رغباتها فوق رقعة مستوية، من دون انحناءات. ازداد الوضع سوءاً عندما أطلقت قطّتها من حضنها وفتحت لها الباب كي تخرج. نهضتُ باتّجاه المكتبة، واستللتُ كتاباً سبق أن قرأته بشغف، وسألتها إن كانت قرأت هذا الكتاب. هزّت رأسها بالنفي. كانت فرصة لي كي أحكي لها عن عظمة لويس بونويل ومذكّراته «أنفاسي الأخيرة»، مذكّراً إيّاها بفيلمه «ذلك الشيء الغامض للرغبة»، وصداقته العميقة للوركا الذي كان يسمّيه الأندلسيّ الصافي. على الأرجح، فإن نارنج لعنت بونويل وأمثاله في تلك اللحظة، فقد كانت عيناها تلمعان برغبة غامضة، وكنت مرتبكاً، كما لو أنّني على وشك الغرق. أعدت الكتاب إلى مكانه، واستأذنتها في الخروج، على أمل أن تبادر من جهتها بحركةٍ حسيّة ما، لكنّها لم تفعل، لحقت بي إلى باب المنزل، وهي تقول «لن تحتاج إلى خريطة على الهاتف كي تستدلّ إلى عنوان

البيت ثانية». نظرتُ نحوها شاكراً، وعانقتها خطفاً، ثمّ لم ألتفت إلى الوراء. سمعت حركة إغلاق الباب، وأنا أنحدر في عمق الزقاق المظلم، مثل محاربٍ مهزوم.

40

خواء!

هذا ما أحسست به، وأنا أبتعد عن بيت نارنج. كلانا حطام عواطف، وشهوات، وفزع. كنت بحاجةٍ إلى أن أتدثّر بها، وأن تتدثّر بي. جملة واحدة من معجم الأشواق، أو عناق مباغت، أو ملامسة أصابع تكفي للاشتباك وارتخاء الأضلاع، وإطفاء هذه الحمّى (هل يحتاج الأمر إلى مثل هذه المبارزة الصامتة؟). كنت قد تجاوزت شجرة الكينا، حين فكّرت في أن أعود خلفاً، وأن أتّصل بنارنج بذريعة أنّني قد نسيت علبة تبغي وولّاعتي على الطاولة، وما إن تفتح الباب، حتّى أرمّم ما كان ينبغي أن أفعله قبلاً، بملامسات صريحة، مدفوعاً بحادثة قديمة لم يعد يفيد معها الندم (ربما سأرويها في مكانٍ آخر). لن تستغرب نارنج تصرّفي، على العكس تماماً، ربّما كانت تفكّر في حماقةٍ مشابهة، وسوف تتجاهل ذريعة نسياني علبة التبغ والولّاعة، لأنّها لن تجدهما في الأصل. ستقترح أن تلفّ لي سيجارة من كيس تبغها، وسأوافق على مضضٍ، ثمّ سأدعوها إلى أن تجلس إلى جانبي، ثمّ سألمس طرف أذنها، وأقبّلها برفق. قبل أن أضمّها نحوي، كنت قد اصطدمت بعربة بائع الذّرة الذي رمقني بنظرة استهجان.

توقّفت أمام كشك لبيع التبغ وابتعت واحدة، لأنّ علبة تبغي نفدت فعلاً. أشعلت لفافة، وانحدرت باتجاه النفق نفسه. للمرّة الأولى لم أستحضر طيف هنادي في ذلك المتر المربع أمام دكّان بائع العطور، كما هي عادتي، كلما مرّرت من هناك. كنتُ غارقاً بثقل هشاشتي، بخصوص علاقتي مع نارنج، وبتلك الإعاقات الحسيّة التي ما إن أتحرّر منها قليلاً، حتى تكبّلني بحبالها المتينة مرّةً ثانية، فأهوي إلى بئرٍ عميقة بكامل اضطرابي، في حربٍ لا تقلّ شراسة عمّا يحدث في ميادين القتال، كما لم أشعر بالبهجة باستعادة المشهديّات الإيروتيكيّة المجنونة التي ابتكرتها أسمهان مشعل في غزواتها المتباعدة لي، إيروتيكيّة محمولة على عبارات ليليّة على التشات تسبق مجيئها، كنوعٍ من القصف التمهيدي، من طراز «لا تفتح تحقيقاً مع القطعان الآثمة في دمي. رطوبة أعضائي لا تحتمل المسافات بيننا». كنت قد اتّفقت مع أسمهان، من دون مراوغة، على أن تدع أسلافها الروحانيّين يرقدون في أضرحتهم باطمئنان، أثناء غزواتها لي، وأن أكون لها وحدها طوال فترة وجودها، وكأنّني لا أعرف أحداً سواها. بمثل هذا الجنون المؤقّت كنّا نضمّد آثار العزلة وندوبها وآثامها، قبل أن نذهب إلى هدنة مؤقتة. هي إلى صلواتها الروحيّة، ونباتاتها البريّة، ووحدتها، وأنا إلى تسكّعي وعدميّتي ويأسي. مثلما توقّعت، لم تقبل نارنج بهزيمتها، أو هي أحسّت بالخيبة، فقد كتبتْ على صفحتها في الفايسبوك في الليلة ذاتها «لستُ جيفةً في العراء، وأنت لستَ ضبعاً، فلا تتركني أعوي وحيدة في الليل». سأفهم أنّها تعنيني شخصيّاً بهذا البوست، وسأحسُّ بغرورٍ ما، وبارتفاع منسوب الأدرينالين في فحولتي العمياء، والنزهات الطائشة للشهوة. في المقابل، بإمكان نارنج إنكار ذلك إن واجهتها بما كتبتْ. كنّا نعْوي معاً إذاً، في كهفين تفصل بينهما مئات الأمتار لا أكثر. أغوص في

عتمة كهفي بسبب انقطاع الكهرباء، وعلى ضوء مصباحٍ شحيح، أتأمّل ظلال الثيران التي رسمها أسلافي على الجدران. تختفي اللوحات، والكتب، وشاشة التلفزيون، والأسطوانات، والسرير، وموقد الغاز، ومرآة الحمّام، والهاتف. لا حطب لديّ كي أشعل ناراً، ولا شجرة توتٍ كي أستر عورتي. الشوارع مظلمة، كأنّ المدينة خلت من أهلها. ولكن مهلاً، أهذه مدينة أم غابة وحوش؟ أنصت إلى عواء ذئاب، ونعيب غربان، وضباح ثعالب، وقباع خنازير، وزمجرة ضباع، وصفير نسور. استيقظتُ مبلّلاً بعرقي، تحت بريق نيون مشعّ. نهضتُ من سريري بصعوبة، واتّجهتُ إلى الصالة. أكملت مشاهدة فيلم وثائقي بالأبيض والأسود، كان يبثّه التلفزيون، عن الحرب العالمية الثانية. بدا لي الفيلم مسلّياً بالمقارنة مع الحروب الدائرة اليوم. لا مفخّخات في الأسواق الشعبيّة، ولا أحزمة ناسفة، ولا طوائف، ولا فتاوى، ولا براميل متفجّرة، ولا صواريخ موجّهة ليزريّاً، ولا حفلات إعدام بالسواطير والسيوف، ولا رجم نساء زانيات في الساحات العامّة، ولا أسواق نخاسة، ولا هيئات شرعيّة. إنّها حروب باسلة فعلاً، فقد كان للموت على الجبهات هيبة حقيقيّة، حين كانت الجنّة تخلو من الحوريّات، وحين كانت رسالة الجندي تصل إلى حبيبته معطّرة بالأشواق، بعد موته بأسابيع، كآخر ذكرى حميمة بينهما.

41

«للمرّة الأولى لم أستحضر طيف هنادي في ذلك المتر المربّع أمام دكّان بائع العطور». كان هذا الاعتراف كفيلاً بنسيانها، أو عتبة أولى لغيابها وتلاشي صورتها، فأن أعبر النفق بلا ذكريات تخصّها، وكأنّ رائحة عنقها لم تهبّ من طبقات الرخام، فهذا يعني تحوّلاً صريحاً في علاقتي بها، وإشارة إلى دفن مسوّدة الرواية إلى الأبد، لكنّ رسالةً غير متوقّعة وصلتني منها في الليلة ذاتها، وضعتني في منطقة الحيرة: لماذا تذكّرتني الآن، في هذا التوقيت الحرج، فيما كانت رسالتي تقبع في بريدها منذ أشهرٍ طويلة، من دون ردٍّ؟ لا تفسير لديّ خارج مسألة التخاطر الروحي، وتالياً فإن ما حدث هو محاولة من هنادي لإسعاف مسوّدة روايتي، من دون علمها بأنّني أكتب عنها وبأنّني بصدد نسيانها. كان حديثها على التشات يتعلّق بالأشواق وحدها، والحنين إلى تلك الأوقات السعيدة والمجنونة والمنهوبة، قبل أن تفرّقنا حرائق الحرب والمنافي والإخفاقات. ستتذمّر من صعوبة تعلّم اللغة السويديّة (كنت أظنّ أنّها تعيش في مونتريال لا في مالمو). استدرجتها إلى تلك القبلة المسروقة في النفق، لكنّها تجاهلتها، حين أشارت إلى توقها لصعود درج بيتي مرّة أخرى، وإلى أنّها الآن تستحضر

الشارع كاملاً بكلّ تفاصيله، وتنهب الرصيف بخطواتها المرتبكة، كما حدث حين التقينا في المرّة الأولى، في يومٍ مشمس. سأذكّرها بوجع الانتظار أمام موقف الباص المجاور لقسم الشرطة في ساحة باب توما، وبالسلّم الذي يقود إلى العليّة في غرفتها، وبشبق ملامساتنا الأولى. أعمالها الجديدة التي أرفقتها في ختام حديثنا الليلي المتأخّر، في ملفّ خاصّ، طرأت عليها إضافات لم تكن جزءاً من مفرداتها قبلاً. غراب يسقط شاقولياً فوق رأس امرأة، وصناديق مفتوحة على هيئة توابيت لدمى محطّمة الأعضاء، مزيج من صور فوتوغرافيّة، وأقمشة، وأوراق نعي، وريش غربان، وصرّة ملابس، وحقائب مهجورة.

«ما أفتقده هنا، هو تلك النزهات إلى دكاكين الأقمشة في سوق الحميديّة. لا أحد هنا يمنحك بقايا الأقمشة مجّاناً، كما كانوا يفعلون في الشام، أفتقد أقمشة ثياب الفلّاحات المطرّزة بالورود، وأفتقد هواء الشام، وحجارة شوارعها، وأندم على أنّني لم أكن أقطع المسافة بين ساحة باب توما وبوابة الصالحية مشياً على الأقدام». كانت تلك عبارتها الأخيرة، قبل أن تنهي الدردشة فجأة، وتطفئ الضوء الأخضر. على الأرجح، كانت هنادي تنتحب في وحدتها.

42

كعادتها في المباغتة، اتّصلت أسمهان بي، لتخبرني بأنّها الآن أمام مسرح الحمراء، وستحجز لي مقعداً، لحضور حفلة موسيقيّة لفرقة «مُخْمَل». كانت الساعة تقترب من السادسة مساءً، وكنت غارقاً في قيلولة متأخرة. اعتذرتُ عن حضور الحفلة، على أن نلتقي بعد خروجها من المسرح. عـاودتْ الاتصال بعد نحو ساعة ونصف، فاضطررتُ للخروج، مغالباً كسلي وقنوطي وكآبتي. اتّجهنا إلى مقهى قريب من المسرح، وكانت ثملة بالموسيقى إلى حدّ الغيبوبة. بمراوغات لاحقة، أقنعتني بالذهاب معها إلى باب شرقي مشياً على الأقـدام، على أن تكمل طريقها إلى جرمانا بصحبة صديقتها جمانة سلّوم التي كانت في مهمّة تصوير هناك، في متجر للأنتيكا والفضيّات. كنتُ في مزاج خاسر، فلم أستجب لمحاولاتها في الرقص فوق الرصيف، بعد أن أمسكت بيدي ودارت نصف دورة غير عابئة بحركة الشارع، أو جنود الحواجز، أو أصحاب الدكاكين. أشارت ببهجة إلى القمر المكتمل، ونحن نعبر سور المقبرة، ثمّ إلى شجرة كينا عالية. قلت لها «ولكنها تتوسّط مقبرة». توقّفت فجأة واستدارت نحوي، وهي تثبّت كتفيّ بيديها «عليك أن تهتمَّ بالشجرة لا بالمقبرة»، ثمّ أضافت بما يشبه

الاستجواب «ألم يسبق لك أن عانقت شجرة؟». أجبتها بالنفي، رغم أنني فعلت ذلك مراراً، وذكّرتها بأنّ محمد شكري في كتابه «الخبز الحافي»، كان يضاجع شجرة لفرط وحدته. «تبّاً لك»، ثمّ سبقتني بخطوات عجلى في عتمة شارع بغداد تعبيراً عن سخطها. لحقتُ بها عند منعطف ساحة التحرير، وتأبّطت ذراعها، في محاولة لتحسين المزاج، والانخراط في ألعابها العبثيّة. «عليك أن تخرج من قوقعتك»، قالتها بما يشبه النصيحة، ثمّ «أنا من ستعلّمك الطيران»، ثمّ «عليك بالهرولة أولاً». استجبتُ لتعليماتها بصمت، وهرولتُ وراءها على الرصيف المعتم بخطوات مرتبكة تنقصها النشوة، وكأنّني في تمرين على نفض الغبش المتراكم عن عينيّ لفرط اليأس، تمرين على طعن وحشة العيش، وخلع رداء الحكمة. قبل حاجز ساحة باب توما، توقفنا عن الهرولة، وعبرنا الحاجز بصمت، قبل أن تبادرني «آمل أن تكون جبيرة الجبس التي تلفُّ جسدك وروحك قد تصدّعت قليلاً». هززت رأسي موافقاً، مثل مريض في مرحلة النقاهة، وأنا أضغط بيدي على يدها، واستعرت عبارة لا تشبهني في تلك اللحظة: «أنا حصان برّي». ضحكت بسخرية. «وأنا فرس بلا لجام، ولكن ليست لك». الشارع الأليف والصاخب بحوانيته وحاناته وكنائسه، كان معادياً ومعتماً وموحشاً، فما إن قطعنا أمتاراً قليلة، صعوداً إلى حديقة القشلة، حتّى اصطدمنا بحاجزٍ آخر. فتّش العسكري حقيبة أسمهان بلا اكتراث. عندما وصلنا إلى عتبة متجر الأنتيكا، طلبت منّي أن انتظرها قليلاً في الخارج، ثمّ اقتحمتْ المكان، من دون أن تسمع إجابتي. تشاغلتُ بتأمّل خواتم الفضّة، والأطواق، والأساور، في الواجهة الزجاجيّة للمتجر (لو لم تنسَ نارنج خاتمها الفضّة عند طرف المغسلة، في ذلك الصباح المشؤوم من نيسان). من وراء الزجاج لمحت أسمهان، وقد وضعت طوقاً من الفضّة حول عنقها، فيما كانت جمانة تلتقط لها صوراً متتالية،

ثمّ وهي تضع يدها على صدرها، بعد أن زيّنت الإصبع الوسطى ليدها بخاتم فضّة تتوسّطه خرزة خضراء، أشارت لي، من وراء الزجاج، بأن أنتظر قليلاً. كانت جمانة تجمع عدّة التصوير في حقيبة جلديّة كبيرة، ثم خرجتا معاً. صافحتني جمانة بحرارة، وكأنّها تعرفني قبلاً. أحاطت أسمهان كتفي بذراعها، وطلبت من جمانة أن تلتقط لنا صورة أمام واجهة المتجر بعدسة هاتفها الخلوي.

كنت أهمّ بتوديعهما مباشرةً، لكنّ أسمهان أصرّت على أن نتناول كأساً من النبيذ في الحانة المجاورة. «تحتاج إلى النبيذ كي تتخلّص من بقايا جبيرة الجبس. هذه نصيحتي لك». ابتسمت جمانة، وبدا أنها تعرف حكايتي مع أسمهان. وجدنا طاولة في الركن الداخلي للحانة، بالقرب من البار. كان جدار البار الذي يحاذي الطاولة محشوّاً بكتابات وخربشات وتواقيع من عبروه يوماً. لفتتني عبارة مكتوبة بالأحمر «ليس لي ذنب سواك». ردّدتها بحسرة، ثمّ اقترحتُ على أسمهان أن تغمض عينيها وتضع إصبعها على الجدار لمعرفة حظها من هذه الكتابات المجهولة الأسماء. حرّكت يدها ببهلوانيّة ثمّ ثبّتت سبّابتها على نقطة من الحائط. كانت العبارة المكتوبة بخطٍّ نزق «يضاجعني ظلّي». ضحكنا من محتوى العبارة، وكان على جمانة أن تنهض عن كرسيّها وتقترب من الجدار، فوقع اختيارها على عبارة «لم أزل أرتكب الحياة». بمشيئة مزاج المكان، وسطوة النبيذ، أحسستُ بغبطة مفاجئة، وبأنّني كسرتُ قشرة البيضة قليلاً، على الأرجح بسبب تعرّفي إلى جمانة سلّوم عن قرب، فقد سبق أن حدثتني أسمهان عنها بشكلٍ عابر، لكنّني لم أتوقّع أن تكون بمثل هذه الجاذبيّة والفتنة والسحر. بدأتُ مناوشاتي معها بسؤال اقتبسته من العبارة التي كانت من نصيبها، ولا أعلم من هو صاحبها الأصلي «هل ترتكبين الحياة حقاً؟» أجابت بعد تفكير «نصف ارتكاب»، ثم أضافت «أمّا

النصف الثاني فترتكبه عدسة كاميرتي». قاطعتها أسمهان بأن طلبت منها أن تريها الصور التي التقطتها لها في متجر الفضّيات. أخرجت كاميرتها من الحقيبة، وعرضت بعض ما التقطته، ثمّ التفتت نحوي «أعوّض خسائري بالتقاط الصور». وجّهت عدستها نحوي والتقطت صورة لي. كان أحد المخمورين يجلس وحيداً إلى الطاولة المقابلة، وقد ارتفعت نبرة صوته، فالتفتنا نحوه. كان يكلّم نفسه باحتجاجات خشنة وشتائم بذيئة للحياة التي خطفت حبيبته، ثمّ نهض بخطوات متثاقلة. أسند جذعه إلى حائط الذكريات، وهو ينوح «أين ذهب هؤلاء جميعاً، لماذا تركتم هذه الجّنة للأوغاد والقوّادين» ثمّ خبط يده فوق إحدى الخربشات «لماذا تركتِني وحيداً يا سلمى، لماذا أيّتها القحبة، أنا أموت كلّ يوم، أتعلمين؟».

اقترب البارمان منه، وأمسك به من ذراعه، محاولاً سحبه إلى الخارج، لكنّ الشابّ المخمور دفعه عنه بكلّ ما بقي لديه من قوّة، ثمّ تكوّم على كرسيّه، وأخذ ينتحب. التفت البارمان نحونا معتذراً «هذا الفيلم يتكرّر كلّ أسبوع، في مثل هذا اليوم، وهو ذكرى سفر صديقته إلى اسطنبول».

– ولماذا لم يسافر معها؟ سألته أسمهان.

اقترب منها، وهمس:

– ماذا تفعل بشخص مخمور على الدوام مثله؟

غادرنا الحانة في حدود العاشرة والنصف ليلاً، ثمّ افترقنا عند قوس باب شرقي.

ليلاً، خلال جولتي في الفايسبوك، فتّشتُ عن الصفحة الشخصيّة لجمانة سلّوم. كانت الصفحة مخصّصة للصور، تحت عنوانٍ واحد «بعدستي». صور تتعلّق بأشخاص في حالات انتظار: عند موقف باص، أو أمام عتبة بيت، أو في مقهى، رجل رثّ مكوّم على

رصيف، امرأة تضع لافتة أمامها تفيد بأنّها مهجّرة. هناك صور تجمعها بأسمهان على طريق ريفي محفوف بزهور بريّة وبقايا عشب. عبارة «علاقة معقّدة» الموجودة في خانة المعلومات الشخصيّة، أصابتني بخيبة طارئة، وبمغص في أمعائي، إذ لم أتوقّع أنّها عالقة في منطقة عاطفيّة ملتبسة، كما أنّ أسمهان لم تخبرني شيئاً بهذا الخصوص. لم أشأ أن أرسل لها طلب صداقة. كنت أنتظر مبادرتها هي، استجابةً لمرض ذكوري متوارث، يمنعني من المجازفة والاستعجال في اقتحام حياة أنثى تعرّفت إليها توّاً، فالأمر يتعلّق بفروسيّة غامضة، وأوهام، وارتباكات، تستعصي على الشرح. الفرصة ستأتيك مهما تأخّرتْ، أخاطب نفسي، باطمئنان ثعلب يراقب قنّاً مفتوحاً للدجاج (ستربكني فكرة الثعلب، وسوف أتراجع عنها على الفور، بغياب أيّ حيثيّات تشير إلى خصوصيّةٍ ما، تشدّها نحوي، في لقاء قد يكون عابراً، وقد لا يتكرّر ثانيةً. تراجعت عن نصب فخاخي بتأثير فكرة أخرى داهمتني بخصوص روايتي التي لم تكتمل. لمَ لا تكون حياة جمانة سلّوم هي الجزء الناقص من الرواية، بغياب هنادي عاصي، حتّى بعد محادثتي الأخيرة لها على التشات؟ إذ بدا لي في حينها أنّها استهلكت فكرة الحنين، ولم يعد لديها ما يفيد في ترميم الحكاية المبتورة قسراً).

فكرة وجود مصوّرة فوتوغرافيّة كشخصيّة روائيّة، تبدو لي مغرية جداً، خصوصاً في بلاد تعيش حرباً عنيفة، تفرز يوميّاً مئات الصور، في مطحنة لا تتوقّف عن الدوران.

43

لم يخطر في بالي أن تضع أسمهان على صفحتها في الفايسبوك، الصورة التي التقطتها جمانة سلّوم وجمعتنا معاً أمام متجر الفضّيات، مرفقة بتعليق يثير الريبة «ذات جنونٍ ليليّ»، إذ لطالما كانت حذرة من وجود أيّ خيط يربطنا معاً، أمام الآخرين، عدا الألفة التي لا تحمل أيّ خصوصيّة عاطفيّة، لكنّ نوبات الطيران التي تداهمها بغتة، تسمح لها بالتحليق في منطقة اللاجاذبيّة. وسأنتبه إلى وجود «لايك» باسم نارنج عبد الحميد. سأعتبر مثل هذه الإشارة ضرباً من الفكاهة الأنثوية، بمعنى «إنّني هنا»، أو «إنّني أراقبك»، وإن وضعتُ الأمر في باب الغيرة، فسيكون المعنى «إنّك تثير حنقي». من جهتي، وفي مراجعة دوريّة لسوء أو حسن تصرّفي تجاه موقفٍ ما، أدركتُ أنّني ضحيّة نموذجيّة لمطحنة العنف. عنف الجمال المدمّر من جهة، واهتزاز قناعاتي في ظلّ عنف حرب طويلة، هزّت قيم الحبّ والصداقة والحميميّة من جذورها، فأيقظت فيّ، على مراحل، سلوكيّات لا تشبهني، من جهةٍ أخرى، كأن تعمل الغريزة وحدها، من دون محاكمات عقليّة رصينة، وتالياً أن أتمكّن من تبرير أيّ علاقة شهوانيّة باعتبارها طوق نجاة مؤقّتاً، من تبعات حرب قذرة، وتشبّث بأيّ نسمة حياة تهبّ بلا مقدّمات،

وإلّا فما معنى أن أشتهي جمانة سلّوم بوجود أسمهان مشعل التي كنت مغرماً بها، قبل ساعة واحدة فقط، حتى بعد علمي بأنّ جمانة على «علاقة معقّدة» مع أحدهم، وأن أطيح صورة هنادي، بمجرّد عودتي من زيارة نارنج في بيتها، وأن أتصرّف بحياديّة تجاه قصّة حبّ قديمة، صادفتُ صاحبتها في الشارع، بعد سنوات على انتهاء تلك العلاقة، وكأنّنا غريبان، التقيا في سوبرماركت، وتبادلا حديثاً عابراً عن أفضل أنواع الأجبان مثلاً، ثمّ افترقا مثل غرباء؟

هناك أيضاً، تلك الحمّى الليليّة، والخرائط الافتراضيّة العابرة للحدود، وعطش النساء الوحيدات، وكيف تتحوّل الرسائل الإلكترونيّة إلى عقاقير مؤقّتة لإطفاء الشهوة، كأن تكتب «ميم. ألف»: «أحسّ بأنّني أحمل ممنوعات في جسدي، لا شفتين ونهدين. أحتاج إلى فم وكتفين للعناق. جسدي ثرثار. جسدي سيقتلني يوماً». كنت أنخرط أحياناً في دردشات حذرة مع صديقات افتراضيّات لا أعرفهنّ شخصيّاً، ليس بسبب الضجر وحده، بل لأسباب سوسيولوجيّة (هكذا كنت أقنعُ نفسي)، ذلك أنّ مثل هذه المكاشفات تنطوي في العمق على أحوال جسد محروم، يعوّض خساراته الحسيّة ببورنوغرافيا افتراضيّة لا تحمّله وزر الخطيئة الدامغة أو الإثم، ما دام سيفصل «نهار العقل» عن «ليل الجسد»، وتالياً فإن التسكّع «بنعالٍ من لذّة» لن يؤذي صاحبته أو صاحبه، في مرآة النهار، بل يخفّف عملياً من أثقال الحرمان بشطط شهوانيّ مؤقّت، يدفع عربة الضجر إلى الهاوية، وكأنّ الحرب لم تقع، ولم تطحن مسامّ الجلد، مثلما يحدث لذبيحة في مسلخ بمنشار كهربائي، وأن تموت من دون شهقة واحدة. لكنّ «نزهة الخاطر» هذه، لا تتمّ بنجاحٍ على الدوام، مهما كنت مراوغاً، ومهما كان معجمك للإغواء نفيساً. هناك من ستقول لكَ «لقد وضعتَ طابع بريدك على العنوان الخطأ»، بصرف النظر عن جسارة ما

كَتَبتهُ لك، وظننتَ واهماً أنّه يقع في باب الانتصاب، مثل «صمتكَ يعرّيني».

لم تكتفِ نارنج بالتعليق على الصورة، إذ نشرت على صفحتها، بعد دقائق، ما يفيد بأنّها تخوض حربها الخاصّة، في المنطقة الفاصلة بين الرسائل الملغّزة، والسخط ممّا ترتطم به كلّ يوم من قبح وزيف و«أكاذيب»، ففي صباح اليوم التالي، لم تكن على ما يرام، لتصوير فيلم «بلاد نصف نعل» في قصر محمّد علي العابد، فقد أعدنا تصوير بعض اللقطات نحو سبع مرّات، بسبب شرودها خلال تصويرها الفيلم، قبل أن تعتذر وتنسحب من الموقع، فكان على أعضاء الورشة تأجيل التصوير ليومٍ آخر، رغم صعوبة تهريب الكاميرا والمعدّات من حواجز التفتيش، مرّة ثانية، لصعوبة الحصول على موافقة رسميّة على التصوير.

44

الشاشة المنصوبة على جدار مائل في أحد المقاهي المكشوفة في حيّ ساروجة، كانت تبثّ شريطاً مصوّراً عن حفلة إعدام جنود في منصّة مسرح مدينة تدمر التي استولت عليها جماعة تكفيريّة منذ أشهر. علّق أحد أعضاء ورشة كتابة السيناريو على المشهد متهكّماً «نحتاج إلى براعة هؤلاء القَتَلة في التصوير»، فأجابه آخر «على أن تكون أحد هؤلاء المكتوفي الأيدي فوق المنصّة، وستكون لقطة بارعة حقاً، وأنت تتلقّى ضربة سيف على عنقك».

انعطفتُ نحو ساحة يوسف العظمة، فيما أكمل أعضاء الورشة طريقهم باتّجاه موقف الباصات تحت جسر الرئيس. طوال الطريق إلى مقهى الروضة، كنتُ أعقدُ مقارنةً بين مشهدين متنافرين، وقد ازداد يقيني أنّهما يختزلان أحوال هذه الجغرافيا الملعونة: مشهد قوافل طريق الحرير في رحلتها من آسيا الوسطى مروراً بمدينة تدمر نحو البحر المتوسّط، محمّلة بالحرير والتوابل، والبخور، والقرفة، والزنجبيل، والزعفران، والأحجار الكريمة، والمشغولات اليدويّة، وهيجان اللغات والأفكار والنصوص، ومشهد غزو هؤلاء البرابرة للمدينة ونهب كنوزها، وتحطيم تماثيلها وأوابدها، لمحو طريق

الواحات، وتحويله إلى طريقٍ صحراوي للموت، وتهريب الآثار، خلافاً للتسمية التي أطلقها الرحّالة الألماني فرديناند فون ريتشهوفن، في منتصف القرن التاسع عشر على هذا الطريق الحيوي للقوافل.

طريق الحرير مخضّبٌ بالدم، والسيف على العنق، بدلاً من قوس الكمان في المدرّج الأثري. ينفر الدم، ثمّ يسيل على مهلٍ باتّجاه الدرج، فيما يصعد السلّم الموسيقيّ عالياً، بمشيئة نوتة عمرها نحو ألفي عام. تتنازعني سيوف البرابرة، وعصا المايسترو، في مشهدين يتلاطمان في رأسي، إلى أن أدركت عتبة باب المقهى.

اتّصلتُ بنارنج للاطمئنان عليها، فلم ترد على مكالمتي. أحسست بقلقٍ غامض نحوها، لكنّها ستتّصل بي بعد مرور ساعة على اتصالي، وكنت قد غادرت المقهى. أخبرتني بأنّها كانت تزور قبور عائلتها في مقبرة الشيخ محيي الدين، وأنّها لم تنتبه إلى رنين هاتفها، ثمّ أضافت بعتب «ربّما كانت مسامرة الموتى أكثر عزاءً من مسامرة الأحياء».

كنت في المطبخ مشغولاً بإعداد طبق من المعكرونة، فيما كان طيف هنادي يزاحمني أمام الفرن، صورتها وهي تغلي القهوة، ووعدها الذي لن يتحقق بخصوص دعوتي إلى طبق من المعكرونة بالبيشاميل. بسبب الجوع والمزاج السيّئ، لم أعلّق على ما قالته نارنج، فأنهيت المكالمة كيفما اتّفق، على أن نلتقي غداً، في موقع التصوير، وأن تكون بمزاج رائق. في هذه الأثناء اندلقت كمّية كبيرة من الفلفل الحاد في الطبق، لكن اختلال النكهة لم يؤثّر على شهيّتي في التهام الوجبة، معلّلاً ما حصل باختلال كلّ مجريات حياتي، واختلال خريطة بلاد بأكملها. الأمر يتجاوز خطأً بسيطاً مثل تحضير طبق معكرونة بكمّية كبيرة من الفلفل الحارّ، فحبال الوقت تتأرجح وتهتزُّ وتنقطع، في سيرك مفتوح على الكارثة.

45

بطعم الدفلى، تجرّعت خبر انتحار نايا مروان مع قهوتي الصباحيّة. كنت قد التقيتها مرّة واحدة، في مقهى الروضة، بصحبة مخرج سينمائي صديق، أتت لوداعه قبل سفرها. لم أهتمّ لوجودها كثيراً، قبل أن يخبرني صديقي بأنّها تكتب قصصاً «خارقة». التفتت نحوي وقالت بجديّة وثقة لا تتناسبان مع عمرها ونحول جسمها «أكتب قصصاً عن مجانين مثلي». بدا من نبرة صوتها وبريق عينيها، وحركة أصابع يديها، وكأنّ الجنون أمر مألوف واعتيادي إلى الدرجة التي لا يحتاج فيها إلى توضيحٍ إضافي، فأبديت رغبتي في قراءة ما تكتب. هزّت رأسها بوعدٍ غامض لن يتحقق.

الخبر الذي تداولته المواقع الإلكترونيّة في شبكة الانترنت يؤكّد أنها انتحرت شنقاً داخل غرفتها في مدينة كيب تاون. على طريقة المنتحرين الأشدّاء، تركت رسالة قصيرة مكتوبة بالإنجليزيّة، موجّهة إلى صديقها في دمشق تخبره بانتحارها، وأنّها ستفتقده بشدّة، وسوف ترسل صاحبة المنزل رسالة طويلة على العنوان الإلكتروني الذي أودعته نايا في السطر الأخير من الرسالة، توضّح فيها حيثيّات انتحارها، والأسباب التي أوصلتها إلى هذه اللحظة المفجعة.

بعد مراسلات واتّصالات مع من كان مقرّباً من نايا، حصلت على نصّ الرسالة، وهنا ترجمتها كما وردت حرفيّاً:

«ببالغ الأسى أكتب لكم عن موت نايا، وأعلم أنّ هذا قد يسبّب لكم صدمة عميقة، وتساؤلات عدّة، سأحاول الإجابة عنها قدر استطاعتي.

كانت نايا واثقة من نفسها إلى حدود الاعتداد، ومستقلّة جداً، ترفض أن يتحمّل الآخرون عبء الصعوبات التي تمرّ بها، والتي لم تعبّر عنها أبداً.

في صباح الثلاثاء أنهت نايا حياتها شنقاً للأسف.

استأجرت نايا غرفة في منزلي، وأقامت معنا، أنا وابني كاي. أحببناها كثيراً، فقد كانت شخصيّة نادرة، مشرقة، سخيّة، مرحة، ومحبّة. كانت فخورة بنفسها، ومتواضعة، تحلم أن تصير أعظم مخرجة سينمائيّة في العالم. كان حدسها تجاه الأشياء قويّاً، وكانت آلام الآخرين جروحاً في قلبها، لها ذائقة فريدة في اللون والأفكار والآراء التي لا حدود لها، مهووسة بمعضلة كيفيّة خدمة الآخرين في عالمٍ سيّئ. امتزجت أفكارها بأفكار وجوديّة.

أمضت وقتاً صعباً خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة. كانت تعاني من تقلّبات مزاجيّة حادة. تنام طويلاً، ولم تعد لديها شهيّة للطعام. بعد عيد ميلادها الحادي والعشرين، أخذت جرعة زائدة من الحبوب المنوّمة، وتناولت كمّية من الديتول إلّا أنّ سيّارة الإسعاف وصلت لتقلّها في الوقت المناسب. لم يكن أحد يتوقّع ما سيحدث مع نايا، إذ سرعان ما هربت من المستشفى. بعدما أقنعها أصدقاء لها باستكمال علاجها، وافقت على العودة ثانيةً. أمضت الشهر التالي بين أكثر من مستشفى، وكان تشخيص الأطبّاء يشير إلى مرض الفصام أو الاضطراب الثنائي القطبيّة، لتستقرّ أخيراً في وحدة نفسيّة خاصّة،

وبدا أنّها على ما يُرام. أخبر الطبيب والدها، المقيم في مدينة جدّة، بحالتها المرضيّة، وحين اكتشفت ذلك، غضبت كثيراً، فخرجت من المستشفى، من دون أن تكمل علاجها. عاملها الأطبّاء والممرّضون والمرضى، على حدٍّ سواء، مثل المشاهير، مفتتنين بها وبسحرها. من الواضح أنّها شغفت قلوبهم وجلبت شيئاً ما لحياتهم، كان لها حقاً أثر مميّز على المحيطين بها.

لا تريد أن تصدّق مرضها، ولكنني أعتقد أنها كانت تهجس به. تمكّن اليأس من الانزلاق إليها كعواصف رعديّة، محبطاً كلّ الأضواء. لكنّها أرادت أن تقاتل مثل محارب صغير خائف، الحكمة والذكاء رمحه العظيم، يخترق به الظلام ويشعل ضوء العالم من جديد. أضحت نايا على ما يُرام لفترة من الوقت، ورتّبت الخطط لحياتها المقبلة، فاتّبعت دورة تدريب في أفضل شركات كيب تاون للأفلام، وسعت للانخراط في مدينة اسكواش لتدرس السينما في العام المقبل. لكنها تحطّمت فجأة، وطوت الفكرة.

عاشت هنا بين بشر طيّبين اهتمّوا بها إلى حدّ كبير، وأظنُّ أنّها كانت سعيدة بيننا. بقدر ما أنا على علم بأنّه لم تكن هناك حادثة واحدة محدّدة أدّت إلى انتحارها، لكن اليأس والظلام جرفاها بين حين وآخر، تحت ثقل تساؤلات لا نهاية لها. لماذا نحن هنا؟ ما هو الهدف من كلّ ذلك؟ إن الفراغ التابع لخطى التفكير هذه قد يكون ساحقاً.

تحدّثنا أخيراً عن هذه الأمور، وكانت محبطة إذ لا توجد إجابات حاسمة لأسئلة تلاحقنا في كلّ الأوقات خلال الحياة. نعيش لأجل اكتساب المهارات أو لاكتشاف العاطفة أو لملء أيّامنا، أو الاستيلاء على لحظة فرح خاطفة. بعد رفض وتردّد، اعترفت للمرّة الأولى بأنّها قد تكون مريضة، وأنّ الأطبّاء ربّما كانوا على حقّ. حتّى

تلك اللحظة كانت رافضة بشدّة أيّ ذكر لمرضها. ورغم إدراكها هذا رفضت العودة إلى المستشفى.

قد تكون نايا عنيدة حين أوقفت الدواء. لكنّها انخرطت في موجة تأمّل أدخلتها في منطقة الخطر، وكان علينا جميعاً الوقوف إلى جانبها. كانت تتأرجح بين اليقين والأمل، يساعدانها حيناً، ويغضبانها طوراً، وتمضي الوقت ذهولاً بينهما.

كانت شجاعة، جميلة وعميقة جداً، تحدِّث قلبها على الدوام، لسنوات عديدة لم ألتقِ عقلاً حادّاً واسعاً كعقلها.

أساءني أن أرى العالم سائراً على قدميه، والسماء لم تسقط من علاها بعد غيابها. ألا يعلم الكون حجم المحبّة الذي يكنّها الجميع لها؟ رغم أنها كانت غريبة الأطوار، وكثيراً ما وضعتنا في مواقف لا تُحتمل، كان من السهل الغفران لها ومحبّتها في كلّ الأحوال. الحزن عميق لفراقها، تأسّفَ كلّ منا على الأشياء التي كان يمكنه القيام بها، أو يُفترض أن يقوم بها ولم يفعل.

لا أعرف كيف جرى ما جرى، أتمنّى لو أنّي حلتُ دون ذلك، أو أنّي رأيت الأمور أوضح، وغيّرت مجرى الأحداث.

أتمنى لو أنّ نايا لا تزال هنا

هذا هو الوضع الرهيب

أنا آسفة جداً».

46

أن تنهي شابة في الثانية والعشرين من عمرها حياتها بحبل حول العنق في بلادٍ بعيدة، أمر يفوق الاحتمال، أو التفسير، أو الصبر. وسيكون للخبر وقع أشدّ ألماً، حين علمتُ بأنّها مرّت قبلاً بتجربة انتحار فاشلة. هذه المرّة ستحدّد توقيت موتها بدقّة أكبر، من دون عوائق، في تلك الأقاصي البعيدة، فقد كان لديها، في وحدتها، الوقت الكافي لتنفيذ ما عزمت عليه. هكذا طوي الخبر سريعاً أمام أهوال أخبار يوميّة أخرى، في مطحنة وكالات الأنباء والمواقع الإلكترونيّة، لفرط مجّانيّة الموت وغزارته وتنويعاته. لم أكن قد شاهدت دورها في الفيلم الوحيد الذي شاركت فيه، قبل سفرها بثلاثة أشهر، فسعيتُ إلى مشاهدته مع أعضاء ورشة السيناريو، بعد أن حصلت على نسخةٍ منه. في الشريط كانت تتقمّص روح فتاةٍ أخرى غرقت في البحر، في زمنٍ آخر. علّق أحدهم بقوله «ربما ستتقمّص روحاً أخرى، في حياتها الجديدة، وتبحر ثانيةً». كان اختيارها الموت على هذا النحو، هو أقصى ما تستطيع فعله فراشة ناحلة مثلها في باب الاحتجاج على ما تعيشه البلاد من مذابح، وانتهاكات، وفجائع، وخسارات شخصيّة، وقصّة حبّ محبطة بالطبع. استعدتُ ما قالته نارنج تعليقاً على حادثة الانتحار «صار لدينا في

الأرشيف ثلاث حوادث انتحار، لن نتوقّف عن العدّ بعد اليوم». ربّما تفكّر هي الأخرى بنهايةٍ مشابهة لنهاية نايا، فقد لازمتها في الأسابيع الماضية نبرة تشاؤم في كلامها، وميل إلى العزلة، ونزق، ثمّ لماذا زارت مقبرة عائلتها قبل أيّام، وما معنى العبارة التي كتبتها على صفحتها في الفايسبوك «أنا امرأة بلا معنويّات، واهية مثل خيوط العنكبوت التي تعشّش في أضلاعي»؟ سأطرح هذه الأسئلة على نفسي، ثمّ سأهربُ من الإجابة، معوّلاً على صلابة روحها في مواجهة مصائبها المتعاقبة. الآن أستعرض صور نايا ورسومها في الصفحة التي أطلقها أصدقاء لها على موقع الفايسبوك، سأتوقّف طويلاً أمام عمل ينبئ بما كانت تفكّر فيه. كانت تقف داخل خزانة ثيابها برداء أسود، وبعينين مذعورتين، إلى جوار بزّة رجاليّة سوداء معلّقة بمشجب، وحبل يتدلّى من سطح الخزانة، كما لو أنّهما في تابوتين متجاورين. لم يكن عرساً، كما كتبتْ في تعليقها على الصورة، فهذا مأتم، أو حفلة تأبين معلنة، وجرس إنذار لما سيحدث من مآتم لاحقة. العروس نفسها بردائها الأسود، ستحيط جيدها، في صورةٍ أخرى، بحواف رغيف خبز على هيئة طوق. الرغيف نفسه، سيحمل، في صورة ثالثة، عقربي ساعة تشير إلى الثانية عشرة تماماً، في إشارة إلى ساعة الصفر للجوع، وسوف ترسم براويز لوجوه محاطة بإشارات الحداد، وامرأة تحلّق عالياً كما لو أنّها طائرة ورقيّة بيدي طفلٍ يقبض على الخيط بذهول. ستتسرّب حكايات مبتورة عن حياتها، في تعليقات خاطفة، تخصّ محاولة انتحارها الأولى، فقد رجّح أحدهم أنّ السبب يتعلّق بصدمتها من قرار المعهد العالي للفنون المسرحيّة، عدم قبولها في قسم التمثيل في المعهد، وهو ما جعلها تهاجر إلى كيب تاون لدراسة السينما هناك. وكتب أحد الذين عملوا معها في الفيلم، على الصفحة التي أنشأها أصدقاؤها على الفايسبوك متسائلاً «أخبرتني نايا يوماً، بأنّها تكتب رواية، لكنّني لا أعلم هل

أنهت كتابتها أم لا؟». وسيلمّح أحد المعلّقين بأنّ استعجالها الانتحار أتى على خلفيّة خيبة عاطفيّة عاشتها مع فنّان تشكيلي يكبرها سنّاً، بما يوازي ضعف عمرها، لطالما عاملها بعجرفة، وعدم اهتمام.

«ربما ستجد لغز انتحار نايا لدى صديقها القديم «ميم – سين». لديه محترف في حيّ القيمرية، بعد مقهى النوفرة بمئتي متر، في أول زقاق لجهة اليسار». هذا ما أجاب به أحمد ناظم، أحد أعضاء الورشة القدامى، ردّاً على رسالتي له، من مكان إقامته في اسطنبول، بخصوص ما لديه من وثائق تتعلّق بحياة نايا مروان، فقد كان ينوي تحقيق فيلم قصير عنها، لكنّ اضطراره للهجرة، أوقف مشروعه، كذلك وعدني بإرسال كلّ الملفّات التي لديه، بما فيها كتابات لنايا مروان كان قد حصل عليها أثناء فترة تحضيره لمشروع الفيلم.

لم تمانع نارنج مرافقتي إلى المحترف، لكنّها أبدت استغرابها من اهتمامي بالحادثة إلى هذه الدرجة! أجبتها، ونحن نقترب من الزقاق الذي يقع فيه المحترف «علينا أن نبتكر قصصاً قابلة للعيش، حتى لو كنّا سنروي قصصاً عن الموتى». توغّلنا في أول زقاق على الجهة اليسرى من الشارع، ثم أضفت وأنا أضع يدي على كتفها، محاولاً كسر صمتها «ما نحاوله الآن هو إزاحة التراب عن الجثمان، على أمل أن نحلّ خدعة الموت». الصدمة الأولى التي واجهتني في اقتفاء أثر نايا، هي اختفاء صديقها. كان الرجل الذي فتح الباب بلحية مبعثرة، وقلم رصاص فوق أذنه اليمنى، وسيجارة بين شفتيه، لا يشبه الصورة التي رسمتها عن الشخص الذي أبحث عنه، ذلك أنّ هيئته الرثّة لا توحي على الإطلاق بأنّه رسّام، وهو لم يخيّب ظنّي فعلاً، فقد أجاب بجلافة أن «ميم. سين» سلّمه المحترف وسافر خارج البلاد منذ أشهر. بدت الفسحة السماويّة للمكان من الداخل، مستودعاً للأنقاض، أبواب وشبابيك وجذوع أشجار معمّرة، وخردة، وزجاجات

كحول فارغة، وسينهي الرجل المقابلة بقوله إنه نجّار متخصّص في صناعة التوابيت وليس لديه أيّ معلومات إضافيّة تفيدني خارج اختصاصه.

– ما العمل الآن؟ قالت نارنج بعدم اكتراث.

– أظنُّ أن الإجابة الحاسمة تكمن في مخطوط رواية نايا المفقودة.

– ولكن هل يستحق الأمر كلّ هذا العناء؟

– أؤمن بما قاله ماريو بارغاس يوسا، بأنّنا نطارد القصص كي نتحرّر منها.

47

كان نوعاً من فقدان الأمل، أكثر منه حصافةً في السلوك، أن أدّعي نسيان جمانة سلّوم وفتنتها الطاغية، بعد ذلك اللقاء اليتيم في الحانة بصحبة أسمهان مشعل، إلى أن فاجأتني بعد غياب، بإرسال ثلاث صور إلى بريدي الخاصّ، في صفحتي على الفايسبوك، كانت قد التقطتها لي خلال وجودنا معاً في الحانة، من دون أن أنتبه إلى اثنتين منها، فما أذكره أنّها التقطت صورة واحدة فقط. هزّتني الغبطة، قبل أن أعاجل إلى شكرها على مبادرتها غير المتوقعة، وأبديت إعجابي بمهارتها في اقتناص «ضحاياها» في أوضاع استثنائيّة، واقتنعتُ بقوّة المثل «اصبر على الحصرم تأكل عنباً»، ذلك أنّني فكّرت أكثر من مرّة في الاتّصال بها، ثمّ تراجعت معوّلاً على ذرائع أقوى في تبرير مثل هذا الاتّصال، كي لا أبدو متلهّفاً للّقاء، وكي لا تفهم أسمهان أنّها كانت طُعماً لاصطياد صديقتها في غيابها. وسأتلقّى كلمة «قريباً»، كإجابة على دعوتي إيّاها إلى فنجان قهوة، بإحساس فادح بالخسران، وسيقودني مزاج الخاسر إلى يقين بأنّ إرسالها الصور لا يعني رغبة في التواصل بقدر ما هو «محو» صورتي من أرشيفها الشخصي، وإغلاق لقوسٍ ظننته مفتوحاً على أوقات بهجة، وحميميّة، وشغف، تنقذني من غرقي الوشيك في

كآبة لا علاج لها، فقد كان الحبل الممدود نحو بئر البؤس العميقة التي أغوص فيها، على وشك أن ينقطع، رغم ادّعائي متانته، وقدرته على احتمال رفع جثّة محتضرة وإعادتها إلى الحياة. أقول لنفسي مشجّعاً، وأنا أنفض الطين عن جلدي، لا تقف مثل الكركي على قدمٍ واحدة. غادرْ هذا المستنقع إلى البراري الفسيحة. ألم ترجُكَ أسمهان، أكثر من مرّة، زيارتها في قريتها «المطمئنّة إلى كحل الحجر البازلتي، مثل امرأة تغزل صوف العزلة»، كي تكتشف هواءً نقيّاً لم تلوّثه رائحة الحرب؟ جرّب الخروج من قوقعتك وتلمُّسَ رائحة العشب خارج القفص الضيّق الذي حبستَ نفسك وراء قضبانه، لا تكن سلحفاةً، ولا قنفذاً، ولا أرنباً. لكنّ هذه الشحنة المضادّة للوقاية من التعاسة، ستخبو سريعاً، تحت وطأة الضجر، وانخفاض منسوب الأمل، واليأس من هبوب ريح مباغتة، كأن تعني كلمة «قريباً» التي كتبتها جمانة، نهاية الأسبوع على أبعد تقدير، أما أن تبقى معلّقة في الفراغ كلّ هذا الوقت، فهذا ما لا يدخل في باب الألفة المنتظرة، ولكن لماذا لم تكن أسمهان في واحدة من هذه الصور؟ أنعشتني هذه الفكرة قليلاً لجهة إزاحتها من المشهد، قبل أن أعود إلى حظيرتي متمثّلاً مصير «حمار بوريدان» في الحيرة بين معلفين، دون أن أروي عطشي من هذه، أو أُسكت جوعي إلى تلك.

48

صبيحة يوم تصوير آخر، إثر فشل المحاولة الأولى:

كان سمير عمّار ورفاقه في الورشة مشغولين بنقاش مع الإسكافي حول ضرورة تثبيت لافتة من الكرتون المقوّى في واجهة الدكّان تحمل عبارة «لا شيء يربطني بهذه الأرض سوى الحذاء» بتوقيع الشاعر محمّد الماغوط، كمشهد افتتاحي لشريط «بلاد نصف نعل»، وكاد النقاش ينتهي إلى شجار، فقد خشي الإسكافي من أذى أمنيّ يلحق به جرّاء خشونة العبارة ومقاصدها الغامضة بالنسبة إليه، لكنّه سيوافق على مضضٍ، بعد أن أخرج سمير من حقيبته موافقة أمنيّة مزوّرة تحمل أختاماً رسميّة. كان على كاميرا نارنج أن تنزلق بليونة من الأعلى إلى الأسفل، بلقطة مقرّبة على محتوى العبارة، ثمّ إلى مطرقة الإسكافي وهي ترتفع وتنخفض بإيقاع متواتر، لحركة يده وهي تلتقط المسامير من فمه، وتثبّتها فوق رقعة الحذاء المقلوب، مروراً بكومة من الأحذية البالية، والجلود، والمسامير، والخردة، وعلب الأصباغ، وصورة بالأبيض والأسود للإسكافي ببزّة عسكريّة إلى جانب دبّابة كذكرى من حربٍ قديمة، الصورة مثبّتة بمسمارٍ صدئ على زاوية الإطار الخشبي للباب، بالإضافة إلى راديو ترانزستور، كان

يبثّ بالمصادفة أغنية مبهجة لليلى مراد. إثر إحدى موجات النزوح، خُصّص هذا القصر كي يكون مدرسة ثانويّة مؤقتة لأبناء مدينة القنيطرة المدمّرة في حرب حزيران 67، فبقيت الشعارات الوطنيّة، ووعود التحرير على الجدران، وفي الممرّات، يغطّيها الغبار وآثار حريق، فكانت فرصة لأن تلتهم العدسة ما بقي منها بشوطٍ واحد، على أن تُقطَّع مونتاجيّاً أثناء التركيب النهائي للشريط. ما إن غادرنا موقع التصوير، حتّى باغتتني نارنج بسؤالها عن انتحار نايا مروان، وهل حصلت على معلومات جديدة عن الحادثة؟ أجبتها بالنفي، وبأنّ أحمد ناظم أخبرني أنّه فقد كلّ ملفّاته المخزّنة على كمبيوتره المحمول نتيجة فايروس اخترق الجهاز. كان قد بقي لديّ أمل ضئيل في اكتشاف معلومات مجهولة ترمّم الصورة الممزّقة لنايا، بأن يستجيب من يعرفها عن قرب للنداء الذي وضعته على صفحتي في الفايسبوك بقصد تزويدي بأيّ معلومات عنها، أو نصوص لها. بعد يومين أجابني أحدهم بأنّها كانت قد نشرت قصّة في مجلّة «شرفات» المحتجبة اليوم، بعنوان «طقوس روحانيّة»، لكنّه خلال البحث على الإنترنت، اكتشفَ أنّ موقع المجلّة لم يعد موجوداً، وأن لا أرشيف ورقيّاً للمجلّة بعد احتجابها عن الصدور، عشيّة اندلاع الحراك في البلاد. صديق افتراضي آخر، لا أعرفه شخصياً، أبلغني بأنّ كلّ ما يعلمه عنها أنّها كتبت رواية عنوانها «الملاذ»، سبق أن حاولت نشرها في إحدى دور النشر الصغيرة، لكنّها لم تصدر فعلياً لأسباب لا يعرفها.

جولة مضنية على ما بقي من دور النشر الخاصّة التي ما تزال تعمل بصعوبة، بعدما أطاحت الجماعات التكفيريّة المطابع في ضواحي العاصمة، وأحرقت مستودعات الكتب، انتهت بي أخيراً، إلى ناشرٍ عجوز يمتلك داراً صغيرة في قبوٍ معتم، علمت بأنّ نايا زارته مرّة، وخرجت غاضبة، ولمّحت إلى أنّه حاول مساومتها بأن يتخلّى عن

جزء من كلفة طباعة روايتها مقابل معاشرتها في المكتب، كنوعٍ من عدالة القسمة بينهما.

قال، وهو يحشو غليونه بالتبغ:

– الملاذ؟ لا أذكر مخطوطاً بهذا العنوان، ولا أعرف أحداً باسم نايا مروان، عمَّ تتحدّث الرواية؟

– أظنّ أنّها رواية كابوسيّة.

أجاب، وهو ينفث دخان غليونه باستعلاء:

– لا أعلم لماذا لا يلجأ كتّاب اليوم إلى كتابة روايات من طراز «ذهب مع الريح»، أو «الأجنحة المتكسّرة»، أو «الوسادة الخالية»، أو..؟!

عند هذا الحدّ، نهضتُ معتذراً، لكنّه أومأ بيده أن أنتظر قليلاً. أخرج من بين كدسة كتب إلى يمينه كتاباً، نفض الغبار عنه، ثمّ قال بغطرسة واضحة إنّه من تأليفه. شكرته وأنا أتناول الكتاب منه، ثمّ خرجتُ مسرعاً. ألقيت نظرة عجلى على عنوان الكتاب «أطياف العشق». كانت رائحة الرطوبة تملأ المكان. صعدت الدرج المظلم، كما لو كنتُ أعمى، وقد شعرت بالاختناق، إثر هبوب رائحة زنخ أسماك ميتة، سترافقني إلى الشارع. تمهّلت أمام بائع كتب ومجلّات مستعملة، كان يفرشها على رصيف مجاور للمتحف الوطني، على أمل أن أجد أعـداداً من مجلّة «شرفات». سألني البائع إن كنت أبحث عن عنوانٍ محدّد؟ فهزّزت رأسي بالنفي، ثم دسست «أطياف العشق» بين الكتب المعروضة، من دون أن ينتبه البائع. انحدرت باتّجاه شارع البريد، وانتبهت لأول مرّة إلى لوحة معدنيّة تنتهي بسهم، مكتوب عليها «متحف الطوابع البريدية». لم أكن يوماً، من هواة جمع الطوابع، لكنّني قرّرت أن أتبع حركة السهم، بسبب الضجر وحده، وبعض الفضول في معرفة محتويات هذا المتحف. صعدت

الدرج الرخامي الأبيض إلى الطبقة الأولى من مبنى البريد نحو قاعة متوسّطة الحجم. لم أجد أحداً في المكان، وقفت أتأمّل مجموعات الطوابع التذكاريّة القديمة من وراء الزجاج، قبل أن تدخل بعد دقائق امرأة أربعينيّة بدينة، من بابٍ جانبي، وتأخذ مكانها وراء الكونتوار. كانت بعض الطوابع المعروضة في الواجهة، تنتمي إلى فترة الانتداب الفرنسي مدموغة بعبارة «الجمهوريّة السوريّة»، وأخرى تخلّد شخصيات وطنيّة من مرحلة الاستقلال، وأعياداً رسميّة، وأماكن أثريّة، وقلاعاً قديمة، ومنظراً لقطاف القطن. قرّرت أن أقتني طابعاً واحداً يحمل رسماً لرائد المسرح السوري أبي خليل القبّاني بقصد إهدائه لنارنج كذكرى تخصّ مشروع فيلمها عن الحارس. حين اقتربت من الكوّة الزجاجية التي تجلس خلفها الموظفة البدينة كي أسدّد لها ثمن الطابع، شممتُ رائحة عطرها ممزوجة برائحة عَرق ذكوري نفّاذ، فيما كانت كحلتها سائلة حول عينيها، بالإضافة إلى أخطاء صريحة في ترتيب إغلاق أزرار قميصها، وبروز أجزاء من صدرها المكتنز. غادرتُ القاعة، بيقينٍ تامّ بأن وراء الباب الجانبي الذي خرجتْ منه الموظفة، مستودعاً مهملاً، يختبئ داخله رجل ما، قد يكون أميناً للمستودع، كان يحتضن «كتلة الشحم» هذه، قبل قليل، بتمام شهوته، وأنّها ليست المرّة الأولى التي تحدث فيها مثل هذه الفوضى الغراميّة المرتجلة، فوق كومة الأوراق والمراسلات والطوابع والأختام التالفة.

49

ليست نارنج التي أعرفها قبلاً، تلك التي فتحتُ لها الباب، مساء يوم أحد، من منتصف آذار. أتذكّر هذا التاريخ جيّداً، لأنّه يصادف يوم ميلادها، قبل ثلاثين عاماً. كان شعرها بلونٍ خمري داكن، يتسلل من أطراف منديلها المطرّز بورود صغيرة، فيما ارتدت تنّورة قصيرة من الجلد فوق سروال أسود ضيّق، ومعطف طويل خلعته بمجرّد دخولها الصالة. كانت قد أبلغتني هاتفيّاً بأنّها تودّ رؤيتي كي تطرح عليّ مشروعاً مهمّاً ومستعجلاً، لا تستطيع تأجيله. أشعلتْ سيجارة على الفور، وطلبت منّي أن أستمع إليها بانتباه، وهي تجلب كأسين من المطبخ، وتملأهما من زجاجة النبيذ التي أحضرتها معها، احتفالاً بعيد ميلادها. استعرضتْ صوراً مخزّنة في هاتفها المحمول، ثمّ توقّفت عند صورة لامرأة أربعينيّة بعينين حزينتين (لم أجد وصفاً أفضل لتلك التعاسة التي تشعّ من عينيها)، ثمّ قالت «ريم صابوني، ممرّضة في مستوصف، في إحدى بلدات ضواحي دمشق. كانت مناوبة، حين تسلّل مسلّحون ملثّمون إلى البلدة، مخلّفين مذبحة رهيبة بين الأهالي، ذهب ضحيّتها نحو ثمانمئة شخص، وعندما انتهت ورديّتها في المناوبة، ذهبت إلى بيتها، فوجدتْ خراباً بانتظارها، كما فقدت

عائلتها كاملةً. زوج مصاب بشظيّة، وطفلان في التاسعة والعاشرة، علمتُ أنّهم دُفنوا في مقبرة جماعيّة، ثمّ تمكّنت من المجيء إلى هنا بصعوبة، بعد أن فقدت كلّ ما يربطها بذلك المكان الجحيمي. التقيتها في صالون حلاقة نسائي، وأخبرتني بأنّها تنام في الصالون، مقابل الخدمة فيه. بعد مغادرتي الصالون، أحسست باضطراب وقلق وحاجة للبكاء، ففكّرت في أن أستضيفها في بيتي، ما رأيك؟».

– هذا أمر يخصّك، المهم أن تثقي بها أوّلاً.

– أنا واثقة بها تماماً، المسألة تتعلّق بحدسي. ثمّ إنني أشكو الوحدة أكثر ممّا تتوقّع.

رشفتْ جرعة كبيرة من كأسها، ثم قالت:

– يوم اعتقالي كنت على موعد مع حسام في ساحة النجمة، أمام كشك للصحف. تأخّرَ على غير عادته، نظرت إلى ساعتي، ثمّ انتبهت إلى أنّني نسيت خاتمي عند طرف المغسلة. لحظتها أحسست فجأة بأنّ كارثة ما ستقع. بعد دقائق، توقّفت سيّارة جيب عسكريّة إلى جانبي، واقتادني رجلان إلى داخلها، خلال ثوانٍ، على مرأى من صاحب الكشك. لحظتها لم أفكّر في ما ينتظرني، كنت خائفة من أن تكون دوريّة أمن أخرى، تنتظر حسام كي يقبضوا عليه. ما إن «طمّشوا» عينيّ حتّى باغتني حدس بأنّ حسام كان يراقب ما حدث لي، وأنّه هو من دبّر لي هذه المكيدة اللعينة، وهذا ما عرفته لاحقاً خلال التحقيق معي. لم أصدّق رواية المحقّق حينها، لكنّني حين استرجعت بعض سلوكيّاته قبلاً، والحدس الذي انتابني، بعدما انطلقت السيّارة، أدركت صحّة أقوال المحقّق.

– ولكن ما هو المشروع الذي أخبرتني به على الهاتف، ولا يحتمل تأجيلاً؟

– ريم صابوني.

– ما بها؟

– أفكّر في أن أحقّق فيلماً تسجيلياً عنها. حكايتها تطاردني ليلاً نهاراً، وينبغي أن أتحرّر منها أيضاً. أنت تطارد طيف فتاة منتحرة، لم تترك أيّ علامة واضحة خلفها، أمّا أنا فأطارد حكاية امرأة بحيثيّات كاملة.

– فكرة صائبة.

– ولكنّ مشروعي يحتاج إلى مغامرة إضافيّة. أخبرتني ريم صابوني فيما كان رأسي غاطساً تحت رغوة الشامبو وحركة أصابعها المتوتّرة تدعك فروة رأسي، بأنّها تفكّر في السفر إلى تركيا، عن طريق مطار بيروت، لتلتحق هناك بأحد قوارب الهجرة اللاشرعيّة. مشروعي أن أرافقها بكاميرتي إلى هناك.

– ولكنّها مخاطرة كبرى، فالغرقى أكثر من الناجين.

– لا يهم. أرغب في أن يكون لحياتي معنىً آخر، بعيداً من هذه المصحّة، أكاد أختنق.

– إنها مصحّة فعلاً.

– هل ستفتقدني؟

لم أجب عن سؤالها. عاودتني الحيرة ثانيةً. كنت متأكّداً من أنّني سأفتقدها فعلاً، لكنّني لم أفصح لها عن مشاعري نحوها. على الأصحّ، كنت عالقاً بين غيمتي حنان ورغبة، تحت سماء داكنة من الأحاسيس الملتبسة، هناك خيط بالكاد يُرى بين هاتين الغيمتين، ولا أعرف تماماً، أيّهما ستهطل بغزارة أكبر. وكمحاولة للهروب بما أنا فيه، نهضتُ باتّجاه المطبخ، أحضرتُ شمعةً، ثمّ أشعلتها. أطفأتُ نور الصالة وجلستُ إلى جانبها. أحطتها بذراعي، ومسّدت بأصابعي على شعرها، ثمّ أزحتُ منديلها جانباً، ولثمت أذنها المعطوبة خطفاً، فانتفضتْ، ونظرت نحوي بتركيز، كمن تبحث عن تفسير لما حدث،

ثمّ أرخت رأسها فوق كتفي، في نوبة من البكاء الصامت، والهذيان، والفزع، والإحساس بالعار.

(ماذا لو كانت نارنج إحدى شخصيّات مسوّدة روايتي المؤجّلة؟ كنت أقلّب أفكاري يميناً وشمالاً، صعوداً وهبوطاً، بمجرّد مغادرتها الشقة، مستبعداً أحوال التنكيل الذي ناله جسدها قبلاً. اهتديت أخيراً إلى إغواء نظريّة التفكير بالأصابع. أن تتنزّه الغريزة على هواها بتمام هياج الحواسّ، وبقوّة حوافر خيل السباق وهي تدقّ الأرض، كأن أخلع المنديل عن رأس نارنج، ثمّ أضعه فوق عينيها وأعقده من الخلف، ثمّ أختبر على مهل ترمومتر جسدها، حرمان الأعضاء، توتّر مسامّ الجلد، واضطراب الحلمة لحظة ملامستها طرف السبابة والشفتين، الشهقة المباغتة، بلل العانة، الغيبوبة الكبرى).

50

حالما ألصق الطبيب الصورة الشعاعيّة للرئتين على اللوح المضيء في عيادته، وأطلق ذلك الصفير تعبيراً عن استهجانه لحجم خريطة الفحم المتراكم في شعاب الجهاز التنفّسي، حتى أدركتُ خطر ما أنا فيه بخصوص قلة الأوكسجين، وصعوبة التنفّس، وضرورة المشي مسافات طويلة، من دون تدخين، بناءً على التنبيهات الصارمة للطبيب. لكنّني في المقابل سأنسى كلّ ذلك بعد أيّام، وأعود إلى شراهة التدخين (أشعلت سيجارة الآن، لضرورة التركيز)، فالحواجز التي تملأ الشوارع، وتلك التي احتلت الأرصفة المحيطة بالمقارّ الأمنيّة، وندرة الهواء (العليل) كانت عوامل أساسيّة في إهمال مثل هذه الوصفة. ربما كانت الفائدة الوحيدة من كلّ ذلك، أنني استثمرت تلك الصورة الشعاعيّة في نقاشاتي حول أحوال البلاد، في جملة عابرة «هذه البلاد تشبه صورة شعاعيّة لرئتي مدخّنٍ مزمن، لم يعد للأوكسجين مكان فيها»، لكنّ فيلسوفاً مؤجّلاً مثل كمال علوان اعتبرها جملةً بليغة، وقرّر أن يضيفها – بعد استئذاني – إلى ملّفه، لاستثمارها في كتابه الذي سوف يصدر في ألف صفحة وملحق. وستداهمني أزمات نفسيّة، وأوهام، وحالات قلق، راكمتها خمسة أعوام من الإعاقة، والهزائم، وقلّة الحيلة، ولن

أتردّد كثيراً في استدعاء وقائع رواية «ذئب البوادي» لهيرمان هيسه، والنظر في تلك التقاطعات الملموسة في معنى القسوة، والعنف، والتباسات عمل الغريزة والعقل، و«انتظار معجزة لا يبدو حدوثها يقينيّاً». سأزيّن لنفسي بحذر وتردّد شديدين أنّني أعيش المكابدات نفسها التي اختبرها «هاري هالر» لجهة التناقضات، والقلق، وفوضى جحيم الحرب. كنت أواجه ضبع الخواء الذي كان ينهش روحي على دفعات، بمزيدٍ من الإذعان والعشوائيّة واليأس، واختراع أوقات لذّةٍ عابرة، كنوعٍ من الهدنة المؤقتة مع الهلاك، فقد كانت دائرة العيش تضيق مثل حبلٍ خشنٍ يحيط بالعنق، فيما كانت الأكاذيب تزداد صفاقة ورعونة ووحشيّة، كأن تحوّل المقبرة إلى حديقة، على الشاشات فقط، وأن تنظر إلى الجثث الممزّقة بالرصاص، على أنها شجيرات عبّاد شمس في حقلٍ شاسع، في خدعةٍ مكشوفة لتحسين صورة الموت، داخل قاعات التأبين، أو «خدمة توصيل الجثث» إلى المقابر المجهولة.

إن وضع الزهور في فوارغ الطلقات لن يكتم حشرجة أنفاس الموتى تحت الأنقاض.

ستفاجئني جمانة سلّوم ثانيةً، بموعدٍ غير متوقّع. «أنتظرك في الحانة نفسها. اصعدْ الدرج، ستجدني في الطبقة الثانية. سأكون هناك عند الخامسة مساءً». قرأت الرسالة التي وصلتني على هاتفي المحمول نهباً، ثمّ أعدت قراءتها مرّتين، بحال من أحسّ بزلزالٍ خاطف للحظات، فقد أخذتني الظنون، ولاحقاً اليقين، إلى مزاج انتصاب، فهذه الدعوة البوليسيّة تضع شخصاً مثلي في لجّةٍ عاصفة من الهياج. كانت الساعة بحدود الثانية عشرة والنصف ظهراً، بما يكفي لتلاطم أمواج عالية من التوقّعات، والافتراضات، وأحلام اليقظة، في بناء سيناريوهات غراميّة ملتهبة، ذلك أنّ كلّ العلامات تنبئ بأوقاتٍ

ورديّة ستطيح كآبتي المزمنة، خصوصاً أنّها اختارت توقيتاً ملهماً، بغياب أسمهان أوّلاً، ومكان الموعد ثانياً، فالطبقة الثانية من الحانة، غالباً ما تخلو من الزبائن في مثل هذا الوقت.

بهذه الروح القتاليّة ذهبت إلى المكان، متجاهلاً الحواجز الأمنيّة، وثرثرة سائق التاكسي، ونشرة الأخبار في الراديو، وصولاً إلى ساحة باب توما. عبرت الساحة نحو باب شرقي بخطوات أيل برّي. كانت حجارة الشارع مثل سجّادة فارسيّة بنقوش وزخارف ورسوم غزلان. وكان يوم ثلاثاء، بدليل وجود العاشق المخمور الذي صادفته في الزيارة الماضية، بصحبة شخص آخر، يتجادلان بصوت صاخب. صعدت السلّم المعدني قفزاً، وكما توقعت كانت جمانة تجلس وحدها، منهمكة في شاشة كمبيوترها المحمول. نهضت عن كرسيّها وهي تبتسم، مادّةً يدها لمصافحتي، فيما كنت متهيّئاً لتقبيلها كصديقة حميمة. صدمة صغيرة غير متوقّعة، لكنّني سأتجاوزها بالاطمئنان على أخبارها، ومعاتبتها على طول غيابها، واشتياقي لها. أشارت بأن أجلس إلى جانبها، وهي تقول «سأريك ما ارتكبته عدستي سرّاً، من دون أن تسألني أين وكيف التقطت هذه الصور».

كنتُ مذهولاً حقّاً، من أرشيف الفزع الذي أنجزته جمانة سلّوم خلال السنوات الخمس الماضية، مستفيدةً، كما أوضحت لي، من التسهيلات التي أتاحها لها عملها مصوّرةً في وكالة الأنباء الرسميّة، وتالياً دخولها مناطق منكوبة من جهة، ومحظورة على مصوّرين آخرين، من جهةٍ ثانية، دون أن تتعرّض للتفتيش أو المساءلة. هكذا كان عليها، إثر كلّ جولة تصوير، أن تفرزَ سرّاً صور الوكالة عن الصور التي يصعب نشرها، إلى أن جمعت أرشيفاً ضخماً لمناظر مفجعة، وحطام بشر مشرّدين، وامرأة تنبش حاوية قمامة، وبائعات هوى يعملن في الخفاء، تحت ضغط الحاجة، ومساكب خشخاش وسط حقول الذّرة الصفراء،

ومحرقة جثث، كانت مروحيّة قد ألقت بها عند تخوم حقل قمح. لم أجد ما أعلّق به إلّا أن أقول «هنا الجحيم يمشي على قدمين»، وقد نسيت خططي التي رسمتها قبلاً لجهة الاشتهاء، وقطف ثمار الرغبة من شجرتها العالية. قالت وهي تثبّت المؤشّر على صورة لطفلة لم يعد لها اسم، بعد أن فقدت ذاكرتها، إثر موجة قصف أدّت إلى نزوح عشوائي لأهالي قرية منكوبة، إنّ أسمهان نصحتها بالاتصال بي، على أمل مساعدتها في تحقيق وثائقي عن حكايات هذه الصور، أو طباعتها في كتاب خارج البلاد باسم مستعار. «أريد أن أزيح هذا الكابوس عن دماغي»، قالت، وهي تضع رأسها بين يديها، كما لو أنّها تعاني صداعاً لا يُحتمل. سوف أستعرض الصور التي أودعتني جمانة نسخة عنها، أكثر من مرّة، في محاولات متكرّرة لعبور نفق الخزي الذي أقحمتني في عتمته، بقصد تظهير الصور على نحوٍ آخر، كأن أستعيد حيوات هؤلاء البشر قبل التنكيل بطمأنينتهم، وأن أهدي لتلك الطفلة المجهولة اسماً يليق بمحنتها، الاسم الذي كانت تكتبه على دفاترها المدرسيّة، أو على السبورة، أو على جدارٍ في زقاق موحل للّعب. ولكن ماذا أضيف إلى أصحاب تلك الوجوه المذعورة المكوّمين في كهف، حول موقد، كما لو أنّهم منسيّون هنا، قبل اختراع أديسون الكهرباء، وقبل تدوين دساتير حماية الكرامة البشريّة من الاحتضار؟ حياة متفسّخة مثل جثّة تحت الأنقاض، تهبّ بعفونة لاذعة، تتسرّب على مهل، إلى ما تحت الجلد، على هيئة كدمة زرقاء. تطاردني المشاهد المفزعة إلى «داخل غرفة المعيشة»، كما تقول سوزان سونتاج في تشريح الصورة. الجثث المطمورة تحت التراب تئنّ من آلام الأعضاء المبتورة من دون مخدّر. أهزُّ الغربال محاولاً التخلّص من الذكريات المفزعة، على أملٍ شحيح بأن تغيب في ضباب النسيان. خدعة آنيّة لامتصاص الغضب، والسخط، واليأس، والعزلة، والوحشة. سأعاتب

جمانة سلّوم على «هديّتها» لي، هذا الكمّ من الكوابيس، وستجيبني بأنّ ما فعلته لم يكن أكثر من مسكِّن مؤقّت لصداعها، ولم يعد يعنيها مصير الصور، فقد عادت الوجوه التي خزَّنتها في عدستها إلى مطاردتها مجدّداً، مثل لعنةٍ أبديّة لا فكاك منها.

51

بعد عناء، وجدتُ مجلّة «شرفات» في أرشيف المكتبة الوطنيّة. استنسخت صفحتين من العدد 82، ثمّ خرجتُ من المكان على الفور، بلهفة مَنْ وجدَ وثيقةً نادرة. قرأت قصّة نايا مروان «طقوس روحانيّة»، ثلاث مرّات، بحثاً عن علامة تدلّني إلى سبب انتحارها. كانت قد نشرتْ القصّة قبل حادثة انتحارها بعامٍ واحدٍ فقط، وربّما في الفترة التي شهدت محاولة انتحارها الأولى. سوف أناقش مع أعضاء الورشة كيفيّة الاستفادة من مفردات هذه القصّة، في بناء سيناريو محكم، ومزجها مع المعلومات المتوافرة عن حياتها، في سرديّتين متوازيتين تتقاطعان عند حادثة انتحارها. وجود رسّام في القصة سيرشدنا تلقائيّاً نحو العلاقة العاطفية التي كانت تربطها به، فهي تورد في السطر التاسع من القصّة عبارة لافتة «أخاف فخَّ يديك الذي لا أستطيع إلّا أن أقع فيه»، ثمّ تتبعها مباشرةً بعبارةٍ أخرى «بكيتُ حتّى أصبحت دموعي نبيذاً»، ثمَّ «لا أطالبك بالنسيان، بل باليقظة»، ثمَّ «لقد حان وقت الغروب»، و«رياح الوداع طيّرت وشاحي»، و«أكنتَ تعلم أنّ الروح سترتحل مسرعةً؟»، و«لطالما شعرت بأنّي أقترب من المنحدر، أودّ لو أركض وأركض وأركض»، إلى أن تنهي القصّة بضربة مؤثّرة «روح

أخرى، تملأ الثقوب التي تغزو جسدي، وتعبّدُ طريقاً من الظلمة نحو صمتٍ آخر». سوف تجول في أحد شوارع دمشق القديمة نحو مرسم من تحبّ، لكنّها ستشبّه المرسم بالسرداب، سرداب بأدراج مظلمة، وانتظارات، ووعود يصعب تحقّقها.

في مقهى الروضة، انهمكت نارنج في قراءة القصّة، وما إن أنهت التهام سطورها، حتّى بادرتني بحماسة:

– هل لاحظت أنّ الأماكن التي ذكرتها نايا في قصّتها، هي نفسها التي مررنا بها، عندما ذهبنا إلى المرسم؟

– الإحداثيّات نفسها فعلاً، كما لو أنّها كانت تكتب سيرتها، من دون زخرفة أو أوهام.

– «بكيت حتّى أصبحت دموعي نبيذاً» علّقت نارنج، كما لو أنّها تحكي عن نفسها.

– أخبرتك قبلاً، بأنّ انتحار نايا يتعلّق بخيبتها العاطفيّة أولاً. حاولتْ أن تهرب بعيداً، إلى كيب تاون، وأن تمحو آثامها القديمة في شوارع دمشق وسراديبها، ولياليها الصاخبة، لكنّها لم تحتمل فانتحرت هناك. أظنُّ أنّها كتبت في مخطوط روايتها الأسباب التي أدّت بها إلى الانتحار لاحقاً. على الأرجح هناك سبب واحد فقط، هو اكتشافها أنّ الرسّام تعامل معها طيلة فترة علاقتهما كعشيقة عابرة فقط، فيما كانت هي تحبّه بعنف، وربّما بجنون. لم تستطع أن تنظّف مخدّتها من رائحته، ورسومها من ألوانه وخطوطه، ومرآتها من صورته، ما أدّى إلى اضطرابها وانخراطها في سلوكيّات عدميّة أكبر من أن يحتملها جسدها الضئيل وروحها الطليقة. وللسبب نفسه قرّر الرسام إخفاء مخطوط روايتها، وربّما إتلافه، كي لا تلاحقه لعنة انتحارها إلى الأبد.

52

لم تجد نارنج عبد الحميد الحكاية التي كانت تتوقّعها لدى ريم صابوني، الممرّضة التي تعرّفت إليها في صالون الحلاقة. بدت حكايتها، كما أخبرتني، مبتورة، ومشوّشة، وغائمة، فقد كانت تهذي باسمَيْ طفليها وخشيتها عليهما من البرد في تلك البلدة المتاخمة لهضبة الجولان، لأنّهما «ذهبا» من دون أن يرتديا معطفيهما، وقد تراجعت عن روايتها الأولى بأنّ زوجها وطفليها لاقوا حتفهم في مذبحة، مستبدلةً إيّاها بسيناريو آخر، يتعلّق بعمليّة هروب إلى بلدةٍ أخرى، وبأنّه ينبغي عليها أن تبحث عنهم، ليقينها بأنّهم ما زالوا أحياءً، بدليل تردّدهم عليها في مناماتها. «كان طفلاي يتبادلان اللعب في أرجوحة، تحت شجرة كينا، أعرف مكانها تماماً، بالقرب من محطة محروقات مهجورة، تقع في مدخل البلدة، وينبغي أن أذهب إلى هناك لإعادتهما إلى البيت، قبل أن يعود الرجال الملثمون إلى ارتكاب مذبحة أخرى». وسوف تنسفُ سكّة حكيها مرّة أخرى، بغرق زوجها في إحدى حوادث قوارب المهرّبين المتّجهة من السواحل التركيّة إلى اليونان، بما لا يتواءم مع ما روته قبلاً. ما أثار سخط نارنج على نحوٍ أكبر، هو اختفاء ريم صابوني نفسها، من دون أن تتركَ أثراً وراءها، منذ أن غادرت غرفتها قبل

يومين. «كانت ستارة النافذة مغلقة، وكان غطاء سريرها مُرتّباً، وكأنّه لم يُمسّ منذ شهورٍ طويلة، وحتّى آثار الغبار على مقبض الباب بدت واضحة في الفراغ الذي تتركه أصابع اليد». لبرهة داهمني إحساس بأنّ نارنج نفسها اخترعت هذه الحكاية بما يتوافق مع نوبات الهذيان التي كانت تدهمها بين فترةٍ وأخرى، وفي أحسن الأحوال، كانت تستعيد مناماً، أضافت إليه بعض التوابل بقوّة دفع مخيّلتها البصريّة، ورغبتها في نبش حكايات غرائبيّة تنسيها أوجاعها المتراكمة، وندوب روحها، ووحدتها، أو كي تبدو تلك الحكايات أكثر ذعراً ممّا كابدته هي، من دون أن تفكّر لحظةً واحدة في الغفران.

صبغة الشعر، ورغوة الشامبو، والأصابع التي كانت تدعك فرْوة الرأس بنعومةٍ، وانحناء العنق فوق حافة المغسلة، تحت رشّاش المياه الساخنة، وإغماض العينين. كلّ هذه اللقطات المتتالية، أتاحت لنارنج أن تخترع حكايتها كما لو أنّها حدثت بالفعل، لكنّها تجاهلت بنداً واحداً: إنّ تغيير لون الشعر لن يمحو ما كان يدقُّ بانتظام تحت فرْوة الرأس، مثل بندول ساعة جهنّميّة.

53

بحضور أسمهان، خلال زياراتها الخاطفة لدمشق، الزيارات التي كانت تتباعد شيئاً فشيئاً، أو في غيابها، لانشغالاتها الروحانيّة، وعنايتها باكتشاف أنواع جديدة من الفراشات والنباتات البريّة، وطبائع حشرة فرس النبي، ووصفات اليانسون في إنعاش ذاكرة المنام، كانت جمانة سلّوم تعزّز عذوبتها وفتنتها وسحرها بما توقّعه من صورها، تلك التي تذهب بها العدسة إلى الزوايا المهملة والمنسيّة، بما يمنح ما هو مألوف درجة الدهشة، أو «منطقة الشفق»، وذوبان العناصر نحو تركيبٍ آخر، يعمل على «مواجهة الفقد بالتذكّر». بقصد نسيان حقبة الكوابيس البصريّة، وفقدان الحرب للمعنى إلى درجة الاعتقاد بأنّها تحدث في خرائط مجاورة لفرط ابتذال سيرة الموتى، اتّجهت جمانة بعدستها إلى اكتشاف كنوز الجسد الآخر، الجسد الشبق، المتعرِّق من فائض اللذّة، الجسد الذي تتفتح مسامّه عن زهور لامرئيّة. سوف تستبدل الأعضاء المبتورة في صور الحرب، بطراز آخر من خفر الإيروتيكيّة، أو تلجأ لمحو آثار الدماء ببهجة بياض الحليب، حسب إشارتها إلى تضاريس الجسد في عين العدسة. كنت مذهولاً بكيفيّة اختراق العدسة أدغال الإبطين، في المنطقة المطمئنة ما بين الذراع والكتف، صعوداً إلى

شرايين العنق، ونزولاً إلى البطن، وحواف السرّة، وزغب الفخذين، في تشكيلات بصريّة تمحو الأصل بضربة إيقاعيّة مباغتة، فتعيد بناء المناطق المحرّمة والمخبوءة والنافرة بسطوة الظلال، وخيط ضوء مائل مثل شفرة حادّة. أجساد أنثويّة مكشوفة تسمح للعدسة بأن ترسم الخرائط على هواها، بتقطيعها هندسيّاً إلى شرائح مفصولة، من دون أن تقترب من الوجوه. ربّما كان هذا شرطاً أساسيّاً لموديلها للموافقة على التعرّي أمام الكاميرا، وهذا ما أكّدته جمانة بطريقة مراوغة حرصاً على خصوصيّة موديلاتها. لكنّني بالتفاتةٍ ما، خلال استعراض الصور على الشاشة لمحت تلك الشامة التي لن أتوه عنها، الشامة التي تقع عند مفرق العنق والكتف في جسد أسمهان، وسوف تظهر في صورة أخرى آثار النمش في صدرها بهيئة الكمثرى المقلوبة نفسها. لم أستغرب موافقة أسمهان على أن تكون موديلاً عارياً أمام عدسة صديقتها الحميمة، في إحدى نوبات طيشها، أو كما كانت تقول في تبرئة سلوكها من إثمٍ طارئ «تبّاً، حدث ذلك بقوّة مفعول النبيذ»، حين تستدعي مولانا جلال الدين الرومي في شطحها الدوراني مرّة، وفي استيقاظ جسدها على شهوة اللبوة، في مزاجٍ آخر، بعد دقائق فقط من غزوتها الصوفيّة.

أيقظتني جمانة من شرودي بقولها «لم أجد علاجاً من كوابيس صور الحرب إلّا باللجوء إلى هذه المساحة، كنوع من القذائف المضادّة، فبدلاً من النظر إلى الجسد الممزّق بالشظايا، بإمكاننا التنصّت إليه بمفردات حميمة تزيح عن شبكيّة العينين أهوال ما اختزنته طوال سنوات الحرب من صور مفزعة. كنت أتعثّر بصور الضحايا في طريقي من السرير إلى الحمّام، وفي المرآة، وفي المرحاض، وداخل خزانة ثيابي، وحتى أثناء تحريك ملعقة السكّر في كوب الشاي».

صمتت قليلاً، ثمّ همست متردّدة قليلاً «وكذلك في الفراش مع حبيبي».

ثمَّ أضافت بأسى «قال لي مرّة: كأنّني أعانق جثّةً أو مومياء».

كانت المرّة الأولى التي تذكر فيها أنّها على علاقة بأحدهم، وهو ما يفسّر عبارة «علاقة معقّدة» المكتوبة في بروفايلها على الفايسبوك. أحسست باضطراب في أضلاعي، رغم التمارين الشاقّة على إزاحتها من منطقة الرغبات، وظلّ وجودها معي في مقهى أو حانة أو مسرح، كافياً لبثّ الغبطة في شراييني. كنتُ أعرّيها كما لو أنّني «حبيبها»، حتى إنّ نهديها لامسا طرف غطاء الطاولة، واشتبكا مع حافة كأس النبيذ، إثر خلعها عروة حمّالة صدرها، بلقطة مقرّبة. نظرتْ نحوي بتركيز، وكأنّها اكتشفت ما أفكّر فيه، بانتظار تعليقي على ما قالته، فلويتُ ذيلي منكفئاً، وأجبتها بخلطة عشوائيّة من آراء فلاسفة الصورة «الصورة تعويذة، نصب تذكاري، ضريح، مزار، هوس بصري، أداة لمكافحة الفقد، ذوبان للزمن، تسوية غامضة، فضيلة مشبوهة، غياب غير قابل للاختزال، أرشيف للظلّ، هويّة راسخة لخرائط الجسد، وفي مسلكٍ آخر هي التاريخ المرئيّ للفرد، والخسائر التي لا يمكن استردادها. هناك من يقول أيضاً «معاينة التجربة لا تتمّ في العين، بل في النفس». عموماً أنت تكتبين بالصورة تاريخاً مضادّاً للحرب، وهذا أقصى ما ينبغي عمله في أزمنة الجحيم للشفاء من مرض الكراهية». كانت جمانة تصغي باهتمام إلى هذياني، فيما كانت تضع كمبيوترها المحمول في حقيبة الظهر.

في المسافة الممتدّة نحو مئتي متر باتّجاه القوس الحجري لباب شرقي، وعدتني بأن تريني مجموعة أخرى من الصور «ستكون أقلّ احتشاماً»، كما قالت بضحكة ملغّزة، فيما كنتُ لحظة وداعها،

أوسّع المنطقة المكشوفة من ركبتيها تحت سروالها الجينز المخزّق وتخزينهما بعناية في شبكيّة العينين إلى الأبـد، كأيقونتين بريشة رسّام من عصر النهضة.

54

هناك أيضاً ما لا يمكن تجاهله في باب الأسى والضيق والألم، أقصد عبوديّة الصوت: صوت القذائف، وصوت الطائرات، وصوت الانفجارات، وصوت عربات الإسعاف. أن تختفي هذه الأصوات كلّها فجأة، بسبب هدنة طارئة، وتنصت إلى صوت الهارمونيكا من المنزل المجاور بانتباه، هذا ما يضعك في مرمى الاضطراب. كيف تهنأ بقهوتك الصباحيّة المتأخرة، من دون أن تختلط رائحة الهال برائحة البارود، وأرقام عدّاد الموتى والمخطوفين؟ أن تعبر الشارع بطمأنينة، من دون أن تخشى سقوط قذيفة طائشة، أو تتوقّع أنّها على وشك أن تحوّلك إلى شظايا، مكتفياً بوقائع الموت العادي.

(كان إبراهيم موسى، أحد أعضاء ورشة كتابة السيناريو، يروي درجات فزعه أثناء هطل موجات القذائف بالقرب من بيته في مخيّم جرمانا، وصعوبة كتابة مكابداته في تلك اللحظات العصيبة، كما هي تماماً، وكيف أنّه كان يخشى أن تخترق قذيفة طائشة جدران بيته خلال وجوده في المرحاض. «كنت أريد موتاً لائقاً، كنت مرعوباً من أن ينتشلني أحدهم من المرحاض، وأنا غارق في الخراء، ستكون ميتةً مخزية»).

تكاد تهتف أعيدوا لنا حقنة الفزع التي أدمنّاها كلّ هذا الوقت، فنحن لا نستطيع أن نقطع أوتوستراد المزّة الطويل مروراً بنفق الأمويّين بصحبة أغنية من أرشيف الستينيّات، يبثّها مذياع السيّارة بصوت فايزة أحمد، من دون أن تعطّلها تلك الأصوات الثقيلة، وضجر الوقت أمام الحواجز، ورعب نسيان البطاقة الشخصيّة في جيب جاكيت استبدلتها على عجلٍ بجاكيت أخرى، أو بكنزةٍ ربيعيّة للّحاق بموعدٍ ما. كأنّ فكرة الحرب نفسها لم تعد كما هي. إنّها نيغاتيف الصورة وليست الصورة نفسها، كما لو أنّ الأمر يحدث حيال ألبوم صور بالأبيض والأسود، استخرجته من درج خزانة مهملة، ونفضته من الغبار. وجوه شاحبة بالكاد تعرف أصحابها، وتواريخ تشير إلى زمن الصورة، وربّما مكان التقاطها.

ترغب في أن تكون الحرب بالأبيض والأسود على الدوام، بالطريقة ذاتها التي تشاهد بها شريطاً وثائقيّاً مهترئاً من أفلام الحرب العالميّة الأولى، لا تعرف أسماء القتلى والجواسيس ومهندسي خرائط الجبهات، والجنود الجرحى في النقّالات، وآلاف الضحايا المجهولين. هذه الرغبة ليست بقصد نسيان آثام الحرب، بل لأنّ ما اختزنته طوال سنوات الجحيم، يفوق معنى الاسم ودلالته المباشرة. هناك ما جرى انتهاكه بما لا يمكن استرداده، أو إعادة ترميمه، أو ترويضه. ستجد في عبارة «تجارة البرابرة» اسماً بليغاً لوصف ما جرى بخصوص أنواع الهلاك، فالعطب يتجاوز الأجساد إلى الأرواح، أو كما كتبت نارنج عبد الحميد على صفحتها في الفايسبوك «ليس جسدي فقط من يحتاج إلى عكاز، بل روحي أيضاً. أن أقول بلا ندم: روحي العمياء تتجوّل بعكّاز كي لا تسقط في حفرة اليأس».

نيرفانا العنف تعمل بأقصى طاقتها على الفتك، وإتلاف الأرواح، واختبار أصناف جديدة للإبادة، بالاستحواذ على الأعضاء، وانتهاك

الأجساد، وتعطيل فكرة الغفران في الكتب المقدّسة، ونفض غبار الأسلاف عن فتاوى مبتكرة. كنتُ أحاول اختبار صوت بشير العاني، وهو يحاجج البرابرة في اتّهامه بالردّة، ثمّ كيف اقتادوه مع ابنه، في ذلك الصباح الممطر، إلى ساحة الإعدام، وهل ذبحوه أولاً، أم ذبحوا ابنه أمام عينيه، هل صرخ بأعلى صوته طالباً العفو عن ابنه، أم اكتفى بحشرجة ما قبل الموت؟

قبل ذلك بأشهر، غزت أسراب الجراد براياتها السود مدينة دير الزور، ونسفت الجسر المعلّق الذي يربط ما بين ضفتي نهر الفرات، ثمّ فرضت قوانينها الصارمة على الأهالي، وحين اشتدّ الحصار ووصل إلى حدود المجاعة، قرّر الشاعر البدوي أن يتسلّل إلى خارج المدينة التي لم يبق ما يربطه بها سوى قبر زوجته التي فتك بها السرطان قبل أشهرٍ قليلة. كان بيته على ضفاف نهر الفرات قد احترق بفعل قذيفة، أثناء وجوده في دمشق لعلاج زوجته (لا أعلم كيف تلقّى مشهد الحريق أثناء بثّه على اليوتيوب)، وحين عاد إلى مدينته، لم يتمكّن من إنقاذ مكتبته ومخطوط ديوانه الأخير. أراد أن ينجو بابنه، فتسلّل فجراً من مخبئه، محاولاً تجاوز خطّ التماس، لكنّه وقع في كمينٍ للمسلّحين، واختفى مع ابنه في أحد المعتقلات، إلى أن صدرت فتوى شرعيّة بذبحه مع ابنه ذي التسعة عشر عاماً بتهمة «الردّة».

كان آخر ما كتبه على صفحته في الفايسبوك «لهكذا حزنٍ أسرجتني أمّي، أنا الذي قايض الطمأنينة بالهزائم».

غاب بشير العاني بصمت، ودُفن في قبرٍ مجهول، لن يزوره أحد.

كان صوت الهارمونيكا يتسلّق النافذة، وقد ازداد وضوحاً.

55

«مهجورة، مثل آلة أكورديون في فرقة موسيقيّة».

وصلتني رسالة نارنج، من دون شروح إضافيّة، أو احتمالات بلاغيّة صرفة تعبّر عمّا هي فيه من أوجاع غير مرئيّة، فجَرْياً على عادتها في مقاومة الألم، حين تغرق في مزاج الهجران، والإحساس بالوحدة، والفقد، واضمحلال الأمل، تكتفي بتدوين عزلتها على صفحتها في الفايسبوك، كمن يلقي طعماً لسمكة ضالّة. أفترضُ، كنوعٍ من ذنب لم أرتكبه، أنّها تقصدني دون سواي، بما وصلت إليه أحوالها من إخفاقات وخسائر وندوب.

أسأل نفسي، قبل مجيء نارنج بقليل: هل الملامسات الحسيّة تحرّر جسدها من بثور الأمس؟ وهل اللون الرماديّ في علاقةٍ ما، هو مزيج من اللونين الأبيض والأسود حقاً، أم هو لون الغيوم فحسب، الغيوم التي تعد بمطرٍ وشيك سوف يغسل الأرواح المغبرّة؟ أم هل ما بيننا مجرّد نزوة مؤجّلة؟ سؤالها عن مصير مشروعي عن حادثة انتحار نايا مروان، قلبَ موازين ما كنتُ أخطّط له، لجهة الاشتباك العاطفي بيننا، دون مقدّمات، بناءً على إشارات كثيرة منها، كأن أمدّ يدي

نحوها، حين تسترخي بجسدها فوق الأريكة في الصالة، وأقودها بصمت إلى الغرفة، كمن يعدّ لها مفاجأة. أشعلتُ سيجارة ثمَّ سألتها مباشرة:

– هل تفكرين في الانتحار فعلاً؟

فوجئت بسؤالي، فتناولت سيجارة من كيس تبغها، كانت قد جهّزتها قبلاً، أشعلتها، ثمَّ قالت برصانة:

– لا أنكر أنّني فكرت بالانتحار، أكثر من مرّة، لكنّ هناك أشغالاً كثيرة لم أنجزها بعد، كما أنّني اكتشفت أنّ حياتنا هذه، هي نوع من الانتحار بالتقسيط. إنني أفقد روحي قطعةً قطعةً، مثل ذبيحة معلّقة بكلّاب أمام سكّين قصّاب.

قاطعتها ساخراً:

– أو مثل آلة أكورديون مهجورة في فرقة موسيقيّة.

– ولكنّك لم تجبني عن سؤالي بخصوص حادثة انتحار نايا مروان؟

– يخطر في بالي أنّ مخطوط روايتها موجود في مكانٍ ما من فوضى المشغل، وربّما استعمله النجّار في كتابة ملاحظاته عن مقاييس التوابيت، أو أسماء أصحابها، وتاريخ التسليم، في الصفحات الفارغة منه، وأن الرسّام لم يكترث بالمخطوط ولا بمصير صاحبته، كجزء من عبثيّته. العبثيّة التي أوصلت نايا إلى الهروب بعيداً، كتجربة في النسيان، وحين فشلت في خيارها، قرّرت الانتحار.

لم أشأ أن أنخرط أكثر من ذلك في وجع الموتى والمحزونين، كنتُ تحت تأثير نشوة ربيعيّة، ورهان على ارتفاع مستوى «الأستروجين» لدى نارنج، وحاجتها إلى حنانٍ مفتقد. نهضت بقصد أن أصنع لها القهوة، فلحقت بي إلى المطبخ، وطلبت منّي أن تعدَّ القهوة بنفسها. تناولت ملعقتين من البنّ ووضعتهما في الركوة، قبل أن تضيف إليهما الماء، على طريقة هنادي عاصي تماماً في تحضير القهوة، وفقاً لما رويته لها عنها. كانت منهمكة في تحريك مزيج البن

والماء بعصبيّة، وكأنّها تنتظر أن أبادرها بحركةٍ ما، كما لو أنّها هنادي عاصي في مخطوط روايتي التي لم تتمّ، ولم يكن أمامي إلّا أن أحيطها بذراعيّ، وأطفئ النار عن موقد الغاز، ونعبر معاً الممرّ الضيّق إلى الغرفة بصمت. أزحت الكتب المتراكمة على السرير جانباً، وأعدت المخدّة إلى مكانها، ثمَّ غرقنا معاً، في عتمة مساء ربيعي من نيسان، برائحة غاردينيا كانت تهبّ على دفعات من جسدها المحموم منذ ألف يوم.

56

كان الترجمان الروسي منهمكاً في تقليب عناوين الكتب المصفوفة على الرصيف الطويل تحت جسر الرئيس. لمحته من الزاوية المقابلة وقد ازداد ظهره انحناءً. هناك مأدبة جديدة من الكتب التي نُهبت من أحد بيوت الضواحي التي غادرها المسلّحون بعد معارك امتدّت نحو سبعة أشهر. من جهتي كنت بصحبة نارنج أفتّش عن عناوين روايات مترجمة، صدرت في الثمانينيّات وفقدتها من مكتبتي كمحصّلة لجملة من «حوادث» الانتقال من مسكنٍ مستأجر إلى مسكنٍ آخر، أو بسبب الإعارة لأصدقاء، كان معظمهم قد غادر البلاد.

كنت قد نصحت نارنج بقراءة رواية «المعلم ومارغريتا» لميخائيل بولغاكوف، كصورة بالطول الكامل عن تفكيك معنى الخوف والاستبداد والاحتضار البشري، وحين بحثت عنها في مكتبتي ولم أجدها، أدركتُ أنّها باتت في قائمة الكتب المرتحِلة، تلك التي تنتقل من يد إلى يدٍ أخرى، ثمّ تختفي في رفوف مكتبة مجهولة. لم يعد أمامي إلّا أن أفتّش عنها في بسطات الكتب. سألت الترجمان الروسي عن الرواية فقال بيأس «كانت لديّ نسخة منها، لكنّني لا أعرف مصيرها الآن، مثلها مثل مئات كتبي المفقودة»، ثمّ أضاف

كمن يبرّر وجوده اليوميّ في هذا المكان «اعتدت المجيء إلى هنا من أجل مطاردة أملٍ كاذب، ففي كلّ صباح، ما إن افتح عينيّ بعد نومٍ مضطرب، حتّى أنظر إلى الحائط الرطب المقابل لسريري، في الغرفة القذرة، متخيّلاً وجود رفوف مكتبتي، وأصوات مؤلّفي الكتب تدعوني إلى إنقاذ مؤلفاتهم من الحريق، فأهرع إلى هذا المكان، كمن تأخّر عن موعدٍ سيحدّد مصيره».

وعدني أحد الورّاقين بأنّه سيبحث في مخزنه عن نسخة من الرواية، فسُرَّتْ نارنج بهذا الوعد. كانت متشوّقة لقراءة هذه الرواية التي أحرق مؤلفها مخطوطها الأول بمجرّد أن فرغ من كتابتها ليأسه من الموافقة على طباعتها، في تلك الحقبة العصيبة التي كانت تعيشها بلاده، في ذروة صعود الستالينيّة، ثمّ أعاد كتابتها في مسوّدة ثانية، وثالثة، ورابعة أنجزها وهو على فراش المرض، ولم يُسمح بطباعتها إلّا بعد موته بسبعة وعشرين عاماً.

عرّجنا نحو مقهى المتحف الذي عاد إلى الخدمة مجدّداً. بدت نارنج كما لو أنّها نسيت ذكرى اعتقالها، ولم تشر إلى ذلك اليوم المشؤوم عقب زيارتها الأخيرة للمقهى. كنتُ أراقب التغيّرات التي طرأت على سلوكها، إثر ذلك المساء الشبق، وكأنّما لفظتْ خلايا جسدها كلّ الأدران التي لحقت به من جرّاء حادثة اغتصابها في المعتقل، فيما كنتُ أتأرجح بين منطقتي الندم واللذّة، لكنّني سأجاريها في ألعابها المرحة ببساطة، فأنا الآخر بحاجة إلى طرازٍ آخر من العيش، وإلى نسف ما راكمَتْه خسائر الحرب في روحي من فواتير فادحة، لا يمكن تعويضها إلّا بردم الحفر واختراع مشتلٍ للبهجة الخاطفة. وبناءً على هذا المزاج الطارئ، لم أمانع مشاركة نارنج صورها السيلفي في حديقة المتحف إلى جانب التماثيل البازلتيّة، والمقاعد الحجريّة التي تعود إلى عهد الملك الروماني فيليب الأول،

ولا أن نقف وراء تمثال من بقايا أوابد بصرى مقطوع الرأس لمحاربٍ قديم، واستكمال ما ينقصه في الصورة. وسوف نقطع المسافة إلى بيتها في حيّ المهاجرين بأصابع متشابكة، تحت وهج شمس ربيعيّة، واعترافات مرتجلة بأنّ الحياة هي ما سيحدث غداً، وليس ما حدث فعلاً، وتالياً فإنّ الانغماس في اللذّة، هو كتابة في درجة الصفر، لا يبقى منها إلّا عويل الجسد، لحظة تضميد كسوره بطعنات أخرى لا نهائيّة. في زيارتي الثانية لها، ستدعوني نارنج إلى غرفة أخرى من غرف بيتها، غرفة الجدّة، كما أوضحت لي، وقد حوّلت أحد جدران الغرفة إلى شاشة متوسّطة الحجم تتوسّط الحائط، ثمَّ طلبت منّي مشاهدة فيلم أنجزته «سرّاً». كان شريطاً صامتاً بالأبيض والأسود، تتخلّله تأوّهات امرأة لا نراها، إذ تستغرق العدسة في اختبار حركة أصابع القدمين بالتناوب مع حمّى أصابع يدها، فيما كان خاتم الفضّة في إصبعها الوسطى يضيء عتمة الحركة المتوتّرة لأصابع اليد، وهي تتوغّل ذهاباً وإياباً في أحراج فخذيها، إلى أن تتلاشى الحركة تماماً، وتسترخي اليد جانباً، مع صرخة رعشة جنونيّة.

لم أجد ما أعلّق به. فقط استعدت في ذهني عبارة كانت نارنج قد كتبتها على صفحتها في الفايسبوك قبل أشهر: «لماذا تطاردني صورة ذلك الوحش، وأنا أعبث بعانتي في العتمة؟». سأفهم أنّ هذا الشريط ليس مجرّد نشوة بورنوغرافيّة عابثة، بقدر ما هو تدريبات على النسيان، وتعبيرٌ عن عطش الجسد إلى ماء الآخر، وذلك بمحو صورة الوحش الذي اغتصبها في غرفة التحقيق، وتحرير جسدها من أنياب القسوة التي كانت تطاردها منذ خروجها من ذلك المسلخ البشري، ودرس بصريّ صميمي في صوغ رضوض الجسد الجريح بمنطقٍ مضادّ. بقيت صامتاً لنحو دقيقةٍ، فبادرتْ نارنج قائلة بما يشبه الدفاع عن نفسها، وهي تزيح الستارة عن نافذة الغرفة، ليتسلّل

الضوء إلى الداخل «ألم تقل لي يوماً، إنّ علينا أن نقشّر الطلاء عن الصندوق الأسود بمكاشفات جريئة؟». هززتُ رأسي موافقاً، وأنا أشعل سيجارتي، من دون أن أجد إجابة حاسمة للتخلّص من ورطتي النظريّة في ما يخصّ درجات المكاشفة، والجرأة في إعلانها بهذا القدر من الشجاعة، وربما التهوّر. انتابتني مشاعر متناقضة في تفسير ما تنتظره نارنج منّي، فهل أرادت أن تريني حجم عذاباتها مع جسدها، أم هي تغويني بعلاقة حسيّة أكثر رسوخاً، ذلك أنّ ما حدث بيننا في ذلك المساء الربيعي من نيسان، لم يتكرّر ثانيةً، رغم إشاراتها الملغّزة إليه، واختلاف طريقتها في العناق وتشابك الأيدي، ونظرة العين، وخلع حذائها والمشي حافية بين الصالة والمطبخ والغرفة بجسد اختبر لذّةً عميقة. كنت أتجاهل إشاراتها بانشغالات جانبيّة كنوع من الندم، أو الإحساس بالذنب، وهو مرض يخصّني، في أحوال هشاشتي، وقلّة حيلتي، وسوء محاكمتي، إلى أن انتهينا متعانقين على سرير الجدّة.

المتحف

ارتديت ثيابي التي اختلطت بثيابها على طرف السرير بصمت، وخرجت من الغرفة. وقفت أمام شجرة النارنج التي تتوسّط الحديقة الصغيرة، ثمَّ أشعلت سيجارتي. كنت أدخّن على مهل، وأنا أتأمّل حركة سلحفاة هرمة في زاوية الحديقة، من دون أن أقع على تفسير مقنع يتعلّق بأهمّية وجود مخلوقات من هذا النوع على الكوكب، ليس لديها ما تفعله سوى إطلاق الروائح الكريهة. انسحبتُ بنظري إلى ثمار النارنج في أعلى الشجرة، واخترتُ واحدة على أنّها تشبه استدارة نهد نارنج، قبل أن أصطدم بمنظر جانبي لمئذنة جامع، في الجهة المقابلة، تبعد نحو شارعين عن البيت، وصوت ميكروفون سيّارة موتى تنعى فقدان أحدهم بألقابٍ تمجيديّة طويلة. أطفأت سيجارتي على

عشب الحديقة، وعدتُ إلى الغرفة. فتحت درفة الباب نصف فتحة. كانت نارنج لا تزال ممدّدة على السرير، مغمضة العينين. قلت لها باضطراب، من دون أن أنظر إليها بتركيز «أنا ذاهب»، ولم أنتظر ردّها.

57

«شكراً لكلّ ما فعلته لأجلي».

كانت هذه آخر عبارة كتبتها لي نارنج، في رسالة من هاتفها المحمول، وهي تغادر حدود البلاد. قبل أن يصبح هاتفها خارج التغطية. لم تعلمني بأنّها قد رتّبت كلّ ما يتعلّق بلجوئها إلى أوروبا إلّا بعد وصولها إلى برلين «الآن أجرّب جحيماً آخر. أحاول اختبار الندم بعدسةٍ أخرى، وأن أسير وحيدةً تحت المطر بدون مظلّة». المناخ السديمي المغبرّ أضفى حزناً ثقيلاً على روحي ذلك الصباح من أواخر نيسان. لم أحتمل مثل هذا الفقدان، وأن تكون دمغة التخلّي والهجران بقوّة أثر الوشم على الجلد، وبمعنى أدقّ، لم أكن متهيّئاً لطعنة بهذا الحجم من الأسى المباغت. فنحنُ لا نعيش زلزال الآخرين بالقوّة نفسها، إلى أن تهتزّ الأرض تحت أقدامنا مباشرة. ألم داخلي بقوّة خمسة ريختر يعصف بي. أتأمّل النارنجة التي أهدتها لي نارنج، وهي تتدحرج من فوق المكتب إلى الأرض، وترتطم بالكتب والأوراق والأسطوانات، وآثار قدمي نارنج الحافيتين على البلاط، قبل أن تستقرّ تحت السرير.

الآن فقط أدركت سبب إصرارها على أن نذهب معاً إلى بيتها، وأن نتشارك سرير الجدّة بمثل ذلك الجنون والعطش واستنفار الحواسّ. ربّما رغبت في أن تبعد طيف الجدّة عن ملاءة السرير إلى الأبد، أن تغتسل من آثام الأمس، وأن تواجه مصيرها بمفردها، كي تبدأ حياةً أخرى لا تثقلها التعاسة والشقاء والوحدة. ألومُ نفسي الآن، حيث لا ينفع اللوم. لماذا لم أنظر إليها بتركيز وأنا أراها للمرّة الأخيرة من درفة الباب نصف المفتوحة؟ أو لماذا غادرت بيتها بمثل ذلك الاضطراب، من دون أن أنتظر ردّها؟ لماذا لم أعانقها قبل أن أذهب؟ أحاول أن أرفوَ ثقوب غيابها بخيط حرير لتخفيف ثقل الوجع، ووطأة الندم، وقسوة الفقدان. أتفقّد رائحتها في الأمكنة التي عبرناها معاً. الركن الذي نجلس إليه في مقهى الروضة، الرصيف الحجري على طول سور المتحف، ناصية ساحة يوسف العظمة، صورنا السيلفي أمام ساحة الجامع الأموي، رائحة تبغها، وطريقتها في العناق، كما لو أنّها تتسلق شجرة بأغصان كثيفة.

الآن فقط، بلا غبش في الرؤية، أدرك وحشة الفقد، وحدّة أنياب الحبّ التي غرستها نارنج في أضلعي، قبل أن ترحل، من دون وداع.

على الأرجح، لم تستطع نارنج أن تتصالح مع فكرة الغفران إلى النهاية، فأرادت أن تصفّي حسابها مع «حبيبها» القديم حسام الذي وشى بها لدى أجهزة الأمن، فحطّم حياتها تماماً، وقادها إلى مهالك لم تحتملها، رغم محاولاتها تجاوز عتبات الألم. قرّرت أن تفتش عنه في برلين، أو لعلّها وجدت عنوانه أخيراً، فكان لا بدّ من أن تذهب إلى هناك، في هذا التوقيت تماماً، كي تنجز مهمّة محدّدة لطالما أثقلت روحها، وهي أن تبصق في وجهه إيفاءً لدينٍ قديم.

58

غياب نارنج، كان نوعاً من الموت المؤقّت. فقدتُ صلابتي في مواجهة أكثر الأشياء التي تصادفني هشاشةً. أحسُّ بالوهن، مثل مريض يغادر سريره للمرّة الأولى، بخطوات مرتبكة، وروحٍ تالفة، يتّكئ على أقرب حائط أو كرسيّ كي لا يقع. لم أتوقّع أن تتركَ نارنج ندبةً بهذا الحجم في يوميّاتي اللاحقة، ذلك أنّني لم أختبر بجديّة أهمّية حضورها وضرورته ومغزاه. ما كان أمراً طبيعيّاً لا يستحقّ الالتفات إليه، أجده الآن معجزة أرضيّة. كان غيابها مثل لذعة جمرة سيجارة منسيّة بين الأصابع، في لحظة شرود، توقظني على فداحة الفراغ. حدثت البروفة الأولى للفقدان قبل أشهر، حين أخبرتني بأنّها تفكّر في الهجرة بصحبة امرأة تُدعى ريم صابوني وتصوير رحلتها في القوارب اللاشرعية لإنجاز شريط وثائقي عن رحلة الهلاك، لكنّها ستنسى الفكرة تماماً، بعد أيّامٍ فقط، بما فيها وجود امرأة تُدعى ريم صابوني في الأصل. كانت مشغولة بإيصال فكرة أخرى، وهي معرفة قوّة تأثير غيابها لديّ. الآن فقط أدركت قوّة الصفعة، ومعنى ألّا تكون نارنج عبد الحميد في حياتي، على بعد ثلاثة شوارع، ونفق، وساحة، وشجرة كينا عتيقة، وفي المقعد الأخير في صالة ورشة كتابة السيناريو.

ولكن ما علاقة توقيت موت سميح عطا، بغياب نارنج، هل اطمأنّ إلى وصولها إلى برلين، ثمَّ أسلم روحه مباشرةً؟ علمتُ بموت حارس مسرح القبّاني عن طريق ورقة نعوة ألصقها أحدهم في شارع 29 أيّار المحاذي لزقاق المسرح. لم يرثِهِ أحد، كما لم يخرج في جنازته ممثّل واحد، ولم تذكره الصحف بخبر صغير. وجده فنّي إضاءة أتى المسرح باكراً لإنجاز عملٍ ما، مسترخياً على مقعد في الصف «جيم» من صالة المسرح، على هيئة من كان يتابع فرجة مسرحيّة مملّة، فغفا ولم يستيقظ أبداً. ربّما كان يرغب في أن يموت على الخشبة، على غرار الممثّلين التراجيديّين، وهو يؤدّي دوراً لإحدى شخصيات تشيخوف، أو شيكسبير، أو الحكواتي، لكنّه دُفنَ في مقبرة الغرباء، وحيداً مثل فزّاعة.

خلال عرض الشريط الذي أنجزته نارنج عن الحارس، لم يعلّق أحد من أعضاء ورشة السيناريو بكلمةٍ واحدة، كانوا أسرى صمتٍ تامّ، كما لو أنّهم كانوا في مأتم، فخرجتُ من القاعة مثقلاً بمرثيتين في آنٍ واحد: موت سميح عطا، وغياب نارنج عبد الحميد.

سلكتُ الطريق نفسه إلى باعة كتب الرصيف، تحت جسر الرئيس، في أوّل زيارة إلى هناك، من دون رفقة نارنج. بادرني أحد الورّاقين بأنّه وجد نسخة من رواية «المعلّم ومارغريتا»، ثمَّ أبلغني بموت الترجمان الروسي. «مات، من دون أن يستردَّ كتاباً واحداً من مكتبته المفقودة. مات في قبوه المعتم، ولم يكتشف أحد خبر موته إلّا بعد أن اشتكى الجيران من هبوب رائحة جثّة متعفّنة في القبو».

عبرتُ رصيف المتحف مثقلاً بموتين طازجين، وطعنة غياب. لم تكن لديّ رغبة في العودة إلى المنزل محمّلاً بكلّ هذه الأثقال. في مقهى الروضة طلبت شاياً مخدَّراً. أخرجت رواية «المعلّم ومارغريتا» من حقيبتي، النسخة التي كان مفترضاً أن تكون من نصيب نارنج،

تصفّحتها عشوائيّاً، وفيما كنت أنوي وضعها جانباً، انتبهت إلى أنّ الصفحة الأولى من الرواية، كانت ممهورةً بتوقيع الترجمان الروسي!

وكان كمال علوان الذي استقرّ أخيراً، في ركنٍ من المقهى، بموعد يوميّ ثابت، وبحقيبة جلديّة من طراز حقبة السبعينيّات، محشوّة بما يعتبره وثائق مهمّة، وأدويـة، وعبوة مياه معدنيّة من الحجم الصغير، مملوءة ببراندي مصنّع محليّاً، ومفكّرة أرقام هواتف موتى، منهمكاً كعادته منذ أشهر، في عمليّة نسخ لكتاب عن صعود المذاهب الإسلاميّة المتشدّدة، والملل والنحل، وأسباب إخفاقات التيّارات اليسارية، وذلك لتعزيز ما ينقص مخطوط كتابه المنتظر «تقويض إسمنت الدولة» من ذخيرة إيديولوجيّة لا يمتلكها، أو هي ذخيرة مشوّشة في الأصل، مراهناً على فوضى المصادر، واختلاط الوقائع، وقوّة فياغرا التاريخ في تسديد اللكمات لخصومه الفكريّين، في عدم اكتشاف مرجعيّات نظريّته الكونيّة، في إعادة تشكيل العالم على نحوٍ آخر، أقلّ كارثيّة، بألف صفحة وملحق، وكان كلّ ما ينقصه في إنجاز مشروعه، حسب ما قاله لي باطمئنان، هو اضطراره إلى الانتظار ربع قرن آخر، ريثما تفرج وكالات الاستخبارات العالميّة عن وثائقها السريّة حول الزلزال الذي أصاب المنطقة، كي يضيفها إلى كتابه، وكان على يقينٍ راسخ بأنّ البربريّة التي اجتاحت هذه الجغرافيا الملعونة، بكامل أدواتها في البطش، أتت بسبب أفكاره التبشيريّة في حتميّة قلب العالم على قفاه، كما يحدث لحاوية زبالة.

59

بسفر نارنج، لم تعد تعنيني الأخريات، إلى الدرجة التي أقنعت فيها نفسي بأنّني لم أقابل هنادي عاصي يوماً. أزيح نساءها المحزونات عن القماش الأسود في لوحاتها، وأنصت إلى العتمة الداكنة التي يؤطّرها المقصّ بين إصبعيها على هيئة كفن لامرأة مكوّرة في صندوق. أغلق الصندوق، كما لو أنه تابوت لتلك العلاقة الخاطفة بيننا، بدليل عدم اكتراثي بوجودها الليلي لحراسة صفحتها في الفايسبوك، ونسيان حضورها خلال إعداد قهوتي الأولى. وسوف أتذرّع بانشغالي الشديد بأعمال طارئة، للتهرّب من لقاء أسمهان مشعل خلال زياراتها المباغتة لدمشق، تجنّباً لوصفاتها النباتيّة، وطقوسها الروحانيّة، وعواء عزلتها. كذلك قابلت جمانة سلّوم مرّة واحدة فقط، بعد ذلك اللقاء العاصف، بحياديّة لا تليق بذلك الشغف الذي كان ينتابني لمجرّد سماع صوتها، من دون أن أسألها عن مصير مشاريعها الفوتوغرافيّة الجديدة، أو قدرتها على التخلّص من كوابيسها، واستعادة جسدها ما قبل طوفان الصور المفزعة.

اهتزَّ كلّ ما يحيط بي، مثلما يحدث لبناية لحظة وقوع قذيفة. بقايا غبار، وحرائق، واستغاثات، وأعضاء مبتورة. كنت في موقع من

يسعى إلى وضع خيط داخل خرم إبرة في العتمة، وإن تمكّنت من إدخال الخيط في مكانه فعلاً، إثر محاولات محمومة، لا أجد ما أخيطه في الإبرة. خرائطي ممزّقة، ولم يعد مفيداً ترقيعها، أو رفو تضاريسها بالحنين، أو الندم، فأينما اتّجهت ابتلعتني حفرة عميقة، تنبعث منها رائحة عفونة، أستغيث في العتمة، ولا أحد ينصت إلى استغاثتي. أصبحت حياتي بطعم حساء أُعيد تسخينه أكثر من مرّة.

فقط نارنج كان لها ألم الطعنة المتكرّرة في الصدر، من دون أن أجد تفسيراً نهائيّاً، لقوّة هذا الشغف.

60

انقطعت أخبار نارنج عبد الحميد تماماً، رغم كلّ محاولاتي لاقتفاء أثرها. أغلقتْ حسابها على الفايسبوك، وبدّلت بريدها الإلكتروني. تركتني معلّقاً في الفراغ، مثل فزّاعة طيور تحرس حقول الوهم. كنت أكتب على صفحتي الشخصية في الفايسبوك رسائل ملغّزة لا أحد يلتقط شيفراتها سواها، من دون أن تستجيب لها مرّة واحدة.

بغيابها لم أتمّم مشروعاً واحداً من تلك المشاريع المتراكمة لديّ. أفكار سيناريوهات مؤجّلة تتزاحم في مخيّلتي فقط، ومسوّدة رواية معطّلة مثل عربة عالقة في كثبان رمليّة، وسط صحراء بلا تخوم، وساعة رمليّة لإعادة تدوير الوقت في متاهة لا أمل في الخروج منها، لاستنشاق هواء الطمأنينة.

بعد نحو ثلاثة أشهر على اختفاء نارنج، سأجد رسالةً يتيمة منها، في بريدي الإلكتروني، رسالة تحوي قصيدة بتوقيع شاعرة مجهولة بالنسبة إليّ، اسمها كليمانتين ڤون راديكس، من دون أيّ تعليقٍ. قصيدة تختزل كلّ ما كان بيننا، أو ما كان ينبغي أن يكون، وربّما ما سوف يكون!

من جهتي سأعتبر هذه الأبيات تميمتي في تحمّل أعباء الفقدان، واختبار تضاريس الندم بسكة محراث مثلّمة:

«لستُ أوّل امرأة تقع في غرامها
ولستَ أوّل رجل أنظر إليه وأنا متخمة بآمال كثيرة
كلانا قاسى أوجاع الفقد الحادّة، كما نصل سكّين
كلانا عاش بفم مغطّى بجروح متقشّرة أكثر من الجِلد
حسناً، إليك ما سنفعله لنلتئم
سأقبّلك كما لو كنتَ الغفران
ولتضمّني إليكَ كما لو كنتُ الأمل
أذرعنا ستضمّد الأوجاع
ولن أخاف أبداً من آثار ندوبك».

(دمشق، حزيران، 2016)

مكتبة
telegram @ktabpdf
telegram @ktabrwaya
جديد الكتب والروايات

تابعنا على تيليجرام اضغط هنا

تابعنا على فيسبوك اضغط هنا

اختبار الندم — في الحروب تتشـابه الأيّام. يصبح وجودك مصادفة أخطأتها رصاصة. يصبح كلّ يوم يوماً إضافياً تعيشه في الوقت الضائع. تنسى أن تنظر في المرآة. تبحث عن وجهك في وجـوه الآخرين. تدفن وحدتك في المقهى، في القصص العابرة، في الأحاديث الافتراضية التي تجد طريقها بين وجهَين باكيين من وجـوه «الإيموجيز» على محمولك. الشّـعر يصبح حجّة للتعلّق بفعل الحيـاة. الحـبّ. المغازلة. المواعيـد. كلّها تصبح أسـلحة لمكافحة القذائف التي إن لم تطلْك طالت جوهر إحساسك بالوجود. في الحرب تصل الأحاسـيس إلى منتهاها. تتجرّد الحياة من مسـاحيق المهرّج وتبدو عارية على حقيقتها، قاسية على حقيقتها، مروّعة على حقيقتها. وتطفو القصص المدمّاة على السطح.

«اختبار الندم» تحكي قصّة كاتـب بارعٍ في تفويت الفرص، موهوب في بعثرة الكآبة، يعيش محتمياً في فقّاعة هشّة، محاولاً ترويض شياطينه.

هو كاتب يبذر كلماته في أزقّة دمشق العتيقة، وهنّ ثلاث فتيات على هامش الحياة: «متشاعرة» و«ملتهبة» و«مغتصَبة». هنّ حكايات يداعب بها الوقت الباقي من حكاية حرب هي الأطول بين حكاياته مع كلٍّ منهنّ.

«كتابة روائية تزاوج بين المتعة وصوغ أسئلة جذريّة.»

— الروائي والناقد محمد برادة

خليل صويلح — روائي سوري، مواليد الحسكة عـام 1959. نـال إجازة فـي التاريخ مـن جامعة دمشـق عام 1986. حازت روايتـه الأولى «ورّاق الحـب» (2002) جائـزة نجيب محفـوظ للرواية العربية عام 2009. من رواياته أيضاً «بريد عاجل» (2004)، «دع عنـك لومـي» (2006)، «زهـور وسـارة وناريمان» (2008)، «سـيأتيك الغزال» (2011)، «جنّة البرابرة» (2014). كما له عنوانان في مجال النقد: «اغتصاب كان وأخواتها – حوارات مع محمد الماغوط» (2002)، و«قانون حراسـة الشهوة» (2015).

نوفل هي دمغة الناشر
هاشيت أنطوان